آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله

الحوار في القرآن

قواعده - أساليبه - معطياته

دار الملاك
للطباعة والنشر والتوزيع

آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله

الحوار في القرآن

قواعده - أساليبه - معطياته

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام

على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين

في البدء كان الحوار..

كان الملائكة يسبحون ويقدسون الله في ابتهال وخشوع وإخلاص. ويشاء الله أن يخلق الإنسان ليكون «خليفته في الأرض».

ويعلن لهم هذه المشيئة الحاسمة.

ويبدأ الحوار في السّؤال عن طبيعته وعن دوره وعن سلبياته وإيجابياته.

ويحدثهم الله عن ذلك كله في ما اختصره القرآن من القصة، ويختم الحوار من موقع الوقوف بهم عند حدود المعرفة التي يملكونها﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)

وتتحرك الحياة في الأرض ويخطو آدم ـ الإنسان في حركته الإنسانية، التي تنتج

الإنسان الفرد من أجل إيجاد الإنسان ـ المجتمع. ويعيش المجتمع في حاجات متضادة وأفكار متباينة ومشاعر مختلفة.. ويقف أفراده ليتقاتلوا وليتحاربوا وليتحاقدوا، كأسلوب من أساليب التعبير عن ذواتهم في ما تريد وفي ما لا تريد..

ويقتل قابيل هابيل، لأنه يريد أن يؤكد ذاتيته من خلال ذلك. فلم يكن هناك شيء آخر يستريح إليه من أجل التنفيس عن عقدته النفسية.. كان القتل هو الأسلوب الذي يفهمه، فليس عنده مجال للكلمة التي تأخذ تارة وتعطي أخرى..

وجاء الأنبياء ليعلِّموا الإنسان طبيعة الكلمة التي تأخذ وتعطي، ليتعلم كيف يعالج مشاكله بها، وكيف يحلّ خلافاته من خلالها؛ لأنها تمثل النافذة التي يطل منها الإنسان على ما في داخل الآخرين عندما، تجد صداها الإيجابي في كلماتهم الهادئة أو الصاخبة.

وكان الحوار هو أسلوب الأنبياء ورسالتهم الآلهية إلى الإنسان. وأرادوا ـ في البداية ـ أن يدخل الإنسان مدرسة الحوار في صفوفها الأولى، فأثاروا أمامه القضايا التي تتحدى جهله وآفاقه الضيقة، ليثيروا فيه طبيعة المواجهة، ليسأل أو يحتج أو يشتم أو يتمرد أو يقذف بالحجارة أو يهدد بالقتل.. كانت القضية أن يتحرك في الداخل، ليخرج من جمود الصمت المتحجر في داخله.. وكانت الفكرة أن يتعلم كيف يتطلع إلى النور الآتي من الله. وتحرّك الإنسان في الإتجاه السلبي للرسالة، فأنكرها وحاربها وتمرّد عليها وكفر بها وهاجم الأنبياء حتى الموت.. وصبر الأنبياء من موقع الوعي الرسالي لطبيعة المرحلة، وشعروا أنهم نجحوا في افساح المجال لهذا الإنسان أن يشك ويناقش ويعيش الحيرة والقلق في داخله، وإن حاول أن يوحي بالإرادة المضادة.

وذاب الجليد، وبدأ الإنسان يحاور الأنبياء حواراً عنيفاً يبرر تمرّده؛ ووقف الأنبياء أمامه يحاورونه حواراً يخفف من تمرّده، فكانت الكلمة الطيبة الوديعة تقابل الكلمة العنيفة الحاقدة. كانوا يريدونه أن يستمع إلى الكلمة الحلوة ليتعلمها، لتبقى في وعيه، ليمارسها ولو بعد حين.. وكانوا يدلِّلونه بتسامحهم، ليعرف كيف يتحول التسامح إلى

ممارسة عملية، تتجسد في موقف الرسول..

كان يريد أن يهزم رسالاتهم، من خلال كلماته ومواقفه. وكانوا يعملون على أن ينتصر على نفسه، من خلال الإنتصار على رواسب الجريمة في داخله.. فيصبرون ليعلِّموه كيف يكون الصبر في موقع الصراع، الصبر على النوازع الذاتية وعلى التحديات المضادة وعلى الوقوف مع الحقيقة بقوّة وعلى روحية الحوار التي توحي له بالانفتاح الرحب على كل ما في الحياة من قضايا ومشاكل. كانت تلك الدروس الأولى التي تعلمها الإنسان في الحوار من خلال الأنبياء. وتتابعت الدروس، وكان الأنبياء «المعلِّمون» يتساقطون تحت وطأة شقاوة التلاميذ، الكسالى، اللاعبين بحجارات الكفر والضلال. ولكن القافلة تستمر وتتنوع الدروس في أساليبها وينطلق الحوار في الحياة تياراً يهدر وينبوعاً يتفجر وريحاً يحرك الفكر والعاطفة والوجدان ومنهجاً للسير بالحياة إلى أهدافها الكبيرة.

وما تزال الحياة تحتضن الحوار وترزح ـ في الوقت نفسه ـ تحت ثقل الأساليب العنيفة، التي تريد أن تخنقه بالجو الضاغط الذي تصنعه، وبالقوّة المادية الغاشمة التي تحشدها، وبالعقليات الضيقة التي تربِّيها ويقف الحوار أمام القوّة كما وقف الأنبياء، ليعلِّم أن القوّة لا تستطيع أن تبني الحياة التي تريد إلا من خلال الحوار؛ لأن القوة التي تفقد ذلك سوف تدمر نفسها في نهاية المطاف، لأنها لا تجد أمامها إلا الحجارة التي ترجم حجارة والرصاصة التي تقابل الرصاصة دون هدف أو معنى. إن الحوار يعطي القوة للمضمون الذي تتحرك من خلاله، والهدف الذي تسعى إليه والروح التي تعيش فيها..

كذلك، فلا بد من الحوار، لتستمر الحياة في حالة الضعف أو في حالة القوة، في حالة الحرب أو في حالة السلم.

وكان القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية، التي جاءت لتعلّم الإنسان كيف يكون الحوار طريقاً للفكر والعقيدة والعمل.

وجاء الإسلام ـ من خلال القرآن الكريم ـ ليكون دين الحوار، الذي يطلق للعقل أن يفكر في كل شيء، ليتحدث عن كل شيء وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل. ليعلِّمهم كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن؛ وتقدم الإسلام وتقدمت معه تجارب الحوار، وعرف المسلمون كيف ينفتحون على العالم من خلال ذلك وكيف ينطلقون إليه في رسالتهم في أجواء الحوار، التي تحترم الإنسان الذي يختلف معها، لتقوده إلى أفكارها من موقع احترام الفكر والكلمة والموقف.

ومرت الأيام .. وجاء عصر التخلف وانكمشت افاق الحوار وانعكست هذه الأوضاع على الإسلام كدين في نظر الآخرين فحاولوا أن يصوروه بصورة الدين، الذي لا يسمح لوجهات النظر الأخرى أن تعبر عن نفسها في حضوره. وتأثر المسلمون بذلك في بعض مجتمعاتهم فضاقت نفوسهم بالحوار.. وابتعدوا عن القرآن فلم يرتكزوا عليه في وعيهم لقضايا العقيدة والحياة.. وجاء الكفر في ثوب الاستعمار، ليجمِّد القرآن في نفوسنا وحياتنا وليوحي إلينا بأن طريق الخلاص يتمثل في ما استحدثه من مبادىء وفي ما أثاره من فلسفات.. ووجدت هذه المبادىء والفلسفات مجالها الرحب في أفكار الجيل وتطلعاته، من خلال الإطار الفكري الذي صنعته أساليب التربية الغربيّة، وغذته مفاهيمها الحضارية، وركزته القوى المادية الضخمة التي يملكها الاستعمار من أدوات الحرب والدمار ووسائل الصناعة الحديثة... وتحوّل ذلك كله إلى إرهاب فكري يشل قدرة الإنسان المسلم على المناقشة في الأسس والتفاصيل، فضلاً عن المعارضة.

فقد استطاعت كل تلك العوامل أن تثير في شخصيته الشعور بضعف الأصالة الفكرية، المرتبطة بجذور العقيدة والتاريخ؛ وتخلق في داخله «عقدة الاستغراب» باعتبارها الطريق الوحيد للدخول في أجواء العصر والارتفاع إلى مستواه.. حتى أغلق على نفسه أبواب الحوار، لأن الموضوع لا يحتمل المناقشة؛ فقد استطاع الفكر الأوروبي أن يفرض نفسه على الحياة من خلال نجاحه في دفع الحياة نحو التقدم على صورته، مما يجعل من قضية سلامتها من الخطأ قضيةً لا تحتاج إلى إثبات، لأن التجربة تؤكد

ذلك.. وما زالت القصة تتفاعل على مستوى الفكر والحياة والمصير، في دائرة تؤكد على الإيجابيات بعيداً عن كل السلبيات الروحية والعملية والمصيريّة..

وعادت قضية الحوار من جديد، لتكون إحدى الهموم الكبيرة للعاملين في سبيل الدعوة الإسلامية لتجارب في اتجاهين:

أحدهما: تحطيم الحواجز النفسية، التي تحول بين الجيل المفتون بأجواء الحضارة الأوروبية وبين الحوار فتقوده إلى الشك والتساؤل وتثير في نفسه مشاعر القلق تجاه مصيره، وذلك بتوجيهه إلى التفكير في السلبيات التي بدأت تتحرك في داخل حياته المضطربة المرتبكة، في أكثر من اتجاه وعلى أكثر من صعيد، ومحاولة دفعه إلى التفكير بإيجابيات الفكر الإسلامي في العقيدة والتشريع، من خلال إثارة المفاهيم العامة التي تعالج مشكلات الحياة في جوانبها المختلفة المتنوعة، ليوازن بين الإيجابيات والسلبيات في عملية مقارنةٍ منفتحة واعية.

ثانيهما: إثارة روح الحوار في داخل المسلمين، الذين يعتبرون أنفسهم من العاملين على دعوة الناس إلى الإسلام، ليشعروا أن قضية الدخول في الحوار مع الآخرين ليست قضية مزاج منفتح أو منغلق، يمارس من خلاله الإنسان عمله، بل هي قضية الرسالة في خطواتها القرآنية في الوحي، وفي خطواتها النبوية في العمل النبوي.. ولذلك فإن عليهم أن يستثيروا كل ما في داخلهم من طاقات روحية وشعورية وفكرية، فيدفعوا بها إلى أجواء الحوار، ليجعلوا منها مجالاً منتجاً في رحابته الروحية وفي عمقه الفكري.

وفي الوقت نفسه، لا بد لهم من التوفر على التعمق في الدراسة والبحث والتأمل، لأن الحوار الدائر الآن يفرض على اطرافه أن يبلغوا مستوى عال من الثقافة تتحرك في أكثر من اتجاه، لأن المشاكل المطروحة على الساحة لا تنحصر في أفق واحد، بل تتنوع آفاقها ومنطلقاتها حسب تنوّع الساحة التي تتحرك فيها..

ومن الطبيعي أن يطرح هذا الاتجاه - في معالجة المواقف الرسالية في طريق الدعوة إلى الله - قضايا جديدة وروحاً جديدة وأسلوباً جديداً في العمل، لم يعرفها العاملون في مراحل الاسترخاء الروحي أو الفكري، الذي عاشوه في قناعةٍ كسولة عجيبة لا تتوجه إلى الحياة، إلا من خلال الأفق الضيق في الفكرة والأسلوب، من دون التفات إلى الواقع الذي يركض بسرعة قياسية مذهلة، ليجتاز كل المتاهات في كل الإتجاهات..

وعاد الحوار إلى الساحة في الندوات والمؤلفات والمحاضرات وعدنا إلى القرآن من جديد، لنتعلم منه كيف نبدأ الحوار من موقع الأساليب الرسالية، وكيف نتحرك في مجالاته لتنسجم العقيدة مع أسلوبها، لأن أجواء الرسالة عندما تطبع الأساليب بطابعها، تعطي العمل قوة دفع جديدة في روحية واقعية هادفة.

وقد كان هذا الكتاب محاولة متواضعة في اكتشاف آفاق الحوار القرآني وأساليبه وقواعده ودراسة معطياته العملية، لأنني لم أجد في المكتبة الإسلامية - في حدود قراءاتي - كتاباً يبحث الموضوع بشكل متكامل، يجمع الجوانب الفكرية العامة لقواعد الحوار والنماذج التطبيقية الواقعية في تجارب الأنبياء وغيرهم. ويتحرك في الإتجاه الذي لا يجعل من البحث محاولة جديدة في الدراسات الإسلامية الأدبية، بل يجعل منه حركة في خطوات الدعوة الإسلامية المعاصرة باكتشاف الخصائص المشتركة للآفاق، التي عاشها الحوار القرآني في عهود الرسالات الأولى، وللآفاق التي تعيشها الدعوة الإسلامية الآن في تجارب الدعاة الإسلاميين، الذين يتحركون في كل المواقع من أجل أن ينطلق الإسلام إلى الحياة فكراً يوجّه، وشعوراً يوحي، وقانوناً ينظّم، وحكماً يفرض سيادة الله على كل قوى الحياة، في إطار تشريعي شامل يتحرك من القرآن والسنة في مرونةٍ اجتهادية، لا تبتعد عن المنابع في أصالة الفكرة، ولكنها تندفع بقوّة لتنشر الخصب والنماء في كل مواقع الحياة.

إنها محاولة متواضعة، أرجو أن أجد في القراءات الواعية لأخواني من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، الملاحظات النقدية التي تجعل منها محاولة ناجحة لا تنحصر في تجربة شخصية وملاحظة ذاتية بل تتسع لتشمل تجارب كل العاملين وتأملاتهم الرسالية..

وقد لا أحتاج إلى التأكيد من جديد أن هذا الكتاب لم ينطلق من موقع الترف الفكري الأدبي الإسلامي، بل كل هدفه أن يحرّك في خطى العاملين روحاً إسلامية جديدة، تدفع خطوات الحوار إلى أهدافها البعيدة في تقريب الإنسان إلى الله، من خلال ارتباطه بالإسلام - العقيدة والمفهوم والأسلوب والتشريع..

وهذا هو الكتاب الثالث، الذي وضع في أجواء الحرب التي أوقدتها الفتنة الاستعمارية في لبنان. فقد كتبته في أضواء الشموع وفي أجواء القذائف، عندما كنت أعيش في منطقة النبعة، التي تعتبر احدى مناطق البؤس في بيروت.. وكل ما أرجوه أن يحقق هذا الكتاب هدفه وأن ينفعني الله به يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٥ رجب ١٣٩٦ هـ

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد وسلام على عباده الذين اصطفى

ربما يكون للحديث عن «الحوار في القرآن» دور ثقافي، يحدد للناس نظرة الإسلام إلى حركة الخلافات الفكرية التي تفرض نفسها على واقع التفكير في الحياة، ويناقش المقولة التي تتهم الإسلام بأنه «دين السيف»، الذي لا يطرح فكره للناس إلا من خلال السيف، بعيداً عن كل فكر وعن كل حوار؛ لتحل محلها المقولة التي تفتح كل الأبواب المغلقة للحوار، ليبرز الإسلام من خلالها دين دعوة وفكر وحوار.

... ولكن هل القضية قضية تحسين صورة الإسلام في نظر الآخرين، وإبعاد الصورة المشوهة التي رسمها الاعداء للإسلام، تماماً كما هي القضايا التي تطرح لترد نقداً أو لترفض حكماً أو توضح صورة، بعيداً عن أي هدف عملي للحركة في إتجاه الواقع؟

إن الجواب لن يكون إيجاباً، فإننا لا ننكر الضرورة الملحة للوقوف أمام عملية التشويه، التي اختلفت أساليبها تبعاً لاختلاف الأهداف، التي يستهدفها الكفار لإبعاد

الإسلام عن حركة الفكر والإنسان في الحياة. ولكننا - في الوقت نفسه - لا ننطلق في مسيرتنا من مواقع ردود الفعل، بل نعمل على أساس أن تكون انطلاقة الإسلام هي انطلاقة الفعل الواعي، من خلال التخطيط المدروس المرتكز على قاعدة ثابتة من الفكر والإيمان والواقع.

ولهذا فإننا نعمل من أجل إيجاد «الإنسان المسلم»، الذي تتبلور شخصيته على هدى المفاهيم الأصيلة للإسلام، وتتحرك خطواته في الخطوط الواضحة المستقيمة لمساره العملي، من دون اعتبار لرأي الآخرين في ما يريدونه له من قضايا وأهداف، لأن القضية الأولى والأخيرة عنده هي قضية أن يكون عمله منسجماً مع رضا الله وخططه للإنسان وللحياة.

وفي ضوء ذلك، نرى أن موضوع الحوار يرتبط بالتكوين الداخلي لشخصية الإنسان المسلم، الذي يريد له الإسلام أن يفكر كيف يفتح قلوب الناس وعقولهم على دين الله وشريعته، وكيف يربطهم في حياتهم بخط الالتزام بالرسالة في كل مواقفهم العملية - سواء كانت سياسية أو إجتماعية أو اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك من آفاق العمل - ليعيش الناس الإسلام فكراً وعملاً وشعوراً، فيكون الإسلام لديهم قاعدة للفكر والعاطفة والحياة. ولن يستطيع المسلم بلوغ هذا الهدف، إلا إذا استطاع أن يعيش روحيَّة الداعية في ذاته، في ما يعيشه من القلق الروحي الدائم الذي يتحسس ملامح الفكر والشعور لدى الآخرين، ليصل إليهم من خلال نقاط ضعفهم وقوتهم.. فلا يثير في داخلهم شعوراً سلبياً لا داعي لإثارته، ولا يواجههم بأفكار سريعة تحتاج - في وصولها إلى أفكارهم - إلى مقدمات طويلة، تهيء الجو النفسي وتمهد الأرضية الفكرية لذلك... ولا يحطم مشاعرهم بالقسوة في الكلمة والحركة والأسلوب بل يعمل على أن يلامسها باللطف واللين والحكمة، لتكون المدخل الطبيعي للثقة والعاطفة المتبادلة التي تمنح الفكر حالة الهدوء، والشعور حالة الطمأنينة. وهما المدخل الطبيعي لتكوين القناعات والوصول إلى روحية الإيمان.

إننا نريد للفكر أن يتحول إلى خطوات عملية، ونريد للحوار أن يتجسد في «الإنسان المحاور»، الذي يعرف كيف يصل إلى عقل الإنسان الآخر بأقرب طريق وأفضل أسلوب...

وما نريده لهذا الكتاب في «طبعته الثانية»، أن يكون دليلاً في الطريق الطويل، وهادياً في ظلمات العنف ومرشداً في متاهات الضياع وسبيلاً من سبل تحريك الحوار في خطوات الواقع العملي، ليكون الوجه المشرق للإسلام في صورته العقلانية الوديعة الهادئة، التي تفكر دائماً بالسلام وهي تحارب، وتعمل للمحبة وهي تكافح مشاعر البغضاء.. وتريد للإنسان أن يلتقي بالله ـ دائماً ـ في فكره وشعوره وحياته، ليكون الله هو القاعدة التي تلتقي عندها كل تطلعات الإنسان في الحياة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٨ رجب الحرام ١٤٠٣ هـ
محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

ما هي مهمّة الحوار في حياة الناس.

هل هي مجرّد إيصال القضايا التي يختلفون فيها إلى وضوح الرؤية، من أجل إيجاد قناعة مشتركة حولها، وتوحيد المواقف تجاهها..؟

أو أن هناك شيئاً آخر يُضاف إلى ذلك؟

لعل المعروف لدى الناس هو الوجه الأول من الصورة... ولكننا نعتقد أن هناك أكثر من وجهٍ للمسألة. فإن الحوار يُساهم في تبريد الأجواء النفسية لدى المتحاورين، عندما تتحوّل الساحة الداخلّية عندهم إلى موقع من مواقع اللقاء على المفاهيم المشتركة أو المعاني المتقاربة، مما يخلق في مشاعرهم حالة حميميّةً تجاه الطرف الآخر، بالإضافة إلى الحالة الفكرية أو هكذا ينبغي أن يكون...

وربّما لاحظنا أنه يخلق ـ في اتّجاهٍ آخر، حركةً فكريّة في الساحة التي تكون خاضعةً في البداية لبعض الأحكام التجريديّة أو النظرات الإنفعاليّة أو القناعات المسبقة، المنطلقة من مواقع سطحيّة لا ترتكز على عمقٍ في النظرة وشمولٍ في الدراسة وحركةٍ في الفكر... فإذا بالحوار يحولّها إلى عمليّةٍ موضوعيّةٍ ترصد دقائق الفكرة

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه
المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

لعلّ من بين المشاكل التي يعانيها واقع المسلمين هو هذه المساحة الواسعة بين النظرية والتطبيق، في ما يؤمنون به من أفكار، وفي ما يتحركون به من مواقف، مما يجعل من الصورة الواقعية للإنسان المسلم، صورةً مشوّهةً للإسلام في حركته في الواقع.. لأن الناس تأخذ الفكرة ـ غالباً ـ من الواقع أكثر مما تأخذها من النصوص الإسلامية في الكتاب والسنّة.. وهذا ما اعتبره القرآن في مستوى الخطورة الكبيرة، في ما هي المسؤولية أمام الله، من خلال ما تثيره من غضب الله وذلك في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف:٢ ـ ٣).

فإن ذلك يعني الإزدواجية في شخصية المسلم بين ما هو الفكر والإلتزام في الذهنية

الثقافية، وبين ما هو الموقف والحركة في الذهنية العملية مما لا يجعل من التجربة الفكرية في معاناة العقل، تجربةً حيّةً عمليةً في حركة الواقع.. فيفقد الإسلام واقعيته.. ليكون حالةً مثاليةً في الفكر.. وانفعالاً بأوضاع الإنحراف في العمل.

ولعلّ مسألة الحوار هي من المسائل المهمّة في المنطق الإسلامي كأسلوبٍ، متحرك عمليّ في الوصول إلى الحقيقة وفي تكوين القناعات.. وفي حركة الصراع في القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية ونحوها لأنه الوسيلة الفضلى التي يعبر فيها الإنسان عن فكره بطريقته الخاصة، في رفضه أو قبوله لأفكار الآخرين، في موقع الحرية الرحب الذي يمنح الإنسان الأمن من الإضطهاد في حركة الصراع.. وهو الذي يبلور الأفكار ويصفّيها من كل الشوائب، ويرفع عنها الكثير من الغموض، ويوضح الكثير من مفرداتها من خلال عملية الأخذ والرد.

ولكن المسألة هي أن عملية التنشئة التربوية في المجتمع لا تحقق ذلك، فنلاحظ أن الأسلوب الذي يمارسه الأب أو الأم، في البيت هو أسلوب القمع في مواجهة أفكار الطفل التي يتغذى بها من بيئته الطفولية في المدرسة والشارع، في ما يتأثر به من الأفكار والمشاهد والصور المتحركة من حوله.. كما أن المجتمع، في مراكز القوّة فيه يتحرك مع أفراده بالطريقة نفسها.. فلا مجال لأيّ فكرٍ يختلف عن الفكر الذي يحمله القائمون على مواقع القوّة، لأن المجتمع لا يسمح بذلك.. وهكذا نجد المشكلة قائمة في مواقع الحكم الذي يضطهد الشعب عندما يعارض، أو يواجه الحاكمين بالرفض لكثير من خطوطهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، ليكون نصيبه السجن أو الضرب، أو الإعدام.

حتى المواقع الدينية في كثير من مفردات العقيدة ومفاهيمها، لا تسمح بعض مراكز القوّة فيها، أو بعض مجتمعاتها من إثارة علامات الاستفهام حولها، ومحاولة مناقشتها لتأصيل المفهوم الإسلامي الأصيل فيها.. مما يجعل الأمر غامضاً حائراً في ما يدور الخلاف حوله.

إن هذا كله يحوّل المجتمع الإسلامي، إلى مجتمع قهر وعنف في مواجهة القضايا الفكرية والسياسية العامة... مما قد يعطي مفهوماً خاطئاً عن موقع الحرية الفكرية في داخله، وكيفية مواجهة القضايا التي يختلف فيها الرأي، ويترك انطباعاً سيئاً عن طريقة تكوين القناعات في المجتمع الإسلامي، الأمر الذي يخالف المنهج العقلي والطريقة الموضوعية في دراسة قضايا العقيدة والحياة، مما يؤكد الإسلام فيه على الحجة والبرهان.

وإذا كان بعض الناس يثير المسألة على أساس أن إعطاء الحرية للفكر المضاد أو لوجهات النظر المتعددة.. يمنح التيارات المضادّة فرصةً كبيرةً لإثارة الارتباك والقلق، في دائرة القناعات الإسلامية للمسلمين.. وللعمل على إشاعة الضلال في داخل المجتمع، انطلاقاً مما تملكه هذه التيارات من وسائل متقدمة، وإمكانات هائلة، تنعكس سلباً على قوّة الإسلام في مجتمعه من خلال التحديات التي يملك إمكانات ردّها في نطاق الفكر ولكن قد لا يملك الوسائل المادية، والواقعية لردها في نطاق الحركة التي قد تحاصرها وسائل أخرى من أكثر من جهة.

إذا كان بعض الناس يثير ذلك.. فإننا نؤكد في مقابل ذلك، أن من حق الإسلام أن يحمي ساحته من الأفكار المضادة، وذلك بمنع الآخرين من استغلال الجماهير الإسلامية في جهلها وتخلفها وقلة ثقافتها وعدم قدرتها على رد الأفكار الأخرى، الكافرة والضالة.. ولكن.. لا بد من إيجاد خطة دقيقة متكاملة لإثارة الحوار في ما يطرحه الآخرون من إشكالات وشبهات وأفكار مضادة.. في النوادي العلمية التي يجتمع فيها أهل العلم والرأي وفي المجالات العامة المفتوحة في الساحات الشعبية التي يلتقي فيها المفكرون الإسلاميون وغير الإسلاميين من خلال أجهزة الإعلام المرئية أو المسموعة أو المقروءة، أو من خلال الندوات العامة... بالطريقة التي تحرّك تفكير الشعب وتخاطب قناعاته في مستواه الثقافي.. لأن ذلك هو السبيل لتحصين عقيدته من كل الوسائل التي تحاول أن تثير القلق والارتباك في داخلها..

إن علينا، كإسلاميين يعملون على إعادة الإسلام إلى الحياة كحكم وكشريعة وكمنهج حياة، أن نضع الخطة التي تحرك الحرية الفكرية في الساحة العامة للأمة، من خلال إدارة الحوار حول كل القضايا، من أجل تثقيف الأمة بالفكر الإسلامي في مواجهة الفكر المضاد، ومن أجل دعوة الآخرين إلى تكوين قناعاتهم الفكرية على أساس الإسلام؟. أو تحرك الحرية السياسية في دائرة الضوابط الواقعية التي تضع الحرية في دائرة المصلحة العامة، بعيداً عن كل عوامل الاستغلال والتضليل..

إننا نفهم أن الحرية المطلقة لا وجود لها في الكون في مواقعه التكوينية والعملية.. ولا وجود لها في حياة الناس.. فلا بد من حدود وضوابط معينة للحرية تفرض النظام وتمنحه حركته في الاتجاه الصحيح ولا مجال لمحاصرة الفكر والسياسة والاجتماع بالقهر والعنف والاضطهاد لأنها لا تنتج ثباتاً للفكرة، ولا عمقاً في الوعي.. ولا امتداداً في الموقف. والحوار المسؤول هو الأساس في الوصول إلى التوازن الواقعي الإنساني في جميع المجالات..

والقرآن، هو كتاب الحوار، كما يحاول هذا الكتاب أن يوضح، فلا بد لنا من أن نعمل على إيجاد مجتمع الحوار الذي ينفتح فيه الإسلام على كل الأفكار المضادة، وينفتح فيه المجتمع المسلم على المجتمعات الأخرى.. ولا بد من تحصين الحوار بالضوابط التي تمنع من استغلاله لأغراض أخرى، فإن وجود المشاكل فيه لا يعني إلغاءه، بل يعني العمل على دراسة موقع هذه المشاكل في حركته.. ليجتمع لنا الحوار والمسؤولية.. والحرية المنضبطة في نطاق النظام العام للأمة... إننا نواجه الآن الكثير الكثير من الإتهامات التي تتحدى الصورة الحقيقية للإسلام، في عقلانيته وموضوعيته، وقوته الفكرية في مواقع الحوار لترسم له صورة الدين الذي يرفض العقل والمنطق، ويعمل على مصادرة الحرية الفكرية.. ويخاطب الأمة من موقع غرائزها، لا من عمق تفكيرها.

ولذلك فإن سلوك الدعاة المسلمين في حياتهم الخاصة والعامة وحركية المجتمع

المسلم في قضاياه الفكرية والسياسية في ساحة الصراع، يمثلان التحدي الكبير لكل هذه الاتهامات العدوانية.. ويوحيان بأن الإسلام قويٌّ في فكره وفي حركته، بالمستوى الذي يقف فيه في مواجهة الفكر المضاد والحركة المضادة، بواقعيةٍ وموضوعيةٍ وقوةٍ في نظرته للواقع وفي مواجهته للمتغيرات في كل اتجاه.. ويعتبر - في الوقت نفسه - أن الإسلام يعي جيداً.. أن الذين يفرضون على الإسلام المعركة الحادة ويبتعدون عن منطق الحوار، لا بد أن يواجهوا ذلك بالأساليب نفسها إذا لم يمكن الرد بالأساليب الحوارية السلمية.

لقد حاولنا في هذا الكتاب أن نثير كثيراً من الأفكار حول الحوار كمنهج قرآني للإسلام وللإنسان وللحياة.. ونرجو أن يحقق بعضاً من الحركة في الواقع.. من أجل إنسان الحوار ومجتمع الحوار.. والحمد لله رب العالمين.

بيروت - ١٧ شوال ١٤٠٧ هـ

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى جميع أنبياء الله المرسلين.

وبعد

قد تكون مسألة الحوار - في مضمونها الإنساني - مسألةً تتصل بتكوين الشخصية الإنسانية في النطاق الاجتماعي الذي يتحسس الإنسان فيه وجوده مع الآخر، بالمعنى الذي يتكامل فيه في إنتاج الفكر والمنهج والحركة، على أساس الخطوط الفكرية المشتركة والأساليب المتنوعة في عاطفيتها وعقلانيتها، والحركة السائرة في اتجاه بناء الحياة وتطويرها وتغييرها بما يكفل لها التوازن والتصحيح في المسار والهدف.

وذلك هو الفرق بين أن يعيش الإنسان الانكماش في داخل ذاته، والانغلاق عن الإنسان الآخر في تفكيره وشعوره وحركته.... وبين أن يعيش الانفتاح في آفاق الحياة ورحاب المعرفة واللقاء بالآخرين، كإنسان يجتذب إنساناً آخر، ويلتقي به، ويتبادل معه أفكاره وحركته ومنهجه، ويناقش معه قضاياه ومشاكله؛ ليعطيه من نفسه بعض

خصوصياته، ويأخذ منه بعضاً من خصوصياته في عملية تفاعل فكري وروحي وعملي.

والحوار يمثل مظهر الحياة في معناها الحركي، أما اللاحوار فإنه يمثل معنى الموت في جموده وسكونه، وبذلك يكون المجتمع حيّاً وميتاً، ساكناً ومتحركاً، بمقدار ما يكون محاوراً أو منغلقاً؛ فالمجتمع الأول ينمو في فكره وروحه وحركته، بينما يعيش المجتمع الآخر الجمود الفكري والحركي والإنساني - بشكل عام -.

وهذه قضية لا تتصل بالخطوط الفكرية الإنسانية، بل تمتد إلى الجانب العملي السياسي في حوار الحاكم مع شعبه، وحوار الناس مع بعضهم، وحوار الشعوب مع بعضها في المسائل السياسية والقانونية والاجتماعية والأمنية والاقتصادية... مما يتصل بالحياة المشتركة التي تتصل بإنسانية الكل؛ فلا معنى لحاكم يعيش في داخل جبروته الذاتي الذي يحتقر الناس، فلا يجد من مسؤوليته أن يستمع إليهم في ما يريدون وفي ما لا يريدون، أو يدخل معهم في حوار نقدي حول سياسته وحركة حكمه، مما يتصل بحياتهم العامة والخاصة؛ ولا معنى لشعب لا يعيش مسؤوليته في نقد الحاكم ودراسة برنامجه وخطته معه، من أجل تقويم الانحراف لديه، وتصحيح الخطأ عنده، وتقوية موقعه أو إضعافه تبعاً لسيرته المستقيمة أو المنحرفة، فيعيش ذلك كله في حوار فاعل منفتح على كل القضايا من دون أن يخاف في الحق لومة لائم.

ولعل هذا الحوار المستمر بين السلطة والأمّة هو الذي يبتعد بالحياة السّياسيّة عن العنف في مواجهة القضايا الحادّة، المتّصلة بالواقع السياسي المتنوع أو المختلف لدى الحاكم والمحكومين، فإن دراستنا الدقيقة لدورة العنف التي يعيش فيها بعض عالمنا الإسلامي، قد أثبتت أنه يتحرك في جذوره من فقدان الحرية التي تسمح للناس بالتعبير عن آرائهم النقدية، وطرح برامجهم البديلة، والانطلاق في عملية التغيير طلباً لما هو الأصلح لحياتهم العامة؛ هذا بالإضافة إلى ذاتية الحاكم في نظرته إلى نفسه بالدرجة التي يرى فيها ذاته جباراً في الأرض، لاحق لأحد أن يحاوره أو ينقده أو يحاكمه... لأن ذلك يمثل معنى الجريمة في قانونه وفي سلطاته، الأمر الذي يؤدي إلى الاختناق

السياسي لدى الشعب، فيدفعه ذلك إلى العنف باسم الثورة في مواقع الرفض للخط أو للحركة أو للحكم ونحو ذلك...

بينما نجد المجتمعات المتحضرة تعالج كل اختلافاتها السياسية والفكرية بطريقة الحوار، الذي قد يعنف تارة ويرق أخرى، ولكنه لا يصل إلى درجة العنف البدني أو المسلّح في أغلب الحالات.

إن الله قد أرسل الأنبياء برسالته، ليكونوا النموذج الأمثل للإنسان المسؤول المنفتح على الحوار حول كل ما يطرحونه وما يفكر به الناس، وقد كانت مشكلتهم أن مجتمعاتهم كانت لا تؤمن بالحوار، لأن ردود فعلها على الرسل لم تنطلق من الجدال الفكري، بل انطلقت من ترديد المقولات التي تمثل المسلمات عندهم كحقيقةٍ تقليدية جامدة، لا يقبلون التنازل عنها أو إدارة النقاش حولها، لأنهم لا يعيشون روحيّة الحوار من خلال الاعتراف بأن للآخر فكراً مختلفاً عن فكرهم ومنهجاً مختلفاً عن منهجهم، وإن من حقه عليهم أن يدخلوا معه في حوار حول الفكر والمنهج، فقد يكون فيه شيء من الحقيقة، أو قد يكون الحقيقة نفسها، تماماً كما هو حال الأخرين معهم عندما يقدِّمون أفكارهم إلى الآخرين ليدعوهم إلى الإيمان بها، فإنهم قد يطلبون منهم ـ باسم العدالة الفكرية ـ أن يناقشوهم لا أن يرفضوهم بدون جدال.

ولعل الخلفية التي تكمن وراء هذا الموقف، لدى كل الذين يرفضون الحوار، تتحرك في خطين: الخط الأول، هو الذهنية الاستكبارية التي تنظر إلى الآخرين ـ لا سيما الذين يمثلون طبقة اجتماعية سفلى بالنسبة إليهم ـ فتحتقرهم وترى أنهم ليسوا في المستوى الذي يتيح لهم الفرصة للدخول معهم في حوار، لأن دورهم هو دور التابع لا دور المساوي، مما يفرض عليهم أن يتبعوا ويطيعوا لا أن يجادلوا ويناقشوا أو يطمعوا باجتذاب المستكبرين إلى أفكارهم.

إن هؤلاء يعتقدون أن المستوى الاجتماعي هو الذي يحدد موقع الحوار مع الآخرين

فيمكن للناس الذين يتساوون في درجات السلّم الاجتماعي أن يتحاوروا؛ أمّا الذين لا يملكون هذه الدرجة، فلا حق لهم في ذلك، لأنه يمثل انتقاصاً لذوي الطبقة العليا في ما يملكونه من موقعٍ أو في ما يتميزون به من امتيازات اجتماعية أو سياسية...

الخط الثاني: الضعف الفكري عن مجابهة الفكر الآخر، فلا يملك الحجة القوية التي تؤكد رأيه أمام خصمه، أو المنطق العقلاني الذي يبطل حجة الرأي المخالف؛ فيضطر هذا الضعيف في فكره وحجته، لتغطية ضعفه بالأساليب التهويلية بإثارة الاتهامات التي لا ترتكز على أساس، أو الانفعالات العاطفية التي تثير الواقع الشعبي السطحي، وتدفعه إلى اتخاذ المواقف الغوغائية ضد الفكر الجديد، ولعلنا نلاحظ ذلك في منطق فرعون ضد موسى، عندما كان يريد إثارة المجتمع ضده بحجة أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم ونحو ذلك... وهذا ما نلاحظه في منطق الكثير من الحاكمين ضد أصحاب الفكر التغييري إذ يعمدون إلى تحريك الانفعالات الشعبية ضدهم بمختلف الأساليب الغوغائية، كوسيلةٍ من وسائل إبعاد الذهنية العامة عن أفكارهم وطروحاتهم.

ولعل من مشاكل حركة الحوار في المجتمع، هذه العصبية الحادة التي يعيشها الناس في التزامهم بموروثاتهم الفكرية، وعاداتهم التقليدية، أو في مواقفهم الحادة في خطوطهم الاجتماعية أو السياسية، بفعل العقلية الحادّة التي تواجه الفكر الآخر أو الموقف المضادّ بطريقةٍ انفعاليةٍ لا بطريقةٍ عقلانية، لأن الذهنية العامة التي تحكم هؤلاء هي الإصرار على البقاء في مواقعهم الطائفية أو المذهبية أو الحزبية، بعيداً عن احتمالات الخطأ والصواب في هذه الطروحات لأنها تحولّت جزءاً من الذات، وعنواناً من عناوين الكرامة والقوّة والموقع الاجتماعي والسياسي؛ فليست المسألة مسألة المفردات الفكرية، بل المسألة مسألة الإطار الذي يتحرك فيه هؤلاء بعيداً عن طبيعة الصورة.

وهذا ما يعانيه الواقع الإسلامي من فقدان روحية الحوار داخل تنوعاته المذهبية، في ما يلتزمه هذا المذهب أو ذاك من المفردات المتصلة بتفاصيل العقيدة أو الشريعة، لأن

ذلك قد يمثل انتقاصاً من حالة الثبات التي يريدها المذهبيون للخطوط الفكرية أو الفقهية، لأن الحوار قد يؤدّي إلى نوعٍ من الاهتزاز الذي يتهددها بالسقوط تحت تأثير الحجة القاطعة التي قد تثبت بطلانها وابتعادها عن الحقيقة. والفكرة التي قد تسيطر على هؤلاء، هي أن المذهبية قد تحولت إلى نوع من الفرز الاجتماعي الذي يجعل كل أتباع مذهب في موقع يختلف عن أتباع المذهب الآخر، بحيث يختلفون في مواقعهم الجغرافية والاجتماعية والسياسية في بعض الحالات، مما قد يجعل من تنازل فريق لفريق آخر لوناً من ألوان الإرباك الاجتماعي والسياسي للمجتمع كله.

ولا يقتصر الأمر على موقف مذهب من مذهب آخر، بل إن القضية تتعدى ذلك إلى داخل كل مذهب في مجتمعه؛ فقد نلاحظ أن المفكرين الطليعيين الذي يملكون فكراً مختلفاً، لا يملكون حرية طرح أفكارهم للدخول في حوار مع الآخرين حولها، لا سيّما إذا كانت تلك الأفكار تصطدم مع الجانب العاطفي التاريخي المتصل ببعض الشخصيات المقدّسة، أو مع الخطوط التفصيلية في بعض المفردات العقيدية أو الفقهية التي تمثل السيرة المألوفة المتبعة منذ الزمن الماضي.

وفي ضوء ذلك فقدت المذاهب الإسلامية القدرة على التغيير في مفرداتها الفكرية التاريخية، بل وقفت في حالة جمود تقليدي لا يملك أية فرصة للحركة أو التغيير، لأن الذهنيّة الانفعالية التي قد تلتقي بالطريقة الغوغائية تمثل الحقائق الثابتة التي لا يملك أحد الحق في مناقشتها، لأنها أفكار السلف الصالح أو المشهور من العلماء أو غير ذلك.

إننا نعتقد أن هذا الواقع اللاحواري بين المسلمين، في مذاهبهم المتنوعة أو في داخل كل مذهب في الاجتهادات المختلفة، لن يخدم الواقع الإسلامي في حركته الداخلية والخارجية، لأنه سوف يبقى مستغرقاً في ذاته ـ المذهبية أو الاجتهادية ـ بعيداً عن الأفق

الآخر الذي يطل فيه الفكر على أفكار أخرى واجتهادات أخرى.

هذا مع ملاحظة أن هذا النهج يتنافى مع الخط الإسلامي الممتد في حركة الرسالة وفي المنهج القرآني حول مختلف القضايا؛ فقد أدار الحوار مع الكافرين والمشركين ومع المنافقين بطريقةٍ موضوعية عقلانية، لأنه يملك الثقة بأنه قادر على إطلاق الحجة التي تقنع الآخرين بالفكر الإسلامي، ومواجهة الانتقادات بأسلوبٍ منفتح على كل جوانب الفكر.

إننا لا نريد من إثارتنا هذه المسألة إطلاق الثورة على اجتهادات السلف الصالح من علمائنا في مذهبياتهم الخاصة والعامة، بل نريد إثارة الأجواء الملائمة للتفكير من جديد في ما فكروا فيه، فقد نجد فيه خطأً يحتاج إلى التصويب، أو انحرافاً يحتاج إلى التقويم، أو خللاً يحتاج إلى التركيز.

لقد كان القدماء يختلفون في ما بينهم ـ حتى في داخل المذهب الواحد ـ من دون أن يجدوا في ذلك الاختلاف خطراً على الدين أو المذهب، لأنهم يفرّقون بين قداسة الحقيقة الأصيلة في الدين أو المذهب، وبين قداسة الاجتهاد في فهم هذا النصّ أو ذاك أو في تأكيد هذه الفكرة أو تلك، فلماذا نقدّس ما لا يقدسون من اجتهاداتهم بالذات، فنتوقف عندها دون أن نَجْرُؤَ على مناقشتها في عملية فكرية لولوج داخلها من أجل معرفة عناصر الثبات والاهتزاز فيها.

إن قيمة الحوار في القرآن، أنه لم يحدد للإنسان موضوعات الحوار، فلا مقدسات في مفرداته، ولم يحدد له الإنسان المحاور؛ فلا مشكلة من الحوار مع أيّ إنسان كان لأن القضية ليست قضية الموضوع هنا أو الإنسان هناك، بل القضية ـ كل القضية ـ هي أن هناك حقيقة لا بد أن نتعاون على اكتشافها والوصول إليها، ليكون الحوار وسيلة تعاون لاكتشاف هذا المجهول لا لتسجيل كل واحد منا نقطةً سلبيةً على الآخر بطريقة جدلية منغلقة.

وقد كان هذا الكتاب محاولةً فكرية لاكتشاف منهج الحوار في القرآن، وربما كان أوّل كتاب في معالجة هذا الموضوع.

وكل ما أرجوه، وأنا أقدمه في طبعته الخامسة، أن أكون قد وفقت في تجربتي هذه راجياً أن تكتمل هذه التجربة في أبحاث جديدة وحوارات متنوعة، سائلاً الله سبحانه أن يوفقني للسير في خدمة الفكر الإسلامي في ساحة التحديات، وفي خدمة الواقع الإسلامي في مواقع الصراع؛ فذلك هو ما نفكر فيه في الخط الرسالي، وذلك هو ما نتحرك نحوه في حركة الإسلام في الحياة.

والحمد لله رب العالمين؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٤ رجب الحرام ١٤١٦ هـ
محمد حسين فضل الله

تمهيد

- شبهة سائدة حول الدين
- فكرة شائعة
- بين التاريخ والشريعة
- القرآن كتاب الحوار
- في إطار البحث

شبهة سائدة حول الدين

قالوا عن الأديان إنـها تدعو الناس إلى الإيمان بالفكرة دون مناقشة أو جدال، فليس للفكر أيّ دور في ما يراد من الإنسـان أن يؤمن به أو يرفضـه، مما لا يجـعل للحـوار أي موقع في قضايا التفكير الديني.

وقالوا: ـ وهم يؤكدون هذا الزعم ـ إن ذلك هو الفـرق بين العلم والدين؛ فالعلم يطرح الفكرة ثم يناقشـها ويحاكمها، ويتلمّس كل خطوطها وجوانبها، ليثبتـها؛ إن كان هناك ما يوجب الإثبات ـ أو ينفيها ـ إن كان هناك ما يوجب النفي ـ من خلال ما يملكه الإنسان من وسائل المعرفة.

أمّا الدين، فإنه ـ في إطار هذا التفكيـر ـ يقدم للناس مـجموعة من الأمـور المسلّمة، التي لا تقبل الأخذ والرد ولا تسمح بالجدل، باعتبارها فكراً مقدّساً نهائياً.

وبهذا جاءت فكرة الإيمان الأعمى، لتطبع الفكر الديني بطابعها، في نظر الكثير من الناس في العالم كله.

وقد يعلّل بعضـهم ذلك بأن الدين جاء نتيجة حيرة الإنسان أمام الكون والحياة، في مرحلة متخلفة من مراحل نموه الفكري والنفسي؛ فقد كان غارقاً في ضباب المجهول، خاضعاً لمشاعر الضـعف الذي يسحق في داخله كل الطاقات، التي تتحفّز من أجل بناء

القوّة وتحصيلها.. مما يجعله مسحوقاً أمام القوى الكونية المحيطة به، لا يعرف شيئاً عما حوله ولا يريد أن يتحرك من أجل تحصيل أسباب المعرفة الذاتية.

وكان الدين ـ في تلك المرحلة ـ يمثل النافذة التي أعطته التفسير لما حوله من جهة، وأصدرت إليه التعليمات في ما يأخذ أو في ما يدع من جهة أخرى.. فتقبّل ذلك كله برضا واستسلام وراحة، دون أن يتطلع إلى أن يتعمّق في الفهم أو يعترض على الأمر، فحسبه من ذلك أنه بدأ يبصر النور من هذه النافذة، وإن كانت النوافذ الأخرى مغلقة دونه.. ولذا فإنه لا يريد أن يثير أيّ شيء يبعده عن الراحة والطمأنينة في ذلك كله. أمّا العلم، فقد كان نتيجة تمرّد الإنسان على الخرافة، وتطلّعه إلى المعرفة الذاتية التي تبحث عن العلم، لتفكر ـ لا لتكتفي بتقبل التعليمات ـ وتفتش عن الحقيقة في أي طريق ولا تشعر بقداسة أي باب مغلق على الحقيقة. ولذا فهي تبحث عن كل ما يحطّم الأقفال ويفتح النوافذ على الشمس والهواء النقي، الذي يتنفس فيه الإنسان بكل طلاقة وبكل حرّية..

وكان الأسلوب العلمي يستجيب لكل هذا، ويفسح لعلامات الاستفهام أن تتناثر على طريق الإنسان في رحلة البحث عن الحقيقة، لتتحدّى فيه هدوء الفكر وخموله، فتحوّله إلى ما يشبه حالة طوارىء، يستخدم فيها كل شيء، من أصغر أداة من أدوات المعرفة إلى أكبر أداة تكشف للإنسان وجه الحق..

ولذا فإنه في حركة دائمة، لا يهدأ فيها الفكر إلا ليثور، ويكتشف مجاهل جديدة، في سبيل معرفة جديدة؛ وبذلك أغلق الحوار في الدين، ليفتح في العلم، لأن الأول لا يعيش إلا في أجواء الحاجة إلى السكون والثبات، التي تعطيه قوّة الاستمرار، بينما نجد الثاني، يتطلب الحركة والتغيير والتجدّد، لأنها الأساس في نموّه وتطوّره في رحلة الحياة نحو المعرفة من أجل الحياة.

فكرة شائعة

تلك هي بعض ملامح الفكرة التي يطرحها الكثيرون عن الدين وعن العلم، كشيء أساسي ثابت؛ حتى انعكس ذلك على السلوك الإنساني العام، في تعامل الإنسان الباحث عن المعرفة مع رجل الدين أو رجل العلم... فإن هذا الاتجاه، خلق كثيراً من أجواء التحفظ والقداسة، في ما يريد أن يطرح من سؤال على العالم الديني، حتى ليحس بالحرج الشديد في إثارة هذا السؤال أو ذلك.. بينما نجد كثيراً من أجواء الحرية والإنفتاح والشعور بالراحة، في ما يريد الإنسان أن يطرحه من علامات الاستفهام على الأشخاص الذين يملكون اختصاصاً علمياً في غير شؤون الدين.

تلك هي بعض ملامح الصورة للفكرة الشائعة... فهل تلتقي بالصورة الحقيقية للدين في خصائصه وأساليبه..؟

وهل القضية كما يقولون؟

هذا هو السؤال الذي أردنا لهذا الكتاب أن يكون جواباً عليه.

* * *

بين التاريخ والشريعة

ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نلقي بعض الضـوء على مـا نؤمن به، من تقـرير الخطأ الكبير في هذه الصورة القاتمة عن الدين، بصورة إجمالية سريعة.

إننا نرفض ذلك في الأديان بشكل عـام، وفي الإسـلام بشكل خـاص ـ على الأقل ـ ونرجِّح أن تكون هذه الفكرة المطروحة منطلقة من ممارسات شخصية لبعض المؤسسات الدينية، التي عاشت في بعض المراحل التاريخية، فتبنّت فكراً معيّناً على أساس القداسة التي تتمتع بها، مما يجعل لها حالة قدسية تمنع الآخرين من الاعتراض عليها أو مناقشتها، في ما تطرح من أفكار وتريد منهم أن يأخذوا بها دون جدل أو مناقشة.

ولم تكتف بذلك، فقد حاولت أن تضطهد الأفكار المضادة وتعذب أصحابها، في أجواء غوغائية لا مجال فيها للفكر أن يقف ليدافع عن نفسه، ولو بكلمة، كما حدث في العصور الوسطى في أوروبا، حيث أقيمت المحاكم بإشراف الكنيسة لمحاكمة العلماء، الذين اكتشفوا دوران الأرض وغيرها من النظريات العلمية المخالفة لآراء الكنيسة آنذاك، بتهمة الهرطقة والإلحاد التي انتهى الأمر فيها إلى تجريمهم وإحراق بعضهم وإيداع بعضهم الآخر في السجون المظلمة.

ربما يكون لهذا التاريخ بعض الأثر في ولادة هذه الفكرة.

أمّا التاريخ الإسلامي، فقد نجد فيه بعض الفجوات التي سمحت للفكر أن يضطهد؛ لمخالفته للفكر الديني الرسمي وذلك كما في قضية القول بخلق القرآن، التي كان الحكم العباسي في زمن خلافة المعتصم يتبناها، مما أدّى إلى إضطهاد بعض العلماء الذين يرفضونها، ومنهم أحمد بن حنبل الذي سُجن على أساس ذلك.

أمّا الاتجاه العام، فقد كان في جانب الحرية الفكرية، التي تحترم آراء الآخرين وتناقشها، ما لم تتحول إلى عمل يهدف إلى الفوضى والتخريب ويسيىء إلى النظام. فقد نقل لنا التاريخ الإسلامي الكثير من مجالس الحوار بين علماء المسلمين وعلماء الأديان واصحاب الأفكار المضادة للإسلام، تحت سمع الحكم وبصره، في جو رائع من أجواء الحرية الفكرية ومن ذلك ما روي عن المؤتمر الذي عقده الخليفة العباسي المأمون، للإمام الثامن من أئمة أهل البيت (ع)، علي بن موسى الرضا، فقد اجتمع فيه علماء النصارى والمجوس وغيرهم من أهل الملل والنحل، حيث كان الحوار المتبادل يمثل وثيقة تاريخية تدل على مدى ما يمثله الإسلام من سعة أفق ورحابة صدر في مجال الدعوة والإيمان[1] .

ونجد ـ إلى جانب ذلك ـ الحلقات الفكرية، التي كان يعقدها الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ـ الإمام السادس من أئمة أهل البيت (ع) ـ في المسجد الحرام إلى جانب الكعبة المشرّفة، فيجتمع إليه فيها زنادقة ذلك العصر وملاحدته، كإبن المقفّع وابن أبي العوجاء وأبي شاكر الديصاني، فيناقشونه، في وجود الله وفي حكمته،وفي غير ذلك بأسلوب يغلب عليه طابع التحدي، فيواجههم بالحجّة القوية والبرهان القاطع والكلمة الطيبة الحلوة، حتى لا يترك لهم مجالاً للكلام ولا موضعاً للجدال[2] .

وينقل إلينا ـ بعض هؤلاء ـ ملامح الجو، الذي كان يسود تلك الحلقات والروح التي تهيمن عليها، في ما يقصه علينا المفضل بن عمر، الذي استمع إلى هذا الملحد الذي يناظره في قضية وجود الله، فقد حدّثنا المفضل عن نفسه ومشاعره إزاء إلحاده:

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ١٩٩.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ٦٩.

«... فلمَ أملك نفسي غضباً وحنقاً، فقلت: يا عدو الله، ألحدت في دين الله وأنكرت الباري الذي خلقك في أحسن تقويم وصوّرك في أتم صورة ونقلك في أحوالك، حتى بلغت إلى حيث انتهيت؛ فلو فكّرت في نفسك وصدقك لطيف حسك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة.

فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر ابن محمد، فما كان هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا. وإنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أننا قطعناه، أدحض حجّتنا في كلام يسير وخطاب قصير، يُلزمنا به الحجة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً؛ فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه...»

ومهما يكن من أمر التاريخ الإسلامي، في هذا المجال، فإن القضية لا تخضع للتاريخ ولممارساته، وإن كان له الأثر الكبير في الدلالة على طبيعة الفكرة، التي تحكم التاريخ وتتحكم في حركته؛ لكن لا بد لنا من أن نتلمس الفكرة الأصيلة في مصادر الرسالة فكراً وشريعة، لتكون هي المقياس لطبيعة ما نواجهه من ممارسات تاريخية يتحدانا بها الآخرون أو ممارسات حاضرة نتحدّاهم نحن بها، ولنوعية ما نفكر فيه من خطوات مستقبلية على هدى هذا الفكر.

القرآن كتاب الحوار

والقرآن الكريم.. كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فهو الكلمة الفاصلة في كل ما يريده الله وما لا يريده، وهو الحقيقة الفاصلة الحاسمة التي لا يرقى إليها الشك، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

فهو الذي يجب أن ندرسه دراسة واعية، لنجد فيه الوثيقة الرائعة من وثائق الحوار الديني، الذي يتعلّق بكل قضايا العقيدة، ابتداءً من فكرة وجود الله ووحدانيته، إلى الأحكام الشرعية.

وقد كان القرآن الكريم ـ في حياة الإسلام والمسلمين ـ يمثل المدرسة التي انطلق منها النبي محمّد (ص) وأصحابه في اعتماد الأساليب المتنوعة للحوار والإطار العام للخط الإسلامي في ذلك والدروس العملية التي تجسّد وصول الحوار إلى هدفه الطبيعي في حركة الحياة والإيمان.

... ونحن هنا ـ في جولة هادئة ـ مع الآيات القرآنية الكريمة، التي حدّثتنا عن الأساليب التي أراد الله لنبيه (ص) أن يتبعها وينطلق بها في مجال الدعوة الإسلامية، لنتعرف ـ من خلالها ـ على مسيرة النبي (ص) العملية في دعوته إلى الله، كطريق من طرق إنطلاقنا مع الدعوة الإسلامية على هُدى هذه الأساليب.

وقد نحتاج إلى متابعة بعض أساليب النبي (ص) في عملية الحوار، من خلال ما تنقله لنا السنّة النبوية الشريفة، لأنها تمثل التطبيق العملي للمنهج القرآني، الذي ركّز القاعدة وأقام البناء.

ولا يفوتنا ـ ونحن في هذا اللون من الحديث ـ أن نشير إلى أن الحديث لن يقتصر على ما يحدّثنا عنه القرآن من أساليب النبي (ص) الشخصية في الحوار، بل قد نتناول الأساليب العملية التي مارسها الأنبياء السابقون، في صراعهم مع خصوم رسالاتهم وفي دعوتهم الناس إلى طريق الله، مما نقله القرآن الكريم لنا في أكثر من سورة.. لأن اشارة القرآن إلى ذلك، لم تنطلق من الرغبة في نقل التاريخ، بل من موقع اعتبارها مواقف عملية رائدة، تُعلّمنا كيف نجعل مواقفنا امتداداً لها، لأنها تمثل أفضل الأساليب في موقف الصراع الفكري للرسالة في خط الحياة، مما يدفعنا إلى أن نتلمس فيها مواطن القوة، التي تقودنا إلى مواقع الرسالات العملية في مفترق الطرق.

إننا نريد من هذا كله، أن نضع أيدينا على موقع الخطأ في الفكرة التي تلصق بالدين، في محاربته للحوار وفي دعوته إلى الإيمان الأعمى، لنعرف كيف يبني الإسلام من الحوار قاعدة أساسية، تطبع كل خطواته في الدعوة والحياة؟ إننا نريد أن نكتشف ذلك كله، في كتاب الله، الذي يحوّل العقيدة إلى موقف مستمر للحوار، يبدأ من ذات الإنسان، ليشمل الحياة فيمتد في وحيه وروحه إلى الآخرة، حيث تنتهي مواقف الحوار، بالموقف الحاسم الذي يقف فيه الإنسان في حوار المسؤولية الأخيرة أمام الله.. ليواجه النعيم والجحيم هناك من مواقع الحوار.

في إطار البحث

وإذا كان لنا أن نحدّد البحث في هذا الحديث، فإننا نحاول أن نشير هنا إلى أننا لسنا في صدد بحث أدبي، يتلمّس العناصر الجمالية في إطار تقييم الجانب الفني للحوار وأساليبه القرآنية؛ فإن لذلك حديثاً آخر لسنا بمورده الآن.. وربما نجد بعضاً منه، يبلغ حد الروعة في كتاب «التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

بل كل ما نحاوله، هو أن نضع أيدينا على نوعية الأسلوب، من حيث ارتباطه بالجو العقلي أو الجو العاطفي للتفكير، ومن حيث توفر العناصر الحسّية والعقلية والروحية في جميع جوانبه وخصائصه الموضوعية.

الفصل الأول

- الحوار... والجدل:

- كيف نشأ الحوار والجدل؟

- الطابع الإسلامي للحوار

- الأساس الإسلامي لفكرة الحوار

الحوار ... والجدل

عـاشت هاتان الكلمـتـان في حـيـاة الإنسـان ووعـيـه، منذ أن بدأ يواجـه الحـيـاة الاجتماعية، التي تختلف فيها الآراء وتتنوع عندها الأفكار... لتجسّدا له المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض وفي ميادين الصراع.

فقد يحدث له أن يتحرك من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح، التي تتمثل في النفاذ إلى كل جانب من جوانبها، لئلا تبقى هناك حاجة للإستفهام أو المعارضة، الناتجة عن خفاء بعض القضايا الملحة... وهنا يبرز الحوار الذاتي تارة، والحوار المشترك أخرى.. الذي يتدرج فيه الفكر من نقطة إلى أخرى، ومن مرحلة إلى ثانية، ليجمع في إطاره كل النقاط وكل المراحل.

وهذا ما نلتقي معه في كلمة الحوار.

وقـد يحـدث له - في حـالة أخـرى - أن يخـوض الصـراع، من أجل فكرته ضـد المعارضين له، فيتحول الموقف إلى صدام تتجاذبه حالة الكر والفر والهجوم والدفاع، وتهيمن عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي، من أجل الوصول إلى الغَلَبة - إن كان هناك مجال للغلبة - أو إلى التفاهم - إن كان هناك سبيل إليه.

وهذا ما توحيه لنا كلمة الجدل... فهي توحي لنا بمعاني الحوار، الذي يعيش في

أجواء الخلاف الفكري والعقيدي.. بينما توحي لنا الكلمة الأولى بأوسع من ذلك.

كلمة الحوار في القرآن

وقد وردت هاتان الكلمتان في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ولكن الكلمة الأولى أقل استعمالاً من الثانية... فنحن لا نجد لها ذكراً إلا في آيات ثلاث، جاءت اثنتان منها في سورة الكهف، في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه، الذي لا يملك الكثير من المال وغيره، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الحوار في موضعين منها:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ (الكهف: ٣٤). ﴿٣٤﴾

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ (الكهف: ٣٧). ﴿٣٧﴾

أما الآية الثالثة التي وردت فيها هذه الكلمة، فقد جاءت في سورة المجادلة، في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله...

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١). ﴿١﴾

الجدل في ضوء التحديات

أما الكلمة الثانية، فقد جاءت الإشارة إليها في سبعة وعشرين موضعاً، في القضايا الخاصة والعامة، من دينية تتعلّق بقضايا العقيدة والحياة، أو اجتماعية تدخل في أمور المجتمع.

ولعل السرّ في هذه المساحة الواسعة، التي أخذتها الكلمة في القرآن الكريم ـ في ما واجهه الإسلام من قضايا أو عاش فيه الإنسان من مواقف ـ هو أن ذلك أقرب إلى الواقع الذي عاش فيه الإسلام.. فقد واجه التحديات الفكرية والتقليدية، التي تعيش في

داخل وعي الإنسان وفكره، مما يدخل في حركة التغيير، التي يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره، لتنقله من ظلمات الشك والكفر والضلال، إلى نور الإيمان والتوحيد والهداية.

كما أنه واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية، التي كانت تسيطر على حياة الإنسان في المجتمعات التي لم تؤمن بالإسلام... فقد عملت الكثير من أجل عدم السماح للإسلام بالتقدم، لتعطّل فاعليته وتؤخّره عن مسيرته، بمختلف الوسائل التي كانت تملكها، سواء في ذلك ما أثارته من حروب طويلة مرهقة وما وضعته أمامه من حواجز وعقبات وما حشدته من شبهات وأفكار وأساليب اللف والدوران، لزرع القلق والشك والحيرة تجاه ما يقدمه الإسلام من هدى وحلول لمشاكل الحياة الدّاخليّة والخارجية.

وعلى هذا الأساس، وقف الإسلام في وجه كل هذه التحديات، ليرد التحدي بمثله، من موقع الرغبة في الوصول إلى الحق وإفساح المجال للأفكار بأن تلتقي بمفاهيمه، لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل حب الغلبة.. كما سيظهر ذلك في ما يأتي من حديث.

ولهذا لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحوار المباشر، الذي ينطلق من طرح الفكرة في ميدان الصراع؛ من أجل إشغال الساحات بعلامات الإستفهام، التي يطرحها الإسلام مع أجوبتها، ليوفر على المتصارعين جهد البحث عن سؤال، قد لا يجدونه جاهزاً أو قد يواجهون صعوبة في العثور عليه.

كل ذلك من أجل أن تدخل الفكرة في وعي الإنسان بعمق وتقتحم أفكاره بقوّة، ولهذا طرح الإسلام ـ في القرآن الكريم ـ جدال الإنسان وحواره الذاتي مع نفسه، إلى جانب جداله مع مجتمعه ومع الفئات التي كانت تمثل القوة المعارضة آنذاك.

ثم لم يقف عند ذلك، بل حاول أن يخلّد كل ما أثير من مفردات الجدال حول العقيدة،

من أجل استمرار الإيحاء بضرورة التوفر على هذا الأسلوب في حركة العقيدة والحياة.

«الحوار» يتضمن الجدل

وقد فضّلنا اختيار كلمة الحوار في موضوع الكتاب، وإن كانت كلمة «الجدل» أوسع مساحة في حديث القرآن وأسلوبه ـ كما ألمحنا ذلك ـ لأمرين:

الأول: إن كلمة «الجدل» أخذت مدلولاً جديداً يوحي بالطريقة التي يتبعها المتناظران أو المتجادلان، ليغرقا حديثهما أو مناظرتهما بالكلام العقيم، الذي قد يقترب إلى الترف الذهني.. بما يثيره من قضايا جانبية أو مناقشات لفظية، تُخضِع الفكرة إلى متاهات لا يعرف الإنسان كيف تنتهي، وأين تستقر؟

ولعل السبب في ذلك، هو أن «الجدل» تحوّل إلى صناعة يقصدها الكثيرون لذاتها، من أجل التدرب على الأخذ والرد والهجوم والدفاع في مجالات الصراع الفكري... ليعطّل قوّة خصمه، لا ليوصله إلى الحقيقة أو ليصل معه إلى قناعة..

ولهذا لم نرد لحديثنا أن يخضع لهذا الإيحاء بادىء ذي بدء..

الثاني: إن كلمة الحوار أوسع مدلولاً من كلمة الجدل ـ كما أشرنا إلى ذلك في بداية الحديث ـ باعتبار تضمّن الكلمة الثانية معنى الصراع، بينما نجد الكلمة الأولى تتسع له ولغيره، مما يراد منه إيضاح الفكرة بطريقة السؤال والجواب.. الأمر الذي يجعله مفيداً لحديثنا بشكل أقوى وأشمل لأننا ـ هنا ـ من أجل أن نتلمّس الحوار الذي ينطلق في مهمة طرح الفكرة، وإن لم يكن هناك تحديات.. كما نتلمّس الحوار الذي يتجسّد في موقع الدفاع عن الفكرة ضد تحديات أعدائها وخصومها في مجالات الصراع.. لأنّنا نهدف ـ في هذا الحديث ـ إلى اكتشاف طبيعة الأسلوب الذي طرحته الدعوة الإسلامية في الساحة، في إطار الحوار، في كل مجال من مجالاته، لنستفيد منه في حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة، التي تواجه الموقف في جبهتين:

الأولى: جبهة الدفاع ضد الفهم السّيء للإسلام، الذي عانينا ولا نزال نعاني منه الكثير، كنتيجة طبيعية للممارسات الفكرية الخاطئة، أو العرض الخاطىء القلق.

الثانية: جبهة الدفاع ضد التحديات، التي يثيرها الآخرون حول نظرة الإسلام وحلوله إلى مشاكل الحياة وقضايا الفكر والعقيدة.

حوار غير مباشر

وقد نلتقي في حديثنا هذا، بالأسلوب الذي قد لا يتمثل فيه الحوار من ناحية فعلية، فقد لا يكون أمامنا شخصان يتناظران ويتحاوران، ولكنه ينطلق من أجل إثارة ذلك ودفع الآخرين إلى اتخاذ موقف الأخذ والرد، لأننا أشرنا إلى أن الإسلام كان يريد دعوة الناس إلى الدخول معه في حوار العقيدة، ليصل إلى هدفه المنشود من خلال ذلك؛ وبذلك يُعتبر هذا الأسلوب بداية طبيعية للحوار ـ وإن لم يكن في صورة الحوار.

ولعل الإشارة إلى هذا الأسلوب، لا تعتبر ابتعاداً عن موضوع الحديث، لأن على الإنسان الذي يحمل رسالة الدعوة إلى الله في حياته، أن يدعو الناس إلى الحوار أو يثيرهم بأسلوبه إلى ممارسة ذلك، كما يدخل معهم في الحوار نفسه، في حالة إثارتهم له في صراع الأفكار...

وهو ـ في كل ذلك ـ في قلب الحوار تارة، وعلى طريقه أخرى، في الخطوة الأولى أو في الخطوات اللاحقة على الطريق.

وقد يتمثَّل في محاولة القرآن الرد على بعض الأقاويل والكلمات، التي كانت ترد على لسان بعض الناس، ممن يختلف معهم الإسلام في العقيدة أو في بعض جوانب الحياة، لتنطلق القضية في الإطار الذي لا يجعل من تلك الأقاويل مجرَّد وجهة نظر لا تعارض، أو علامة إستفهام لا تجد أمامها جواباً، مما يمهّد لإعتبارها بدايةً لحوار في حركة العقيدة أو التشريع في حياة المجتمع كما نلاحظ ذلك في كثير مما سنتعرّض له في حديثنا الآتي، في حركة الحوار في أصول العقيدة مع المشركين والملحدين ومنكري

النبوّة، من أهل الكتاب وغيرهم، فقد وجدنا القرآن ينقل إلينا وجهة نظرهم وأقوالهم، ثم يبدأ عملية الرد، ليضع القضية كلها في الإطار الطبيعي للحوار. وقد يتّجه الحوار القرآني إلى محاولة تجسيد بعض النماذج الرائعة، وإعطاء صورة حيّة لها في حركة الحياة، من أجل أن يتمثّلها الناس تمثّلاً صحيحاً في وجدانهم، ليقتدوا بها في حياتهم العملية..

وقد تكون القضية بالعكس، حيث يُقصد من الحوار أن يعبر لنا عن بعض الشخصيات الشريرة، من خلال إدارة الحديث حول المسائل التي تكشف بعض الجوانب المهمّة للشخصية.. مما يجعلنا نتعرف إليها في كثير من النماذج البشرية المشوّهة في الحياة، لنبتعد عن أمثال هؤلاء أو لنحذر منهم في القضايا المصيرية وغيرها.

وقد يكون الهدف من الحوار، توضيح بعض المواقف الحياتية والرسالية، من خلال إثارة بعض القضايا المرتبطة بها في حوار طويل أو قصير.. ومن خلال ذلك، نجد أن حديثنا حول الحوار سوف ينطلق في مجال رسم الخطوط العامة لأساليب الجدل والصراع، في حركة الدعوة الإسلامية من جهة وفي مجال إبراز الملامح الأصيلة لبعض النماذج الخيّرة أو الشريرة في المجتمع، من جهة أخرى.

كيف نشأ الحوار والجدل؟

الطبيعة الإنسانية

جاء في القرآن الكريم عن الإنسان قوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

فقد نستوحي من هذه الآية الكريمة، أن هذه الصفة ـ الجدل ـ من الصفات اللازمة للإنسان في طبيعة خلْقه وتكوينه؛ تماماً، كبقية الصفات الفطرية، التي تميِّزه عن سائر المخلوقات.. فقد فطر الإنسان على أن يواجه الحياة، بكل ما فيها من أوضاع وأحداث وملابسات وأفكار، بعقلية منفتحة قلقة، لا تستقر على حال، فتراه يفتش عن الشيء وضده، وعن الحق والباطل، ليجادل في هذا ويحاور في ذاك، فلا يتيقن إلا ليتململ في رحلة جديدة نحو الشك.. ولا يشك إلا ليبدأ رحلته الطويلة نحو اليقين.

وهكذا تتنوع الأفكار والآراء وتختلف في كل مرحلة من مراحل حياته، تبعاً للقضايا التي تُثار والمناقشات التي تدور والأوضاع العامة التي تفرض هذا الرأي أو ذاك، مما يجعل قضايا الفكر تتنامى وتتصاعد وتتضخم وتخلّف وراءها عديداً من الأتباع والأنصار، الذين يكوّنون في حياة البشرية دوائر مختلفة، تتميز بميزات فكرية

واقتصادية واجتماعية وسياسية.

وفي ضوء ذلك كله، ينشأ الجدل ويتحول إلى أسلوب من أساليب الإقناع تارةً والتبرير أخرى أو التلاعب بالألفاظ والتركيز على القوة البيانية التي تتلاعب بالمفاهيم مرّة ثالثة،... كل ذلك في محاولات متنوّعة، تستهدف الدخول في المعركة الفكرية والعقائدية، التي تخوضها كل الأطراف لتسجّل لنفسها الإنتصار، أو تواجه في موقفها مرارة الهزيمة.

التخطيط الإلهي

ولا بد للحق - في مثل هذه الأجواء - أن يواجه ذلك كله بأساليب مماثلة أو متفوقة، لأن الطريق إلى فكر الإنسان وقلبه لم تعد خالية، بل أصبحت مزدحمة بكثير من المفاهيم والآراء التي تحجب عنه الحق أو تمنع عنه وضوح الرؤية، مما يتطلب جهداً كبيراً في تمهيد الطريق التي يسلكها إلى حياة الإنسان الفكرية والعقيدية من حيث الأسلوب والفكرة.

وكان الإسلام قريباً إلى هذا الجو، فأراد أن يخطّط للإنسان طريقه إلى الإيمان، من دون أن يفرضه عليه؛ فعمل على أن يقوده إليه ويدله عليه من موقع ممارسته لإرادته، لينطلق فيه على أساس حرية الإرادة والاختيار.

وكان الحوار الذي يتمثل في إدارة الفكرة بين طرفين مختلفين أو أطراف متنازعة.. وكان الجدال الذي يتجسّد في إعطاء الحوار قوة العناد للفكرة والإصرار عليها.. وكانت الحجج والبراهين التي يستند إليها كل طرف من أطراف الحوار والجدال هي التي تجعل من الفكرة شيئاً يستند إلى أساس ثابت متين.

وكانت كل هذه الأمور.. الطريق العملي لمواجهة الإنسان بقضايا الحق والباطل، ليؤمن بهذا ويكفر بذاك، على بيّنة مما يؤمن أو يكفر به، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ . . . لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ . . . ﴾ (الأنفال: ٤٢).

الطابع الإسلامي للحوار

الجدل المرفوض

في ضوء الحديث في العنوان السابق، نجد أن الحوار والجدل لم يتحركا في التفكير الإسلامي، ليكونا فناً قائماً بذاته، يصنع للحياة الطاقات الفكرية القادرة على الدخول في المناقشات الدائرة في أيّ موضوع وفي أيّ مجال، كما نراه في الطريقة الفكرية التي أرادها أفلاطون للجدل.. فقد اعتبر أن الصورة الجدلية للمحاورات مقصودة لذاتها وهي في المقام الأول... وتأتي الرغبة في الوصول إلى حلّ المشكلات الفلسفية في الدرجة الثانية من الأهمية؛ يقول أفلاطون: إن المحاورة تحدّد موضوعاً للدراسة، وليس القصد منها الخروج بنتيجة - بصدد المشكلة المعروضة - بقدر ما تجعلنا أقدر على الجدل في كل الموضوعات؛ فهدف المحاورات إذن، ليس إمدادنا بالمعلومات والمعارف، بقدر ما تقدّمه من مساعدة على التدرب على فن الجدل[1] .

ولعل السر في ذلك، هو إن هدف الإسلام الأساسي هو وصول الناس إلى الحق، بالطريقة التي تعمّق الإيمان في نفوسهم وتشرح به صدورهم، ولذا فإن وسائله العملية تتجه إلى هذا الهدف فحسب.

---

(١) تاريخ التفكير الفلسفي ج١ ص ١٧٠.

وربما نشجّع في بعض الحالات، اتجاه الإنسان إلى التدرب على فن الجدل في غير أجواء الفكرة.. ولكن ذلك لا ينشأ من خلال كونه ترفاً فكرياً، يرضي في نفس الإنسان غرور الرغبة بالإنتصار، بل من جهة أنه يوفّر للإنسان القدرة على استعمال أدوات الدفاع عن الحق بطريقة أكثر قوة ومرونة، تماماً؛ كما هي حالة الجندي، الذي يقضي فترة كبيرة من الزمن في التدريب على محاربة أعداء وهميين، ليكون أقوى عند مقاومة العدو الحقيقي في المعركة الفاصلة.

وقد نجد في القرآن الكريم ملامح هذا الخط الذي يتجه إلى رفض الجدل، على أساس كونه فنّاً قائماً بذاته، يتحوّل محترفه إلى شخص جدلي، لا همّ له في المجال الفكري إلا أن يتغلّب على خصمه، أو أن يلف ويدور لإشغال الفراغ بمجادلات تُضيّع الوقت وتبتعد عن الهدف... لأن ذلك يساهم في تشويه الكيان الفكري للإنسان، بما يثيره في طريقة تفكيره من الإبتعاد عن القضايا البديهية في الحياة، ليبقى مشدوداً إلى الافتراضات البعيدة، التي تغذي الجدل وتحجب عن الإنسان رؤية الواقع.

صورة قرآنية

وقد صوّر القرآن الكريم لنا ذلك كله في أكثر من آية، في نطاق حديثه عن الكافرين الذين انطلقوا بالجدل، في طريق إضاعة الفكرة وإنكار الحق... مما يجعلهم ينكرون الحق، وهم يرونه، ويهربون من الواقع، وهم يعيشون فيه. فقد حدّثنا عن المشركين في مكة، عندما استمعوا إلى الآيات القرآنية، التي تتحدّث عن عيسى بن مريم (ع)، كيف كان ردُّ فعلهم على ذلك، وكيف واجهوه؟

وذلك في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩). ۝٥٩

فقد حدّثهم النبي محمد (ص) عن عيسى بن مريم، وما أفاضه الله عليه من نعمه وكرامته، في الإطار الإسلامي الذي وضعه فيه (وهو أنه عبد الله ورسوله) ولكنهم أعرضوا عن هذه الحقيقة؛ واتجهوا بالحديث عنه من خلال الفكرة المنحرفة ـ التي يعتقدها النصارى ـ المتمثلة بالإعتقاد بألوهيته؛ فأثاروا التساؤل عن المفاضلة بينه وبين ما يعبدون، على أساس أن الفكرتين تتجهان ـ معاً ـ إلى خلاف ما يدعو إليه النبي محمد (ص) من عبادة الله الواحد الأحد، فكيف يتبناه، ويرفض ما يعتقدونه؟

ويُعلّق القرآن الكريم على ذلك، بأن هؤلاء لم يسلكوا الطريق الصحيح في الحوار، الذي يرتكز على مناقشة الفكرة من خلال ما يثيره صاحبها، لا من خلال ما يثيره الآخرون ممن يختلف معهم في طبيعة الفكرة، لأن ذلك لا يلزمه من قريب أو من بعيد؛ بل حاولوا أن يسلكوا طريق الجدل المحض، الذي يدفع الإنسان إلى الهروب من الموقف الحق إلى موقف آخر، يثير الضباب فيه حول الحق، بالأساليب المختلفة من المغالطة وأمثالها، ليهاجموه من خلال ذلك. ولو كانوا يريدون الحقيقة ـ في ما يجادلون به ـ لكان عليهم أن ينفتحوا على الصورة الصحيحة في إطارها الصحيح، ولوصلوا إلى حقيقة الإيمان التي قرّرها القرآن في حقيقة عيسى (ع) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الزخرف: ٥٩). ﴿٥٩﴾

ولا يقتصر الرفض لهذا الإتجاه في الجدل على أساليب الكافرين، بل يتمثل في بعض الأساليب التي كان يلجأ إليها بعض المؤمنين بالنبي وبرسالته، ممن لم ينفتحوا على المسؤولية العملية إزاء قضايا الإيمان ومعارك الحق، فيحاولون التخلّص من مسؤوليتهم بالأساليب الجدلية، التي تستند إلى الهروب من مواجهة الحقيقة وجهاً لوجه وذلك في قوله تعالى: ـ في حديثه عن المسلمين، الذين كانوا يرفضون الخروج للحرب مع النبي (ص)، باحثين عن المبررات والأعذار التي تُسوّغ لهم ذلك ـ :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (الأنفال: ٥ ـ ٦).

ويمتد القرآن الكريم في أكثر من آية، ليتحدث عن كثير من المجادلين في الله وفي القرآن وفي الرسالة، وينتقد مواقفهم المنحرفة، لأنهم يوجهون الجدل في اتجاه الباطل وإنكار الحق الواضح، من دون بينة ولا برهان؛ وإنما هو الكلام الذي يلف ويدور دون أساس أو غاية. ويصوّر لنا في بعض آياته، إن ذلك من صنع الشياطين، الذين يوحون إلى أوليائهم بذلك، كما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١).

ثم نواجه ـ في هذا الاطار ـ الآيات القرآنية التي تصور لنا الإتجاهات الجدلية التي قد تنتهي إلى توظيف الجدل في خدمة الخيانة والخائنين، وذلك في حديثه عن قصة أولئك النفر من المسلمين الذين أرادوا إلصاق تهمة السرقة ببعض اليهود، ليرفعوها عن أنفسهم، ظناً منهم أن يهوديته سوف تكون أساساً صالحاً للحكم عليه، بغض النظر عن قضية الحق والباطل، ولذلك انطلق الجدل ـ آنذاك ـ في هذا السبيل الذي يراد منه تبرئة المجرم وتجريم البريء وذلك هو قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٠٧ ـ ١٠٩).

الإسلام ومهنة المحاماة

وفي ضوء هذه الآيات الكريمة، نعرف موقف الإسلام من مهنة المحاماة، التي قد تنطلق في الدفاع عن الجريمة من قِبَل المحامي، لأجل الكسب المادي؛ فنلاحظ حرمة ذلك إلا، إذا كانت تستهدف الدفاع عن صاحب الحق، أو تخليص البريء من الظلم، والحكم عليه بغير الحق.

ألأساس الإسلامي لفكرة الحوار

قيمة العقل في الإسلام

إنطلق الإسلام في حياة الناس من قاعدة أصيلة في تفكيره، وهي اعتبار العقل قوة صالحة للحكم على الأشياء وميزاناً لصحة القضايا وفسادها، حتى جاءت بعض الأحاديث الشريفة، التي تتحدث عن العقل لتقول إنه الرسول الباطني، بينما تصف الرسول (ص) - في مقابل ذلك - بأنه (عقل من خارج)، كأسلوب من أساليب التركيز على احترام العقل ودوره في العقيدة والشريعة.

وفي ضوء ذلك، اعتبر علماء الأصول الإسلاميون، العقل دليلاً على الحكم الشرعي، في كثير من الحالات التي يكتشف فيها الأسس التي ترتكز عليها التشريعات في الإسلام، حيث ينطلق من ذلك إلى اكتشاف الجعل الشرعي... وهذا ما نلاحظه في حديثهم عن الأدلة التي تكون أساساً للاستنباط، عندما يقولون إنها «الكتاب والسنّة والعقل والإجماع» وقد يزيدون على ذلك بعض الأشياء الأخرى، مما لا شأن لنا بالحديث عنه.

رفض التقليد في العقيدة

وعلى هذا الأساس، كان لا بد للعقل من الحركة الدائبة التي تصول وتجول وتحاكم

وتجادل.. وكان لا بد للدين الذي يحترم العقل، أن يفسح المجال له، في ما يقدم من عقائد وفي ما يطرح من مفاهيم؛ ولهذا بدأ الإسلام حركته من موقع الحوار في اتجاهين، يرتبط أحدهما بحركة الدعوة في مواجهة أفكار المعاندين لها، ويرتبط ثانيهما بحركة الدعوة في الحياة، من حيث افساحها المجال للطريقة العقلية في التفكير، لتأخذ موقعها في الحياة، في مرحلة تاريخية لم يكن فيها للمنهج العقلي في التفكير مجالا للتواجد. وكان من أولّيات هذا المنهج، أن يطلب الإسلام من الناس الإيمان به على أساس القناعة الذاتية، من خلال ما يقدمه لهم من أدلة وبراهين على الحق في دعوته، معتبراً ذلك هو السبيل الصحيح للعقيدة الحقة، رافضاً التقليد في العقيدة، سواءً في الإيمان بعقيدته أو عقيدة الآخرين، لأن في التقليد ابتعاداً عن الخط السليم للتفكير، وإبقاءاً للخطأ والضلال في مجالهما المنحرف في الحياة، دون أيّ أمل في تصحيح الانحراف، مما يشكل خطراً على الحياة نفسها في نهاية المطاف.. هذا من جهة ومن جهة أخرى، نلاحظ أن العقيدة - أيّة عقيدة كانت - لا تقوى - في امتدادها الزمني - بالأتباع المقلّدين، لأن قوة التقليد لا تستمر إلا باستمرار قداسة الماضي في نفوس الناس، فإذا ضعفت القداسة أو انعدمت، انهار البناء كلياً... أما القناعة الفكرية الذاتية، فإنها قوة دائمة تنبع من قوّة الشخصية الفكرية للعقيدة المتجذرة في الأعماق... وبذلك كان الحوار الذي يلاحق الفكرة ويواجهها بالحركة المتنقلة في أكثر من اتجاه، عنصراً أساسياً من عناصر تحريك العقيدة في اتجاه الكمال، لا مجرد أسلوب من أساليب الترف الذهني، الذي يروّض الفكرة بسباق الجدل في ميادين الكر والفر، من دون فائدة تُذكر، إلا ما يفيده العابث من عَبَثِه، أو الغالب بإسكات خصمه دون إقتناع.

المنهج الإسلامي

وقد انطلق الإسلام - في هذا الإتجاه - إلى أبعد حد، فأكّد - في أكثر من مجال - على دور الحجة في الإيمان وفي المسؤولية؛ فمن ذلك، ما جاء في القرآن الكريم عن الله

تعالى، وهو يحدثنا عن الحجة البالغة التي أقامها على العباد، في ما يريدهم أن يؤمنوا به، في قضية الكفر والإيمان كما في قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٩).

ويحدثنا في بعض الآيات عن رفضه لوقوف المؤمنين موقف الضعف أمام الناس الذين يحاولون أن يثيروا الحجج ضد الإيمان والمؤمنين، في قوله تعالى:

﴿ ... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ... ﴾ (البقرة: ١٥٠). ﴿١٥٠﴾

ونلتقي في بعض الآيات بالحديث عن إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ليبشروا وينذروا، فيقيموا على الناس الحجة من الله، لأن الله لا يريد أن يجعل عليه حجة للناس المنحرفين عن الخط في أيّ جانب من جوانب العقيدة والحياة وذلك في قوله تعالى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥). ﴿١٦٥﴾

إن كل هذه الآيات الكريمة، توضح لنا الصورة الحية للمنهج الإسلامي، الذي يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بدون حجة، ولا مسؤولية إلا بعد إقامة الحجّة وإثارة الأجواء التي تنطلق منها الحجج الإلهية، لتدفعهم إلى التفكير والحوار في رحلة الإنسان من الشك إلى الإيمان؛ ولذلك أراد الله أن يقيم على الناس الحجة البالغة، لئلاً يكون لهم عليه حجة، في انحرافهم عنه عندما ينحرفون عن الخط المستقيم؛ ولئلا يكون لهم حجة على المؤمنين، عندما يدخل الإيمان المعركة في مقابل الكفر.

حق الإنسان في الدفاع أمام الله

.... حتى يوم القيامة، لا يقف الإنسان مكتوف اليدين أمام مصيره، بل يُترك له مجال الدخول في حوار وجدال، يدافع به عن نفسه، على أساس من العدالة التي تحترم في الإنسان حقه الطبيعي في الدفاع عن نفسه، حتى أمام الله الذي يعلم كل شيء ولا

يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النحل: ١١١).

وخلاصة الفكرة: إن الإسلام يريد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية، المرتكزة على الحجة والبرهان، في إطار الحوار الهادئ العميق، سواءً في ذلك قضايا العقيدة وقضايا الحساب والمسؤولية؛ فلكل سؤال جواب ولكل علامة استفهام تواجه الإنسان في الطريق، علامات في كل منعطف تشير إلى سواء السبيل.

وهذا هو الأساس الإسلامي، في اعتبار الحوار قاعدة أساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته.

الفصل الثاني

- المناخ الطبيعي للحوار
- الشك في طريق اليقين
- الجدال بالباطل

المناخ الطبيعي للحوار

عناصر الحوار وشروطه

لا بد للحوار من مُناخ يعيش فيه، كي يتحول إلى عملية منتجة، بدلاً من أن يكون عملاً ضيقاً عقيماً في الشكل والمضمون.

وقد أراد الله للرسول، في القرآن الكريم أن يوجد القاعدة الأساسية لهذا المناخ، بالتخطيط العملي لتوفير الخصائص الضرورية لذلك، وفي مقدمتها، شخصية المحاور الذي يقود عملية الحوار ويتبناها وشخصية الطرف الثاني للحوار، حيث الحالة النفسية التي تعيش مع الحوار في طريق المعرفة والإيمان، لا في الجدل العقيم.

ثم... المحاولة الجادة لخلق الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي المستقل، الذي يبتعد عن التأثيرات الانفعالية، التي تُربك ذهن الإنسان وتفكيره، وتبعده عن الآفاق التي يمثل فيها شخصيته الخاصة، لا شخصية الآخرين؛ لئلاً يكون مجرد ظل للآخرين، لا يملك أن يريد وأن لا يريد، لأنه لا يملك أن يفكر أو أن لا يفكِّر، إذ إنَّه تعوَّد أن يفكِّر الآخرون عنه وأن يريدوا له ما يفعل وما لا يفعل، ثم ينطلق في التركيز على توفر شروط الحوار الطبيعية لدى طرفيه، وهي تكمن في معرفة كل إنسان الفكرة التي يريد الحوار فيها بجميع مستلزماتها العامة والخاصة. وفي نهاية المطاف لا بد له من ممارسة الأسلوب،

الذي يستطيع أن يقود الآخرين إلى الفكرة ولا يبعدهم عنها في قليل أو كثير.

وخلاصة ذلك، أن العناصر التي يجب توفرها في عملية الحوار، خمسة وهي:

١ ـ شخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار.

٢ ـ شخصية الطرف الآخر للحوار.

٣ ـ خلق الجو الهادىء للتفكير المستقل.

٤ ـ معرفة المتحاورين للفكرة ـ موضوع الحوار.

٥ ـ أسلوب الحوار.

ونحن هنا في محاولة جادة للحديث في شيء من التفصيل عن هذه العناصر في إطار التصور القرآني لخصائصها العامة والخاصة.

١ ـ شخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار

من الطبيعي لأي حوار يدور بين اثنين، لينتهي ـ في هدفه ـ إلى النتيجة الحاسمة من الإيمان العميق المنفتح والمتقبل لنتائج الحوار، أن يحقق شرطاً أساسياً، هو أن يملك كلٌّ من الطرفين حرية الحركة الفكرية، التي يملك معها الثقة بشخصيته الفكرية المستقلة؛ فلا يكون واقعاً تحت رحمة الإرهاب الفكري والنفسي، الذي يشعر ـ معه ـ بالإنسحاق أمام شخصية الآخر نتيجة إحساسه في أعماقه ـ بالعظمة الكبيرة والمطلقة التي يملكها الآخر، فتتضاءل ـ إزاء ذلك ـ ثقته بنفسه، وبالتالي، ثقته بفكره وبقابليته لأن يكون طرفاً للحوار، فيتجمد عند ذلك ويفقد قدرته على الحركة الفكرية، فيتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر.

وقد عمل الرسول الكريم ـ من خلال تعاليم الله في القرآن الكريم ـ على توفير ذلك الشرط للاخرين عندما كان يتحدث إليهم، فحاول، انطلاقاً من ذلك، أن يؤكد ـ في أكثر من مناسبة ـ على جانب البشرية فيه؛ فهو بشر مثلهم لا يملك أيَّة قوّة غير عادية في

تكوينه الذاتي، فلا يستطيع اجتراح المعجزات التي يقترحونها عليه، ولا يعلم الغيب، بل كل ما في الأمر، أن هناك وحياً ينزل إليه من الله باعتباره رسول من صاحب الوحي،.. أمّا دوره في هذا الوحي، فهو دور الإنسان الذي يريد أن يبلغه للناس بكل وسيلة مقنعة، دون أن يملك أمر فرضه عليهم، وهدايتهم لأنه لا يملك الطاقة السحرية المعجزة التي تدفعهم إلى الإيمان بما يدعوهم إليه. دون أن يملكوا أمر مقاومته في ذلك، أو يستطيعوا التفكير فيه سلباً أو إيجاباً. بل تبقى لهم حرية ذلك كله، فإن استجابوا له واقتنعوا بما دعاهم إليه، فقد حصل على غايته من أداء رسالته، وإن لم يستجيبوا له فحسبه أنّه قد بلّغ عن ربّه وقام بواجبه.

قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠).

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

٢ ـ شخصية الطرف الآخر للحوار

لا بد لمن يدخل في عملية الحوار من إعداد جوّه الداخلي، للإقتناع بالنتائج الحاسمة التي يقوده إليها ، وإلا انقلب الموقف إلى جدل عقيم، لا يُراد منه إلا عرض العضلات الكلامية والمزايدات الجدلية، التي لا تقدم أو تؤخّر في الموضوع؛ لأن الفكرة قد أُعدّت سلفاً بشكل لا مجال للتراجع عنه على قاعدة من الدوافع الذاتية والاجتماعية التي لا ربط لها بالقناعة الذاتية الفكرية، المرتكزة على أساس من الحجة والبرهان.

وقد ركّز القرآن على هذا الجانب، فتحدّث عن أولئك الذين لا يريدون أن يؤمنوا أو يقتنعوا وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (الانعام: ٢٥ ـ ٢٦).

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٦ ـ ٧).

إنها الصورة الحية لأولئك الذين يستمعون إلى الدعوة، وقلوبهم مغلقة عن وعي ما يسمعون وآذانهم مسدودة عن الاصغاء إليه؛ فإذا جاءتهم آيات الله بكل جلاء ووضوح، أعرضوا عن الإيمان بها، لا لأن لديهم ما يواجهون به هذه الآيات، ليبرروا به إنكارهم ورفضهم ـ فهم لا يملكون شيئاً من ذلك ـ بل لأنهم يريدون أن ينكروا عناداً وكفراً؛ ولذا فإن الكلمة التي يوجهونها للدعوة ويواجهون بها الدعاة، لا تعبِّر عن أية مسؤولية فكرية، وهي قولهم : ﴿إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين﴾ دونما حجة أو برهان على ذلك.

وربما نجد نماذج حية من هؤلاء في الواقع المعاصر من الكثيرين من أعداء الدين، الذين لا يملكون علماً يواجهون به الفكر الديني، في عقائده ومفاهيمه العامة في شؤون الحياة، إلا كلمة الأسطورة و «الخرافة» يدمغونه بها، أما لماذا؟ وكيف؟.. فهذا ما لا يحاولون الإفاضة فيه؛ وربما يلجؤون إلى طريقة يغلقون بها باب الجدل في الموضوع، بالإيحاء بأن الدين قد انتهى دوره وتجاوزه العصر، ليحل محله العلم.. ولكنهم لا يدعمون ذلك بالحجة الواضحة والبرهان القاطع، لأنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً.

وقد نجد هناك بعض الآيات التي تجسِّد هذا الموقف تجسيداً حيّاً، يظهر ـ بوضوح ـ فظاعة المكابرة التي يلجأ إليها هؤلاء في موقف الإنكار والجحود الأعمى، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١).

فإن هؤلاء لا يريدون الإيمان بالله، ويطالبون بآيات خارقة للعادة، يقترحونها على النبي محمد (ص) كشرط من شروط الإيمان لعلمهم بأن ذلك غير وارد في رسالته فإن الآيات ليست لعباً ولهواً لكل من يريد أن يلهو أو يلعب، بل هي خاضعة للحكمة الإلهية التي لا تُنزل أيَ شيء إلا بمقدار الاستجابة للضرورة، التي يدعو إليها موقف النبُّوات في بعض حالات التحدي التي تواجهها بقوّة.

ثم إن قضية الإيمان ـ في واقعها الأصيل ـ بالنسبة، لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، ليست مرتبطة بالأيات بل هي مطروحة في كل مكان، وفي كل موقف من مواقف الإسلام في الحياة فلم يبق إلا المكابرة ومحاولات التبرير الواهية التي لا تستند إلى أساس، وهذا ما أراد القرآن الكريم تصويره بهذه الآية الكريمة التي ختم بها الصورة:

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . . . ﴾ (الأنعام: ١١١).

فليست القضية آيات تقترح ليستجاب لها أو لا يستجاب؛ بل القضية قضية فقدان الاستعداد للإيمان مهما كانت الآيات والبراهين.

ونلتقي في هذا النموذج مع الناس الذين يكابرون ولا يريدون أن يقتنعوا أو يؤمنوا،.. ببعض الأشخاص الذين يصورهم لنا القرآن الكريم بصورة رائعة، في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: ١١٨).

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢).

إنها الأساليب الساذجة التي تحاول أن تتلمّس الإيمان من خلال طلب مواجهته بالرؤية، أو سماع كلامه مباشرة، أو طلب تلمس عذابه على أساس موقف الإنكار، كما هي الحال لدى بعض الناس ممن يريدون خداع البسطاء والساذجين من الناس، عندما يقفون بعض المواقف الاستعراضية ليرفعوا أيديهم، فيقولون لمن حولهم: إن كان الله موجوداً فليكسر أيدينا، أو فلينزلها. أو ليطلبوا إلى الأطفال - في بعض المواقف - أن يتقدّموا إلى الله بطلب إنزال الماء أو الملابس أو الأغذية عليهم إن كان موجودا، لتكون النتيجة في عدم تلبيته لتلك المطالب دليلاً على نفي وجوده. إنها الأساليب الساذجة الخادعة، التي تريد أن تخضع قضية الإيمان للاستفزاز أو للتحدي، تبعاً لمزاج شخص يدعي الاهمية والعظمة ويعطي لنفسه القيمة الكبيرة التي تجعل لإيمانه أو عدم إيمانه أثراً كبيراً في واقع الحياة. وقد صوّر الله لنا نزعة الكبر المتأصلة في صدور هؤلاء بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (المؤمن: ٥٦).

وقوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢١).

وفي مقابل تلك الصورة القاتمة التي يعطيها القرآن الكريم للمعاندين والمكابرين الذين لا يريدون أن يؤمنوا، مهما كانت وسائل الإيمان موفورة لديهم..، تواجهنا الصورة المشرقة للنموذج الحي الرائع الذي يبحث فيه الإنسان عن الحق ويسعى إليه، وهي

صورة النبي العظيم إبراهيم (ع)، في مواقفه التي كان فيها هو نفسه طرفاً للحوار الذاتي أمام دعوة الحق والباطل، حيث يطرح قضايا الباطل من خلال أفكاره، ثم يبدأ عملية التساؤل والحوار الذاتي، الذي يجرّد فيه من نفسه شخصاً ثانياً يتأمل ويناقش من أجل الوصول إلى الحق، لينتهي بعد ذلك إلى موقف الإيمان الحق، بأقصر طريق وأقواه. أنظر إلى هذا الموقف الرائع الذي يصور لنا فيه رحلة الإنسان الباحث عن الحق من موقع الشك إلى موقع اليقين في أسلوب هادىء، ينطلق من الحوار الذاتي الذي يصلح أن يكون أنموذجاً للحوار بين فريقين، يعملان على الوصول إلى الحق من خلال التفكير المشترك.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩).

فقد بدأت القضية لديه كما بدأت عند البسطاء والساذجين من قومه، من الخضوع للظواهر الكونية، بما تمثله من عظمة، وبما يكتنفها من أسرار، فكانت عبادة الكواكب.. وعبادة القمر.. وعبادة الشمس، وكانت الأوضاع المختلفة لها، هي التي تقرر طبيعة العبادة لهذه أو تلك، في وعي أولئك الناس، على ضوء ما نفهمه من التدرّج في قضية الألوهية المدّعاة من الصغير، إلى الكبير، إلى الأكبر، مما جعل إبراهيم ـ وهو يصوّر تفكير قومه ـ يشعر بالخضوع للشمس ـ في النهاية ـ فيعتبرها رباً يستحق العبادة، لأنها أكبر من الكوكب ومن القمر، فهي أحق بالعبادة، لأنها تحمل من مظاهر العبادة ما لا يحملانه.

وكانت الفكرة تنمو في ذهنه، أمام عظمة هذه أو تلك.. ولكنها لم تلبث أن تراجعت

إزاء حالة الأفول التي تمثّل الضعف والغيبوبة عن الكون، مما يجردها عن صفة الألوهية التي تخلق الكون وتديره وترعاه وتدبره؛ الأمر الذي يفرض فيها القوة التي لا يعرضها الضعف، والحضور الدائم الذي لا يعتريه الغياب. وهكذا استطاع أن يتجاوز هذا الاعتقاد الطارئ السريع إلى المطلق الذي فطر السماوات والأرض، مما يجسّد الإحساس بوجوده من خلال مظاهر خَلْقه، ويعمق الشعور باستمرار هذا الوجود من استمرار حركة الكون في نظامه ودوامه. إنها الصورة الحية للإنسان الذي يعيش قلق المعرفة من أجل أن يصل إلى طمأنينة الإيمان، ولذا فهو يلاحق خطوات المعرفة بروح واعية منفتحة خاضعة للحق في كل أدلته وبراهينه.

وينقل لنا القرآن الكريم صورة أخرى عن إبراهيم النبي(ع) في موقف آخر، يجسد لنا فيه طبيعة الإنسان الذي يريد أن يؤمن، ويعمل على أن يتجاوز الإيمان إلى مستوى الاطمئنان الروحي، ولذا فهو يبحث عمّا يركّز هذه الطمأنينة في القلب، وهو قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

فهو يؤمن بقدرة الله المطلقة إيماناً ينبع من التفكير والملاحظة، ولكنه يطلب أن ينطلق الإيمان من الحسّ، لأنه يربط القلب بالفكر، والعقل بالنظر وبكل قوّة... ولم يكن هذا الطلب تحدياً، بل كان دعاءً ورجاءً حاراً يتمنى فيه على الله - بشعور صادق - أن يستجيب له لقدرته على ذلك، وحاجته إليه من خلال مسؤوليته الرسالية في مجتمعه الكافر الذي اضطربت فيه جوانب العقيدة وتعددت فيه طرق الضلال.

وهكذا استطعنا أن نجد في شخصية إبراهيم، من خلال هاتين الصورتين اللتين يعرضهما القرآن له في حواره المتحرك في طريق الإيمان، الشخصية الدينية للطرف الثاني للحوار، الذي يريد أن يصل إلى الحق، فيعمل كل ما في طاقته لتحقيق هذا الهدف الكبير دون أن يمنعه من ذلك مانع قريب أو بعيد.

٣ ـ خلق الأجواء الهادئة للتفكير المستقل

لعل من أشد الأمور ضرورة لوصول الحوار إلى هدفه، وجود الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي الذي يمثل فيه الإنسان نفسه وفكره، والابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تعيق الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير؛ فإنه قد يخضع في قناعاته وأفكاره للجو الاجتماعي الذي تنطلق فيه الجماعة في أجواءٍ إنفعالية حماسية لتأييد فكرة معيَّنة، أو رفض أخرى، فيستسلم الإنسان لها استسلاماً لا شعورياً، كنتيجة طبيعية لانصهاره بالجو العام وذوبانه فيه.. الأمر الذي يفقد فيه استقلاله الفكري وشخصيته المميّزة، ويحيله ظلاً باهتاً للجماعة.

وقد صوَّر لنا القرآن الكريم ذلك ـ في ما نقله لنا من أسلوب النبي محمد (ص) في الحوار مع خصوم العقيدة، عندما واجهوه بتهمة الجنون. فقد دعانا إلى أن نتجرَّد عن هذا الجو الانفعالي، إذا ما أردنا أن نتبنى فكرة أو نرفضها، أو ننسجم مع موقف، أو نبتعد عنه.

قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

فقد اعتبر القرآن الكريم اتهام النبي بالجنون، خاضعاً للجو الانفعالي الذي كان يسيطر على التجمع العدائي لخصومه آنذاك، مما جعلهم لا يملكون ما يستطيعون أن يَزِنوا به صحة القضايا وفسادها، بل ظلت أفكارهم صدى لأفكار الآخرين، ولذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو المحموم بأن يتفرقوا مثنى وفرادى، في موقف فكر وتأمل، يُرجع إليهم أفكارهم وشخصياتهم، ليصلوا إلى النتيجة الحاسمة بأسرع وقت، لأن طبيعة الفكر الهادىء الواعي الذي يواجه شخصية النبي محمد (ص) وأفكاره وتعاليم رسالته، سوف يضع القضية في موقعها الطبيعي الذي يرفض هذه التهمة جملة

وتفصيلاً، لينتهي ـ بعد ذلك ـ إلى الإقرار بأنه رسول الله إلى الناس لينذرهم بالعذاب الأليم.

وقد نجد مثل هذه الأجواء الانفعالية في كل مكان واجهنا فيه واقع الصراع المرير الذي يخوضه الإسلام مع أعداء الله، سواء منهم الملحدون، أو غيرهم ممن يختلف معهم في تفاصيل العقيدة والشريعة، فنلتقي بالاتهامات التي تُطلق بلا حساب في أجواء الجماعة، كنتيجة لمواقف الدعاة إلى الله الذين يتوجهون إلى المجتمع بالفكر الإسلامي الأصيل، مما لا ينسجم مع واقع الانحراف الفكري أو العملي الذي تعيشه مجتمعات الكفر والضلال... فينطلق أعداء الله باتهاماتهم الظالمة المدروسة التي تصفهم بالرجعية تارة، في إطار قضية التقدم الفكري والاجتماعي، وبمحاربة الوطنية أخرى، وبالتعاون مع الاستعمار ثالثة، في نطاق قضية التحرّر الوطني السياسي... ثم لا يقف الأمر بهم عند هذا الحد، بل يحاولون أن يتخذوا من ابتعاد المجتمع عن قوانين الإسلام، وعن روحه واستسلامه لقوانين أخرى وعقليات كافرة، مجالاً لتأليب الناس على هذا الفكر وهذا الدين، كما يفعلون في تصويرهم للقانون الإسلامي بقطع يد السارق، بأنه من الأساليب الوحشية التي لا تنسجم مع قوانين العصر الحديث، الذي يحاول معالجة الجريمة بالطرق العلمية على أساس قواعد علم النفس والاجتماع، بعيداً عن العنف والقسوة، دون النظر إلى تجربة هذا الاسلوب العملية التطبيقية، التي استطاعت أن تقطع جذور السرقة في بعض المجتمعات المعاصرة، مقابل التجارب الكثيرة العلمية في أكثر البلاد تقدماً، التي لم تستطع أن تحقق أية نتيجة ملموسة في هذا المجال..

ثم يضيفون إلى هذه الصورة أسلوباً جديداً في مواجهة هذا التشريع، فيقولون إنه يخلق في المجتمع مجموعة من الأفراد الذين يعيشون عالةً عليه، لأنهم لا يملكون إمكانية العمل، بسبب فقدان أيديهم التي يعملون بها إذا أرادوا ممارسة العمل الشريف، وينطلقون بهذا الأسلوب وأشباهه في أجواء انفعالية وعاطفية، ويغفلون الجوانب الأساسية التي انطلق منها التشريع في حساب الربح والخسارة في حياة المجتمع، ويثيرون المشاعر العدائية على أساس ذلك، مما لا يجعل للعاملين مجالاً للمناقشة في هذا الجو المحموم.

وقد يتمثل ذلك في الحديث عن المرأة وحقوقها، وقضية السفور والحجاب، وتعدد الزوجات، وقانون الطلاق وغير ذلك من الأحكام، التي قد يكون لها بعض الآثار السلبية في بعض المجتمعات التي نشأت على مفاهيم منحرفة وأفكار ضالَّة، كما هو الحال في المجتمعات الغربية التي تعالج موضوع الطلاق وتعدد الزوجات من زاوية التفكير المسيحي الذي طبع الفكر الغربي بطابعه، مما جعل بعض الحكام من المسلمين يضعفون أمام تلك الحملة التي يشنها رجال القانون والإجتماع من الغربيين، فيبادرون إلى سن التشريعات المخالفة لحكم الله سبحانه وتعالى، دون التفات إلى إيجابياته لخوفهم من الإتهام بالتخلف والرجعية، دون النظر إلى الدوافع التي دفعت تلك المجتمعات إلى الحملة على مثل هذه القوانين الإسلامية التي أرادت أن تنظر إلى مصلحة الإنسان ككل، بعيداً عن التأثيرات العاطفية التي لا يمكن أن يقوم عليها أي قانون أو تشريع.

وقد نجد ذلك الجو الإنفعالي الذي يحشده الأعداء ضد الإسلام وشريعته، في ما نواجهه من الصراع المرير الذي يخوضه المسلمون من أجل تركيز المفاهيم الإسلامية الإقتصادية المستقلة في الحياة، التي لا تخضع للفكر الرأسمالي في قواعده الفكرية، كما لا تخضع للفكر الاشتراكي في فلسفته المادية.

فإننا نشاهد الحملات الظالمة التي تتهم الإسلام بالتنكر لمطالب الطبقات الكادحة، والتعاطف مع الطبقات الإحتكارية والإستغلالية وغيرها، على أساس إقرار الإسلام للملكية الفردية وحمايته لها، من دون أن يتطلعوا إلى حماية الإسلام لمصلحة المجتمع من مساوىء هذه الملكية ومشاكلها، في ما وضعه من حدوده، وفي ما سنَّه من شرائعه.

وهكذا يجد الداعية المسلم، كل هذه القضايا، التي لا يطلقها أعداء الله من قاعدة فكرية تفسح المجال للمناقشة الحرّة، بل يحاولون إثارتها في أجواء عاطفية وحماسية، تعطي الأساليب المتبعة في ذلك، أجواء الانفعال التي تغرق الجماهير في حالات لاشعورية متوترة، لا تترك للتفاهم سبيلاً.

وفي ضوء ذلك، لا بد لهذا الداعية من العمل الجاد للابتعاد بجو الحوار، عن هذه الأجواء الانفعالية المشدودة إلى الجو العدائي العام، ليجرهم إلى الجو الهادىء الذي

يعيدهم إلى جذور الفكرة وأسسها الأصيلة من جديد، لتبدأ رحلة الحوار من بدايات الفكر لا من نهاياته..

وقد يحتاج الإنسان الداعية ـ في عملية خلق الأجواء الهادئة للحوار ـ إلى الإلتفات إلى بعض الحالات، التي يخضع فيها أطراف الحوار إلى إحساس عميق بقداسة الفكرة التي يؤمنون بها ويدافعون عنها، انطلاقاً من جوانب عاطفية ترتبط بالذات وبعلاقاتها، بعيداً عن أي منطق فكري أو عقلي، مما يجعل الإنسان مشدوداً إلى الفكرة بالمستوى الذي يكون فيه مشدوداً إلى الأشياء التي تتصل بعاطفته ومشاعره الحميمة، فيصعب عليه الانفصال عنها والتنكر لها تحت تأثير أي ضغط فكري أو اجتماعي، كما نلاحظه في موقف الإنسان من عقيدة آبائه وأجداده أو تقاليدهم، فإننا نلاحظ أن إرتباطه بها وشعوره تجاهها يرتبط بعلاقته بهم ومشاعره تجاههم، فلا مجال لديه للإيمان بخطأ هذه العقيدة، أو الإقرار بانحرافها وفسادها وضررها للمجتمع، لأن ذلك يشكل إدانة للآباء والأجداد وتشويهاً لصورتهم، وإساءةً لذكراهم، وخيانة لهم، إلى غير ذلك من المعاني التي تتصل بالقلب لا بالعقل، وتنبع من العاطفة ولا تنطلق من الفكر.

ولا يقتصر هذا على العقيدة، بل يمتد إلى العادات التي تحكم سلوك الناس في حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، كما هي الحال لدى الشعوب البدائية التي ترتفع عاداتها المتوارثة إلى مستوى القداسة في حياتها، من دون أن يكون لهذه القداسة أي أساس فعلي، إلا ارتباطها بالآباء والأجداد الذي يُخضع الأبناء إلى الشعور العميق بقداسة ذكراهم.

وقد واجه النبي هذه الحالة في قومه وغير قومه من العرب ومن غيرهم، عندما واجههم بعقيدة الإسلام وشريعته التي تتنكر لعقائدهم المتوارثة من عهود آبائهم وأجدادهم، ولا تنسجم مع عاداتهم وتقاليدهم العشائرية؛ فكانت النتيجة أن وقفوا ضده، وحاربوه في نفسه وشريعته، لأنه أراد منهم أن يغيروا ذلك كله، فينتقلوا عن ضلال الآباء والأجداد إلى هدى الله ورسوله... ولم يكن لهم أيّ حجّة يستندون إليها في ما يعتقدون، وفي ما يعملون، إلا أنها عقيدة الآباء والأجداد التي تمثل إرادة الله في كل

شيء، وبهذا ارتبطت القداسة العاطفية بالإرادة الإلهية في مفهومهم للأشياء.

فلم يكن من النبي محمد (ص) إزاء ذلك إلا أن بذل الجهد الكبير في سبيل أن يناقشهم في المنهج الفكري، قبل أن يناقشهم في طبيعة الفكرة وتفاصيلها، في محاولةٍ لتوعيتهم بالحقيقة البديهية التي غفلوا عنها، وهي أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالقضايا الشخصية، فلكلٍ مجاله ولكلٍّ أصوله وفروعه التي ينطلق منها ويمتد إليها. فإن قضايا الفكر تنبع من عقل الإنسان وذهنه بعيداً عن أيّ تأثير عاطفي أو خارجي، فليس أمام الإنسان ليؤمن أو لا يؤمن، إلا أن يدرس القضية في إطارها الطبيعي من خلال الجوانب التي تؤثر فيها وتتأثر بها من ناحية فكرية.. ولولا ذلك لم يستطع النبي (ص) أن يصل إلى نتيجة حاسمة في هذا المجال، لأنهم - مع إصرارهم على قداسة الماضي - لا يوافقون على مناقشة الفكرة من حيث المبدأ، فكيف يمكن إقناعهم بها وجرّهم إليها.

وتتضح لنا الصورة الجيّدة، في عرض الفكرة ومناقشة المنهج في الآيات القرآنية الكريمة:

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨)

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤).

فإننا نواجه في هذه الصورة إصراراً على رفض رسالة الله، بحجة مخالفتها لما هم

عليه آباؤهم.. فكان منهج القرآن في ردّهم، إثارة التساؤل أمامهم حول الإمكانيات الفكرية التي كان يملكها الآباء، وتوجيههم إلى القيام بعملية موازنة بين ما لديهم من تراث آبائهم وبين ما تأتيهم به الرسالات من قِبَل الله، فقد يطّلعون على أفضلية الرسالة على التراث. وهكذا نشعر أنّ على الداعية مراعاة هذا الجانب، عندما يصطدم بهذه النماذج في دعوته، فيعمل، كما عمل النبي محمد (ص) على إخراج هؤلاء من جوّ القداسة إلى الجو الطبيعي، بإثارة الشك في نفوسهم إزاء ما يقدسونه، والعمل على تحطيم الهالة الكبيرة للآباء في أعينهم، والإيحاء لهم بأن احترام الآباء لا يمنع من قابليتهم للخطأ، لأنهم غير معصومين في أفكارهم وأعمالهم.

وقد لا يقتصر ما نواجهه ـ في هذا الجو ـ على تقديس التراث، بل قد نصطدم بالنموذج الذي قد يرفض مناقشة الفكرة المضادة، لتقديسه الحزب، الذي ينتمي إليه إذا ما كان منتمياً إلى بعض الأحزاب، التي تغرس في نفوس أفرادها روح التقديس للحزب وأفكاره، دون أن تسمح لهم بمناقشتها أو التفكير بخطئِها وصوابها، أو لتقديسه شخصية إجتماعية معينة تتبنى هذه الفكرة كأستاذ أو زعيم أو غير ذلك.

إن الأسلوب العملي هو مناقشة أطراف الحوار، في المنهج الذي يجعلهم يتحررون من الخضوع للشعور بالقداسة التقليدية، لينطلقوا ـ بحرّية وقوّة ـ مع أفكارهم، كشرط أساسي لوصول الحوار إلى هدفه.. وهكذا حاول القرآن أن يوحي إلى النبي (ص) بضرورة التوفر على إيجاد هذا المناخ الطبيعي الذي يستطيع أن يصل بالحوار إلى غايته الطبيعية دون سلبيات أو انفعالات؛ ليكون الحوار رحلة طيبة في طريق الوصول إلى الإيمان، لا حركةً تشنجيةً تؤدي إلى الحقد والعدواة والبغضاء.

٤ ـ المعرفة لموضوع الحوار

لا بدّ لكلٍّ من طرفي الحوار من التعرّف على الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها ونفيها، لأن الجهل بها وبتفاصيلها يحوّل الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم والمهاترات، التي يغطي بها كلٌّ منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي

عن فكرته. بينما تجعل المعرفة كلاً منهما واعياً لما يطرح وما يستقبل من فكر، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار، وكيف يخوض فيه، وكيف ينتهي منه، في وضوح الرؤية وهدوء الفكر وقوّة الحجة ووداعة الكلمة.

وقد أعطانا القرآن الكريم بعض النماذج البشرية التي وقفت ضد الرسالة والرسول، من دون أن يكون لها إحاطة ومعرفة في ما تأخذ وفي ما تدع، كما في قوله تعالى:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (المؤمن: ٥٦).

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يونس: ٣٩).

فقد نفهم في هذه الآيات أن القرآن الكريم يأخذ على كل هؤلاء الذين يخاصمون النبّوات والرسالات السماوية، أنّهم يدخلون معركة الحوار دون سلاح، لأنهم لا يملكون علماً أو حجةً، أو إحاطة بالموضوع الذي يرفضونه، مما يجعل من جدالهم ورفضهم قضية مزاج، وعقدةً نفسية تتحكم بهم؛ فتدفعهم إلى اللف والدوران تارة، وإلى التكذيب بلا مبرّر أخرى، الأمر الذي لا يؤدي إلى أية نتيجة لحساب المعرفة أو لمصلحة الحقّ.

ولعلنا نجد في واقع الصراع، الذي يخوضه الإسلام مع خصومه، الكثير من هذه النماذج التي تدخل مجال الصراع دون أن تعرف طبيعة الفكرة التي تدافع عنها، أو تهاجمها، سواء في ذلك الذين ينطقون باسم الإسلام، أو الذين ينطقون باسم الكفر والضلال، ممن لا يعرفون من أفكارهم وأفكار خصومهم إلا بعض المفاهيم العامة، التي يحوطها الضباب في أذهانهم من كل جانب... وقد تمتد بهم المعرفة إلى وعي بعض الأفكار المحدّدة في مفهومها وتطبيقها ، ولكنهم يجهلون ارتباطها ببقية الأفكار، التي تجعلها وحدةً فكرية متكاملة، فيسيئون إلى الفكرة عندما يقتطعون منها بعض

الجوانب، دون غيرها؛ مما يفقدها العناصر الأساسية التي تعطيها القوّة والحيويّة.

ومن الطبيعي - لهذا كله - أن نحصل على نتيجة قَلِقةٍ من خلال عملية الحوار، قد تتمثل في ضعف موقف المدافعين عن الإسلام أو الداعين إليه في بعض الحالات، وقد تتمثل في ضعف أولئك في دفاعهم عما يؤمنون به، لا لضعفٍ في طبيعة الفكرة، بل لضعفٍ في معرفتهم بها؛ مما يؤدي إلى استسلام الدعاة المسلمين إلى زهو الشعور بقوة حجتهم أمام ضعف عقيدة الكفر، فيتركون الاستعداد الكبير لمواجهة القوّة الحقيقية لمبادئ الكفر والضلال، التي تتمثل في المفكرين الكبار الذين وعوها حق الوعي، وعرفوها حقّ المعرفة، فيؤخذون على حين غرّة وغفله؛ الأمر الذي يؤدي - في بعض الحالات - إلى الهزيمة الفكرية التي تنعكس على حركة الدعوة الإسلامية في الحياة.

وفي ضوء هذا، نشعر أن على الداعية المسلم أن يتزوّد بالثقافة الإسلامية، التي تجعله قويّاً في حجته أمام خصومه من موقع المعرفة العميقة للإسلام، لا من مركز ضعف خصومه، كما أن عليه أن يحيط بالثقافة المضادّة التي يملكها أعداء الإسلام، مما يعتبرونه سنداً لمبادئهم وحجةً لأفكارهم، حتى يخلُص من خلال الموازنة والمفاضلة بين العقيدتين أو بين المفهومين، إلى النتيجة التي لا تختلف حالها، حسب اختلاف قوّة الخصم وضعفه، من حيث المعرفة والحجة والأسلوب.

٥ - أسلوب الحوار

لاحظ الإسلام - في ما يحدثنا به القرآن الكريم - أن هناك طريقتين للحوار الفكري، أو للصراع في جميع مجالاته، فهناك طريقة العنف التي تعتمد مواجهة الخصم بأشد الكلمات والأساليب وأقساها، بحيث يتركز الإختيار على كل ما يساهم في إيلامه وإهانته وإهدار كرامته، فلا مجال لمراعاة مشاعره وعواطفه، ودراسة واقع حياته، والإحاطة بظروفه من أجل المحافظة على الإنسجام معها، بل الأمر ربما يكون - على العكس من ذلك - تحدياً للمشاعر في كل المجالات.

وقد لا نحتاج إلى التأكيد بأن مثل هذه الطريقة لا تنتج إلا مزيداً من الحقد والعداوة والبغضاء والبعد عن كل الأجواء التي تقرّب الأفكار، وتساهم في الوصول بالصراع إلى نتيجة طيّبة.

وهناك طريقة اللاعنف، أو الطريقة السلميّة التي تعتمد اللين والمحبّة أساساً للصراع، انطلاقاً من القاعدة الإسلامية التي تعتبر موضوع الصراع، بمختلف مستوياته ومجالاته، وسيلةً من وسائل الحركة المنفتحة للوصول إلى الهدف، وهو الإيمان بالحق والوقوف معه والعمل على حشد أكبر عدد ممكن من الناس للإرتباط بالهدف والانسجام معه؛ ولا بدّ لهذا الخط من الإلتقاء بكل الكلمات والأساليب الطّيبة المرنة التي تفتح القلوب على الحق، وتقرّب الأفكار إلى مفاهيمه وأحكامه، بعيداً عن كل المعاني الشريرة والسلبيّات القاسية.

وقد ركز الإسلام على هذه الطريقة في كل أساليب الحوار والجدال من أجل الوصول إلى المعرفة من جهة، أو إلى الموقف الحق من جهة أخرى، وأطلق على ذلك كلمه «التي هي أحسن»؛ فهي الطابع الذي يطبع كل وسائل الحوار وأساليبه.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٣ - ٣٥).

ومن الواضح لدينا أن الحسنة تعبِّر عن الأسلوب السلمي، بينما تعبِّر السيّئة عن الأسلوب العنيف.

ونلاحظ أن القرآن الكريم حين يختار لنا أسلوب اللاعنف وطريقة اللين، يشير إلى النتائج العملية التي تجنيها الرسالة من خلال هذا الأسلوب، وهو أن تحوّل أعداءك إلى أصدقاء، ينطلقون معك في ما تفكر فيه وفي ما تعمل له. ثم يعقّب على ذلك بالإيحاء بأن

السير في هذا السبيل يحتاج إلى مزيد من الصبر وإلى حظ عظيم من الإيمان، لأن ذلك يخضع لقوّة الأعصاب، ومرونة الشخصية في مواجهتها لتحديات الخصومة ومشاكل الصراع.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في آيتين أخريين تتعلقان بالدعوة والحوار بشكل مباشر:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

ولن نحتاج إلى جهد كبير، لنعرف أن الجدال بالتي هي أحسن يتمثل في اتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم بالفكرة التي يدور حولها الحوار، بحيث يظل الداعية في ملاحقة جادّة واعية لكل الأساليب المطروحة المعروفة وغير المعروفة، ليختار منها الأسلوب الأحسن والطريق الأقوم، سواءً في ذلك الكلمات التي يستخدمها أو المعاني التي يعبّر عنها.

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك، هو النموذج الذي طرحه القرآن الكريم في نهاية الآية الأخيرة، في الحديث عن جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقد بدأت الآية الكريمة الحوار معهم بالطريقة التي تبحث عن مواطن اللقاء التي نؤمن بها، من خلال رسالتنا وفكرنا، فنحن لا نتنكر لما يؤمنون به من كتاب وما يعتقدونه من رسالة، فإن القيمة الكبيرة للإسلام هو أنه ينطلق من الإيمان بكل الرسالات السماوية، والتصديق بجميع الأنبياء، والشعور المشترك ـ منا ومنهم ـ بالعبودية لله سبحانه وتعالى الذي نسلّم له ولرسالاته. وعلى هذا الأساس يبدأ الحوار من قاعدة مشتركة يمكننا أن نقف عليها معاً، حيث نشعر بإمكانية اللقاء في القضايا الأخرى، بعد تحقق اللقاء في القضايا الأساسية.

الشك في طريق اليقين

كان أسلوب النبي محمد (ص) في طريقة الحوار مع خصومه، مثلاً رائعاً على حيويّة القاعدة الإسلامية في أسلوب الحوار ومرونتها. وقد كانت مسيرة الدعوة، في الممارسة الرسالية، خاضعة في خطوطها العامة والخاصة لحركة النبي، فقد كان هو الذي يتولى عملية خلق الجوّ الطبيعي للحوار وإدارته، ودفع الدعوة إلى أن تتحرك في إطاره، وبذلك كانت سيرته تجسيداً عملياً لكل القواعد العامة في الفكرة والأسلوب.

ويواجهنا ـ في الجانب ـ أسلوبان عمليّان في حركة الدعوة الإسلامية في سيرة النبي القرآنية:

الأوّل: الأسلوب العملي الذي يعتمد على تفريغ الموقف من الأفكار المسبّقة، التي تحوّل الموقف إلى عُقدة تفرض نفسها على كل مواطن الحوار، وتشكّل حاجزاً يمنع الأطراف من الشعور بحريّة الحركة في ما يقبلون وفي ما يرفضون، ويتمثل ذلك في اعتبار الشك في الفكرة موقفاً مشتركاً بين الطرفين، يوحي لكل منهما بضرورة إعادة النظر في القضية ومحاولة مواجهتها من جديد، كما لم يواجهها من قَبْل، فليس هناك حكم سابق من أيٍّ من الطرفين على خصمه بالهدى أو بالضلال، بل هو الموقف المشترك الذي يريد أن يصل إلى الحقيقة، من خلال الحوار الإيجابي القائم على الوعي والشعور

العميق بالحاجة إلى الوقوف مع خط الإيمان بالنتائج أيّاً كانت، وهذا ما تجسده لنا الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (سبأ: ٢٤).

فلم يعطِ النبي (ص) في أسلوبه هذا لنفسه صفة الهدى، ولم يدمغ خصمه بصفة الضلال، مع إيمانه العميق بأن القضية في واقعها الأصيل لا تبتعد عن ذلك، ليترك المجال للقضية أن تتحرك في حُريةٍ، لتصل إلى النتيجة الحاسمة، من موقع الحرية الفكرية المنطلقة مع الحوار في الخط الصحيح.

الثاني: الأسلوب العملي الذي يواجه فيه الخصم بقناعاته المرتكزة على ما يملك من أدلّة وبراهين على صحتها - من جهة - وفساد الأفكار المضادة لها، من جهة أخرى.. ولكنه لا يجعل من هذه القناعات سداً منيعاً يغلق على الموقف أبواب التحرك مع قناعات الآخرين، بل يترك الباب مفتوحاً للأفكار المضادّة، لتطرح نفسها من جديد، من خلال ما تملك من أدلّة جديدة تستطيع أن تتغلب على أدلة الفكرة التي يؤمن بها، لتثبت أنها أفضل وأهدى سبيلاً.

ولعل وجه القيمة في هذا الأسلوب، أنه يجرّد الموقف من حالات التعصب والتزمّت التي تحجِّر الفكرة فلا تسمح لها بالتحرّك الذي تخوض معه الصراع من جديد... فيكون الموقف الإيماني واضحاً قوياً يتحدى ويقبل التحدي بحيث يكون جاهزاً لذلك في كل وقت، كلما برزت هناك حاجة جديدة للصراع، أو كلما استطاع الخصم أن يحصل على دليل جديد للفكرة المضادة وهذا ما توضحه لنا الآية الكريمة:

﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (القصص: ٤٩).

فالقضية، كل القضية، هي أنَّ هناك هدىً يجب أن يُتّبع في الطريق أو في الغاية.. وقد كان إيماننا ومسيرتنا في خطِّ هذا الإيمان على أساس قناعتنا بأنه الهدى وأنّ غيره ضلال وانحراف، فإذا كان لديكم طريق أفضل، أو كتاب أهدى فدلونا عليه لنتبعه، لأننا لا نخضع لأيّة عقدة ذاتية في هذا المجال.

إن كلا هذين الأسلوبين يلتقيان في إفساح المجال للحوار أن يتحرك بكل حُرّية، لكنّ الأول ينطلق من موقع الشك الذي يطرح كل القناعات جانباً، ليبدأ القضية من جديد؛ بينما يتمثل الثاني في الوقوف مع القناعات في موقف متحرك، يترك المجال مفتوحاً للقناعات المضادّة لكي تطرح نفسها، مع إعطاء إمكانية فكرية ونفسية للإيمان بها على أساس جديد.

وقد نشعر ـ كدعاة إسلاميين ـ بالحاجة الملحّة إلى كلا هذين الأسلوبين، لنخترق الحواجز الفكرية والنفسية التي يضعها خصوم الدعوة إلى الله أمامها، ليمنعوها من التحرّك، بما يثيرونه من الإتهامات الظالمة والمليئة بالتعصب والتزمّت والتحجّر، التي تمنعنا من الدخول في عملية جدال معهم.

وربما تنطلق الحاجة إليه ـ في بعض الحالات ـ من الإحساس بضرورة اقتحام المواقف المتعصبة والمتعنّتة التي يقفها أولئك الخصوم، ليمنعوا أتباعهم من السير معنا بعيداً في عملية الحوار الذي يقودهم إلى الإيمان بالله، فقد ينفع هذا الأسلوب في دفع هؤلاء إلى الشك في عقيدتهم، عندما تتسلم زمام المبادرة في الإعلان عن الشك في عقيدتك وفي عقيدتهم، كحركة بارعة للالتفاف حول الموقف.

وقد نجد الأثر الكبير ـ من خلال التجربة العملية ـ في الطريقة التي توحي بها لخصمك، أنك لا تمانع من الوقوف معه والسير في إتجاه الخط الذي يؤمن به، إذا استطاع أن يقنعك بأن عقيدته أفضل من عقيدتك، وبأن طريقه أهدى من طريقك... إنك ـ بهذا الأسلوب ـ تقدّم له الإغراء الكبير لأن يدخل معك عملّية الحوار من أجل أن يجرّك إلى موقفه. وهكذا تنجح في تحطيم الحاجز الذي يمنعه من الالتقاء بك في هذا المجال.

الجدال بالباطل

والآن... وقد استكملنا العناصر الأساسية التي تخلق لنا المناخ الملائم للبدء في عملية الحوار بطريقة ناجحة منتجة، قد يواجهنا سؤال حاسم في هذا المجال:

هل يمكننا أن ننطلق في حركة الحوار، من الأفكار الباطلة التي لا نؤمن بها أساساً أو نؤمن بخلافها، باعتبار أن ذلك إحدى الوسائل التي قد تقضي على مقاومة الخصم وتخرجه من عناده؟

هل يجوز الجدال بالباطل، إذا كان ذلك مفيداً لنا في عملية الحوار أم لا؟

إن القرآن الكريم يتناول القضية في حالة جدال الكفار بالباطل ليدحضوا به الحق، فيشجب ذلك ويستنكره أشدّ الاستنكار كما في قوله تعالى:

﴿ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ (الكهف: ٥٦)

ويحدثنا في آية أخرى عن بعض أهل الكتاب الذين يتخذون من الكذب على الله سبيلاً في الجدال والحوار:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ

ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨).

ونلاحظ - في هذا الموضوع - أن الإستنكار على هؤلاء ما يجادلون به من الباطل يخضع للفكرة التي تريد للإنسان المؤمن أن يرفض الباطل جملة وتفصيلاً في أيّ موقع من مواقعه، سواءً في ذلك حالة الصراع مع الحق لإضعاف الحق بالباطل، أو في مقام الصراع مع الباطل، في حالة إرادة إضعاف الباطل في جانب بإقرار باطل مثله في جانب آخر.. لأن القضية في كلتا الحالتين تقع في موقع واحد، وهو إقرار الباطل والإعتراف بشرعيته من دون فرق بين النتائج، سواء أكانت إلى جانب الحق أم إلى جانب الباطل. وهذا ما تحدَّث عنه الإمام جعفر الصادق (ع) مع بعض أصحابه في قوله(ع): (لا تمزج الحق بالباطل، وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل). وقوله (ع) في حديث آخر يتناول فيه الفرق بين الجدال بالتي هي أحسن والجدال بغير التي هي أحسن: (أما الجدال بغير التي هي أحسن، أن تجادل مبطلا فيورد عليك باطلاً، فلا ترده بحجة قد نصبها الله، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقاً يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة لأنك لا تدري كيف المخلص منه. فذلك حرام على شيعتنا أن يصير فتنةً على ضعفاء إخوانهم وعلى المبطلين. أمّا المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته، وضعف ما في يده حجة على باطله. وأما الضعفاء منكم فتغم قلوبهم لما يرون من ضعف الحق في يد الباطل) [١] .

ولعلنا نفهم القضية جيداً، إذا عرفنا حقيقة أساسية وهي إن الموقف ليس موقف الصراع والسباق ما بين فريقين يريد أحدهما أن يتغلب على الآخر، فيحاول أن يحشد كل ما يملكه من أسلحة الصراع من حق أو باطل، في سبيل تحقيق هذه الغلبة؛ بل الموقف هو موقف الصراع بين الحق والباطل، من أجل الوقوف مع الحق بجميع

(١) البحار ج٩ ص ٣٠٩ الطبعة الجديدة.

مستوياته ضد الباطل بجميع مظاهره ومواقعه.. ولذا فإن إقرار أيّ باطل، في أيّ موقع من المواقع، يعتبر خيانة لمعركة الصراع بين الحق والباطل. فنحن مع الحق الذي يملكه الخصم في نطاقه الخاص، بنفس القوّة التي نكون فيها ضد الباطل الذي يعيش في حياتنا في بعض لحظات الانحراف.

أما إذا كان الهدف من استخدام الباطل في مجالات الصراع والحوار، هو العمل على تقوية موقف الحق في الحجة والبرهان، فإننا نرفض ذلك انطلاقاً من أنّ ذلك يمثل نقطة ضعف في جانب الحق، لأن الحق ـ في أيّ موقع كان ـ يُمثّل قوّة عظيمة تستطيع أن تتحدى وتواجه التحديات، كما جاء في الحديث المتقدم عن الإمام جعفر الصادق (ع) في قوله: (وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل)، مع الإشارة إلى ما في ذلك من آثار سلبيّة على موقف الحق لدى أنصاره وخصومه على السواء. إن الاقرار بالحق، في بعض مواقف الخصم، لا يضعف موقفك، بل القضية ـ على العكس من ذلك ـ قد تكون وسيلةً من وسائل دعم الموقف، لأنك بالحق الذي يقرّ بِهِ خصمك، تستطيع أن تقهر الباطل الذي يتبناه ويدافع عنه، إذا عرفت كيف توظفه في المعركة، مع الجوانب الأخرى التي للحق في الموقف بشكل عامّ.

وربما نلمح الإشارة إلى خطأ هذا الموقف، الذي حاول فيه المبطلون أن يطمسوا فيه الحق الذي يملكه المحقون من دلائل النبوّة التي يعلمها المبطلون من اليهود، حذراً من أن يتخذه أولئك حجة ضدّهم، كنتيجة طبيعية لضعف موقفهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٦).

ولكنّ هذا كله يقف في الحالات التي يراد منها الإبقاء على موقف الباطل من دون ردّ. أمّا إذا كانت القضية إظهاراً للإعتراف بالباطل، لانتزاع الإقرار ببطلانه من قِبَل المبطلين، فلا بأس بذلك؛ لأن الموقف يكون على هذا الأساس في مصلحة الحق ، كما يعتبر طريقة ذكيّة في إظهار بطلان الباطل من موقعه. وهذا ما تمثله الآيات الكريمة التي تحدثت عن حوار إبراهيم النبي (ع) مع قومه حول عبادة الأصنام، حيث قام ـ بعد ذلك ـ

بتحطيم الأصنام، باستثناء الصنم الكبير ـ كطريقة من طرق إتمام الحوار بشكل عملي:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥١ ـ ٦٧).

فإننا نلاحظ أن إبراهيم قد نسب العمل إلى الصنم الكبير وهو غير صحيح، ولكنه لم يرد أن يطرحه ليقرّ ويعترف به، بل ليسجل ـ من خلاله ـ على عبدة الأصنام الاعتراف بخطأ عقيدتهم من حيث لا يشعرون. وهكذا نجد هذا الأسلوب يصل إلى غايته، فقد كانت هذه التهمة ـ التي أطلقها ضد الصنم الكبير، كردّ لهم على اتهامهم له بهذا العمل، وجوابهم له بأن ذلك مستحيل، لأن هذه الأصنام لا تستطيع أن تنطق ـ سبيلاً لعملية الالتفاف التي قام بها إبراهيم من جديد، في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ... ﴾ الخ.

إننا نوافق على مبدأ إظهار الاعتراف بالباطل، إذا كان ذلك مساهماً في كشف الموقف من جميع جهاته بالنسبة إلى الباطل، أصله وفرعه، لعلنا نعرف ـ بوضوح ـ أن هذا ليس اعترافاً بالباطل على أيّ حال.

وخلاصة الفكرة التي نريد معالجتها هنا، هي أن الهدف من الحوار إذا كان الوصول إلى الحق، فمن البديهي أن يكون الحق هو الفكر الذي يجسده الحوار جملةً وتفصيلاً، في الأسلوب والغاية، لأن دخول الباطل كعنصر في الحوار يجرِّد الحق من صفائه ونقائه، وبالتالي من قوته التي تجعلنا نشعر أنه هو ـ وحده ـ في الميدان، ولهذا فإننا نرفض الأساليب الجدلية التي تبتعد عن الحق، وتعتمد على التلاعب بالحقائق، في محاولة لإخفاء ضعف المجادل عن ممارسة الموقف القوي ضد الباطل.

الفصل الثالث

- مع حركة الحوار في أصول العقيدة الإسلامية
- مع المشركين
- مع الملحدين
- مع المنكرين للمعاد
- مع المنكرين للنبوة
- مع أهل الكتاب

مع حركة الحوار في أصول العقيدة الإسلامية

تمهيد

لقد واجه الإسلام في حركة النبي الرسالية، في الدعوة إلى الله وإلى تعاليمه، تحدِّيات عديدة من قِبَل الكفار الذين توجهت إليهم الدعوة، من أجل تغيير مفاهيمهم عن الكون والحياة، على أساس القضايا الأصلية التي طرحتها في مجال الفكر والعمل، مما يختلف عما يفكرون فيه أو يمارسونه.

وكان من بين الأهداف التي سعى إليها الإسلام في دعوته، أن يرسم للأمة منهجاً جديداً،سواءً في طريقة التفكير أو في طريقة محاكمة القضايا التي تواجهها، لأن قيمة أيّة عمليّة تغييرية لا تتمثل في ما يطرحه من قضايا وأفكار، بقدر ما تتمثل في ما تغيره من منهج في فهم الحياة ومواجهة القضايا.

وقد أراد القرآن الكريم توجيه الناس في ذلك العصر، وفي كل عصر، إلى الطريقة العقلية التي تستخدم مقاييس العقل في محاكمة الفكرة، أو الطريقة الاستقرائية التي تعتمد على استقراء الواقع في جميع صوره ومظاهره، من أجل الوصول إلى المعرفة .

وربما يتجه الأسلوب إلى تقريب الفكرة بالمَثَل تارة، وبالصورة الحسيّة التي يواجهها الإنسان باللمس أو البصر.. ليكون ذلك باعثاً على إيقاظ الإحساس الفطري بالفكرة من خلال إثارة المعرفة الحسيّة بأمثالها، لأن الفطرة قد تغفو في كثيرٍ من الأجواء الضبابية التي تحيط بالنفس، فلا تستيقظ إلا إذا ارتبطت بالواقع المتحرك، الذي يجسّد لها الفكرة في نطاق الصورة المحسوسة.

ولعل هذا ما انطلق فيه القرآن الكريم، ليغيِّر الفكرة من خلال تغيير منهج الوصول إليها، وليواجه الإنسان العقيدة من قواعدها الفكرية، لا بالانخراط في حركة التيار. إنه الأسلوب المرِن المتحرك في أكثر من إتجاه، المرتكز على العقل مرة، وعلى العاطفة أخرى، وعلى الحس ثالثة ليفتح للإنسان المجال في فكره وقلبه ووجدانه ليفكر ويناقش ويشعر في كل باب يريد أن يلجه، وفي أي هدف يعمل على الوصول إليه؛ كل ذلك بمحبة وموضوعية.

أما إذا أردتَ أن تغلق باب الحوار، لتغلق على نفسك وعلى الآخرين باب الإيمان، فسوف يغلق الباب بمرونة تاركاً لك مجال فتحه من جديد.

ونحن هنا في محاولةٍ للسير مع حركة الحوار في أصول العقيدة التي واجهت مختلف التحديات، لتتضح لنا معالم المنهج في إطار النظرية والتطبيق.

وسوف نلتقي بالإسلام وهو يحاور المشركين في فكرة التوحيد والشرك، كما نلتقي به وهو يجادل الملحدين في فكرة الإيمان والكفر والرسالة والرسول وكتاب الرسالة.

ولا يفوتنا أن نعيد إلى أذهان القراء، أنَّنا نتحدث عن الحوار، من حيث هو حديثٌ يدور بين اثنين، كما نتحدث عنه من حيث هو بداية الحديث مع الآخرين، لإثارة الآخرين في الدخول معه في حوار جديد؛ لأننا نريد أن نفهم كيف يكون الحوار من جهة، وكيف نبدأه من جهة أخرى في حركة الدعوة جهاداً من أجل العقيدة والحياة؟

مع المشركين

مع بداية الحركة الإسلامية في الدعوة إلى الله، واجه النبي (ص) موضوع الشرك بالله، كمشكلةٍ مطروحةٍ في ساحة العمل، تمثلت في الأصنام الكثيرة التي يعبدها الناس آنذاك عبادةً متنوعة، في طقوسها وتقاليدها وامتدادها في حياة الناس وفي وعيهم وتفكيرهم... حتى أصبحت قداستها في النفوس شيئاً يشبه الحقيقة المطلقة التي تصل إلى مستوى البديهيات الوجدانية، التي يبادر الوجدان إلى رفض كلّ ما يخالفها ويعارضها دون مناقشة أو تأمّل.

أ ـ حالتهم النفسية

وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة التي صورت لنا الحالة النفسية، التي واجه بها المشركون فكرة التوحيد في مقابل فكرة الشرك:

﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ (ص: ٥ ـ ٧).

فلم تكن القضية ـ في تفكيرهم ـ أمراً يستوجب الردّ والمناقشة، بل هي أمر يبعث

على العجب ليس إلاّ. ولذا فإن الموقف يصيبهم بما يشبه الذعر المفاجيء الذي يقتضي منهم الصمود والصبر، كردّ فعلٍ على ما لم يسمعوا به في الملّة الآخرة، ليقرروا ـ بعد ذلك ـ أنّه مجرّد اختلاق.

ب ـ الشرك والتوحيد في معركة التحدي

وفي ضوء هذا الواقع، كان الشرك يمثل التحدي الكبير لحركة الرسالة في المجتمع، باعتباره العقبة الكبيرة التي تقف بين الرسالة وبين الامتداد في حياة الناس، لأنه لم يكن شيئاً طارئاً في حياتهم، بل هو منهج حياة ونظام مجتمع، وكانت الرسالة تمثّل التحدي الكبير لعقيدة الشرك، باعتبارها العقيدة التي يشكل التوحيد فيها القاعدة الأساسية التي يتحطم عليها كل فكر للشرك، وكل سلوك عملي ينبعث منه... حتى المشاعر الخفية التي يتمثل فيها الإنسان علاقه الآخرين بحياته وارتباطها بهم، إلى جانب علاقة الله بها ورعايته لها؛ وهو ما يطلق عليه الشرك الخفيّ وأحد مظاهره سلوك المرائي الذي يُراقب في عمله الناس كما يراقب فيه الله.

وبدأت المعركة كأقوى ما تكون المعركة، ولم يفتح الإسلام ـ في أسلوب النبي في الحوار وفي الصراع ـ المعركة في الإطار الذي أرادوا أن يفتحوها فيه، لأن الأفق الذي يتحرك فيه التحدي الرسالي للشرك، يختلف عن الأفق الذي يتحرك فيه تحدي الشرك للرسالة؛ ففي الحالة الأولى، تتحرك الرسالة من موقع فكر يرتبط بالحقيقة الواسعة للكون والحياة؛ أمّا في الحالة الثانية، فإن الشرك يتحرك من موقع العادة المرتبطة بالجانب العاطفي من تراث الآباء والأجداد، ومن مركز الإمتيازات الذاتية التي يمنحها للكبراء الذين يسيطرون على النظام.

ومن الطبيعي أن يترك هذا الاختلاف في نوعية التحدي، تأثيره الكبير على الأسلوب الذي يستخدمه كل منهما في حركة الصراع.

ج ـأسلوب العقل أمام أسلوب الإنفعال

فنلاحظ في أساليب الشرك في الصراع، الحركة التشنجية التي لا تملك مجالاً

للمواجهة من موقع الفكر، فتحاول أن تغطي ذلك بالأساليب القلقة من السباب والشتائم وإثارة الإتهامات الظالمة بدون حساب... ثم العمل على حشد الأجواء الانفعالية حول دعاة التوحيد، التي قد تؤدي إلى ممارسة الاضطهاد والتعذيب ضدهم، وغير ذلك مما يلجأ إليه ـ عادةً ـ الطغاة الذين لا يملكون الحجة أمام خصومهم، فيُسخّرون القوّة التي يملكونها لخنق مقاومتهم.

ونلاحظ في أساليب الرسالة ـ في مقابل ذلك ـ ألتحرك الهادىء الذي يفتح قلوب المشركين على كلمة التوحيد فكراً وعملاً، ويفرّغ أذهانهم ـ تدريجياً ـ من كل معاني الشرك ودوافعه في خطة مدروسة حكيمة، تضع لكل موقف خطوطه الواضحة. فقد يحتاج الموقف إلى الصدمات الفكرية التي تجعل الإنسان في موقف تأمّل، يراجع ويحاكم ـ من خلاله ـ عقيدته؛ وقد تمس الحاجة إلى الطريقة التي تجعل الإنسان يواجه موقف السخرية من عقيدته، عندما تنكشف له جوانب الضعف التي تحيط بها من كل جهة.

وهذا هو الطريق الذي سلكه الإسلام على ضوء أساليب القرآن الكريم، التي أطلقها النبي محمد(ص) في حركة الحوار؛ فلم يكن من الممكن أن يسلك غير هذا الطريق، لأنه يتحرك من قاعدة الإحساس المطلق بالثقة بقوّة فكره في مقابل ضعف الآخرين، مما يجعله يدرك أن الموقف الأخير سوف يكون إلى جانب الرسالة. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فإنه لا يهدف من صراعه أن يسجّل على خصومه موقفاً للغلبة في ميدان السباق، بل كل هدفه أن يجعلهم يتحركون معه في الخط الذي يسير عليه ليتحد الموقف والمصير من خلال القناعة الذاتية المنبثقة عن البرهان الواضح والحجّة القويّة، ولذا فإن أساليبه يجب أن تساهم في الوصول إلى هذا الهدف، وإن طال بها المطاف أو تعارضت مع نوازع الإنفعالات النفسية التي تدعو الإنسان إلى السرعة والارتجال.

د ـ ألشرك يفقد دليل الإثبات

وكانت البداية من خلال الموقف ـ المنهج.

فالفكرة التي تحكم الموقف هي التي تملك حجة وبرهان على العقيدة وشاهدٌ من علم.. فهو يطلب من الآخرين كل ذلك في سبيل إثبات موقفهم، كما يطلب ذلك من نفسه في ما يدعو إليه من عقيدة، وفي ما يتبناه من فكر. إنه يبدأ في التحدي من موقع تعرية الموقف الذي يقفونه، من خلال ما يطرحه من علامات الاستفهام التي تطلب منهم الدليل على ما يعتقدون، ولكنه ليس استفهاماً يطلب المعرفة، كما يكون عليه الإستفهام الحقيقي الذي هو تعبير عن طلب الفهم ـ في ما يقوله علماء اللغة العربية ـ بل هو استفهام إنكاري، يطرح النفي بأسلوب الاستفهام الذي يُنكرعلى المخاطبين ثبوت ما يدّعونه.

وهذا ما تعبِّر عنه الآيات الكريمة التالية:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

﴿ . . . قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

إنه يطرح القضية من خلال بديهيّاتها العاديّة. فإذا كان هؤلاء الذين تدعون من دون الله آلهة، فلا بدّ للإله من القيام بعمليّات الخلق، وإلا فما معنى أن يكون إلهاً، فأين مخلوقاته في الأرض، وأين مخلوقاته في السماء؟ فإذا كان الجواب سلباً فأين الدعوى، وإذا كان إيجاباً فأين الدليل من كتاب نقرؤه، ومن علم نتعلمه ونفكر فيه؟ ولكن الواقع يفرض نفسه عليهم، فهم لا يستطيعون أن يقدّموا لنا كتاباً أو أثارةً من علم، فماذا يبقى بعد ذلك؟ إنه الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، والتخرصات التي لا يثبت بها شيء، لأنها لا تستند إلى شيء.

هـ ـ التوحيد يثبت استحالة الشرك

ثم يتطور الموقف في الحوار إلى تأكيد فكرة الإسلام في التوحيد، ورفض الشك من

قاعدة التفكير العقلي والمحاكمة المنطقية ليتكامل الحوار في الحالتين من القاعدتين الفلسفيتين المعروفتين في الفكر الفلسفي للنفي، وهما: أن عدم الدليل على الشيء يعني أن لا مجال إلى إثباته، والدليل على العدم، يجعل النفي حتمية عقلية، إنه ـ في هذا الأسلوب ـ يقيم الدليل على استحالة فكرة الشرك، من حيث هي فكرة مجرّدة ـ بقطع النظر عن طبيعة الناس الذين يعتقدونها، وطبيعة المبررات التي ينطلقون منها في العقيدة.

قال تعالى:

١ ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢)..

٢ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢)..

٣ ـ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

إن تعدد الآلهة يفترض القدرة المطلقة لكل منها، لأن ذلك من أخص صفات الآلهية. وذلك يوجب صحة الفرضية القرآنية، إذ قد يريد كلّ منها غير ما يريده الآخر، فيقع التنازع الذي يؤدي إلى الفساد الكوني. ولكن الواقع يرفض ذلك إذ لا فساد في نظام الكون أو في مسيرته، فيجب أن نرفض فكرة التعدد.

وتنطلق الآية الثانية، في رفض الفكرة، من طرح القضية في اتجاه آخر، وهي أن وجود الآلهة الآخرين يقتضي أن يملكوا القدرة على مغالبة ذي العرش والوصول إليه، لأن الإشتراك في الآلهية يوجب الاشتراك في صفات الذات.. وفي مقدمتها القدرة المطلقة، مما يجعل لهم القدرة على الوصول إليه ومنازعته سلطانه؛ ولكن هذا غير وارد، لأنه لا أثر له في الكون.

أما الآية الثالثة، فإنها تبين إتجاه الآيتين السابقتين، وتضيف إلى ذلك فكرة التقسيم

في الكون الذي يقتضي اختصاص كل بما خلقه، وعدم مشاركة الآخر له في ذلك.. مع أن هذا غير وارد من حيث الواقع إذ أننا نجد الخلق بأجمعهم يسيرون في نظام واحد لا اختلاف فيه ولا خلل.

و ـ المتكلمون يفلسفون الدليل

ويحاول المتكلمون ـ كعادتهم ـ أن ينطلقوا، في هذه الآيات، انطلاقة فلسفية تضع أمامنا ـ من خلال الآية ـ دليلاً فلسفياً أطلقوا عليه اسم (دليل التمانع).

وخلاصته ـ في ما ينقله لنا صاحب مجمع البيان في تفسير الآية الأولى ـ:

(إنه لو كان مع الله سبحانه إلهٌ آخر لكانا قديمين. والقِدم من أخص الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادريْن عالمين حيين، ومن حق كل قادريْن أن يصح كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من إماتةٍ أو إحياءٍ أو تحريك أو تسكين أو إفقار أو إغناء ونحو ذلك... فإذا فرضنا ذلك، فلا يخلو إما أن يحصل مرادهما وذلك محال، وإما أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وإما أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده ـ من غير وجه منعٍ معقول ـ قادراً.. فإذن لا يجوز أن يكون الإله إلاّ إلهاً واحداً.

ولو قيل أنهما لا يتمانعان، لأن ما يريده أحدهما يكون حكمةً فيريده الآخر بعينه، فالجواب عنه: إن كلامنا في صحة التمانع، لا في وقوع التمانع،وصحة التمانع يكفي في الدلالة لأنه يدل على أنه لابد من أن يكون أحدهما متناهي القدرة فلا يجوز أن يكون إلهاً)[١] .

أما تعليقنا على ذلك فهو، إن من الممكن أن تكون هذه الآيات الثلاثة، أو الآية الأولى بشكل خاص، ناظرة إلى ما ذكره المتكلمون. ولكن القرآن الكريم يتجه في أدلته ـ حتى العقلية منها ـ إلى الأدلة التي ترتبط بالفكرة، بعيداً عن كل الاصطلاحات أو المناورات

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج٧ ص: ٤٣ ـ ٤٤.

الفلسفية. وفي ضوء ذلك، فإننا نجد في هذه الآية الكريمة تقريراً لحقيقة طبيعية، تفرضها قضية تعدد القوى وتعدد السلطات في المجال الواحد، تماماً، كما هو الحال في القوى الموجودة في الحياة، عندما يملك كل منهما القوّة المطلقة والكيان المستقل في الفكر والإدارة والحركة، مما يؤدي إلى الاختلاف، فالتنازع، فالفساد، فالغلبة، فالاستقلال في ما يختص به.. إلى غير ذلك من نتائج التعدد.

ومهما كانت القضية.. فإن هذا الأسلوب الذي تقرره هذه الآية يسير في اتجاه إعطاء الجواب للمشركين، في ما يطرحونه من عقيدة الشرك في مجالات الحوار، من موقع إقامة الدليل على الرفض، من دون أن يكتفي بالاتجاه السلبي من ذلك وهو عدم قيام الدليل على الفكرة، لأن البقاء في الجانب السلبي لا ينفي إمكانية الفكرة، بل ينفي وجود الدليل على وقوعها، انطلاقاً من الفكرة العقلية القائلة: إن عدم الدليل لا يدل على العدم، فإذا كان الآخرون بحاجة إلى الدليل على الإثبات، فإنك بحاجة إلى الدليل على النفي.

ز ـ الشرك في إطار الواقع

وهذا أسلوب جديد، يصوره لنا القرآن الكريم في طريقة الحوار التي أراد للنبي محمد (ص) أن يتبعها مع المشركين، يتميز باعتماد الجانب العقلي فيه ـ إذا صح التعبير ـ فهو يرتكز على رفض ألوهيتهم ـ في البداية ـ من خلال تجريدها من صفة الألوهية المتمثلة في الخلق والقدرة المطلقة والأزلية، وغير ذلك.. ثم يضيف إلى ذلك الإمعان في تجريدهم من كل الصفات التي توحي للإنسان بأيّ نوع من أنواع الإحترام، مما يضعهم موضع السخرية في إطار الكيان الذاتي، فضلاً عن مركز الألوهية العظيم.

ويتمثل هذا الأسلوب في الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ

صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ (الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٥).

٢ ـ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٣)..

فإننا نلاحظ ـ في البداية ـ نفي الخالقية والأزلية ونفي القدرة حتى على نصر الذات، في ما يواجهها من ضرر أو موت أو حياة أو نشور، وعدم الإحساس مع فقدانها لكل أدوات القدرة والقوّة والإحساس، حتى في نطاق الكائنات الأرضية.. إنها الصورة الحية التي لا توحي إلا بالسخرية والمهانة فكيف يمكن أن ترقى إلى مستوى الآلهة التي تُعبد؟

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

إننا نواجه في هذه الآية الكريمة الإيحاء العميق بالعجز المطلق، أمام أصغر المخلوقات وأحقرها، في أروع صورة تتجسد فيها عناصرالسخرية بفكرة ألوهية هؤلاء الذي يعبدونهم من دون الله.. وأيّ صورة أبلغ من أن تتصور الآلهة ـ بكل ما تعطيه صفة الألوهية من قوة ـ ثم تضع إلى جانب هذه الصورة صورتين، إحداهما: صورة اجتماع الآلهة على خلق ذبابة، فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا، بالرغم مما يبذلونه من طاقة في هذا السبيل، ثانيهما: صورة الذباب في كل ما يجسده هذا المخلوق الصغير من معاني الضعف والحقارة، من حيث الحجم والقدرة الجسمية، وقد اندفع إلى هؤلاء الآلهة الكبار، ليسلبهم شيئاً ـ أيّ شيء ـ.. وهنا يطير الآلهة أو يركضون خلفه، ويلهثون لاسترجاع ما أخذه ولاستنقاذ ما سلبه، فلا يسترجعونه منه ولا يستقذونه من براثنه

ـ إن كان للذباب براثن ـ إنه الأسلوب الذي يجرّد هؤلاء من صفات الألوهية من جهة، ويعرّضهم للسخريّة والاستهزاء من جهة أخرى.. مما يؤدي إلى التأثيرعلى موقف الذين اعتقدوا بهم وعبدوهم من دون الله، عندما يجدون أنفسهم في حالة لا يحسدون عليها، لأنها لا ترتكز على أساس ولا توحي بالإحترام، إن لم توح بخلافه من إستهزاء وسخرية واحتقار.

تلك هي بعض النماذج القرآنية للأسلوب الذي اتبعه النبي (ص) مع المشركين في حواره معهم، انسجاماً مع الواقع البشري في مواجهة ما يؤمن به، أو ما يؤمن به الآخرون.. وقد دللت مسيرة الإسلام وحركته في مجتمع الشرك على نجاح هذه الأساليب من خلال التجربة الحيّة. كما أنها ليست بعيدة عن المجالات الأخرى للعقيدة والسلوك في صراع الأفكار كلها من أجل الحياة.

مع الملحدين

واجه الإسلام ـ بعد ذلك ـ قصة الإلحاد ـ ولكن بشكل أقل امتداداً وانتشاراً من موضوع الشرك في مجتمع الرسالة، ولهذا نلاحظ ـ في المعالجة القرآنية له ـ أنّ الحملة التي واجه فيها فكرة الإلحاد كانت أكثر هدوءاً من حملته التي واجه فيها فكرة الشرك، لأن المواجهة ـ هناك ـ في الشرك ـ ضد فكرة تقابل فكرة، وواقع يمتد ـ من خلال هذه الفكرة ـ ليجابه الواقع الذي يريد الإسلام أن يفرضه في المجتمع.

أما هنا ـ في الإلحاد ـ فالقضية في ذلك المجتمع قضية فكرة تواجه فكرة، دون أن يكون لها إمتداد مباشر في المجتمع الذي وُلدت فيه الرسالة، وإن كان لها إمتداد في مجتمعات أخرى، من جهة، وإنعكاس على المجتمع الجديد من جهة أخرى. لأن المشركين لم يتنكروا لفكرة وجود الله، بل كانوا يشركون غيره بعبادته، دون أن يشعروا بأن أولئك الشركاء في مستوى الله قيمةً وعظمةً، بل كان شعورهم أن قيمة هؤلاء كانت في قربهم إلى الله، بالشكل الذي لا يصل إليه أحدٌ في الحياة.. ولهذا كانت عبادتهم لهم، ليكونوا وسطاء وشفعاء يقربون الناس إلى الله، وكانت القرابين التي يقدمونها لهم من أجل الحصول على رضاهم وهذا ما تعبِّر عنه الآية الكريمةالتي يشرح فيها هؤلاء مبررات عبادتهم لتلك الأصنام:

﴿. . . مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ. . . ﴾ (الزمر: ٣).

ولهذا حاول القرآن ـ كما رأينا في ما تقدم من حديث ـ أن يجرّد هؤلاء من كل صفة ذاتية أو غير ذاتية، تجعل منهم أشياء محترمة في أنفسها ـ على الأقل ـ فضلاً عن بلوغها مستوى الوجود الأقرب والأفضل إلى الله سبحانه وتعالى، كما ألمحنا إليه في الأسلوب الذي يجمع بين مناقشة الفكرة من جهة والسخرية منها من جهة أخرى.

إرتباط فكرة الإيمان بالله بفكرة التوحيد

ولكن هذا لا يمنع من أن يكون لفكرة الإشراك بالله إرتباط بفكرة وجود الله، باعتبار أنها ترتبط بالتصور الصحيح لفكرة الألوهية التي تضع العقيدة في إطارها الطبيعي، لأنه لا قيمة لمجرد الفكرة، بعيداً عن الصفات الأساسية التي تخرجها في صورتها الحقيقية. ولهذا نلاحظ أن قسماً كبيراً من المناقشات المطروحة في القرآن الكريم، استهدفت تصحيح فكرة الألوهية في وعيهم العقائدي؛ فإنه عندما كان يصف الشركاء بأنهم لايخلقون شيئا وهم يُخلقون، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاًولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولانشورا، كان ينكر عليهم التصور المنحرف الذي كان يتقبل هذا الإعتقاد بالله، ليوحي لهم بأن قضية الأزلية والخلق والقدرة المطلقة والغنى المطلق، هي من أبرز صفات الإله، وبذلك نستطيع اعتبارها مقياساً لصحة أيّة فرضية للألوهية وفسادها.

ومن هنا نعتبر الفصل السابق ـ مع المشركين ـ مرتبطاً بهذا الفصل، في هذا الجانب من العقيدة.

القرآن يرسم المنهج للحوار

قلنا ـ في بداية الحديث ـ في هذا الفصل: إن الحوار الذي أداره القرآن الكريم، في قضية إثبات وجود الله ورفض فكرة الإلحاد، كان يسير بشكل أكثر هدوءاً من الحوار الذي أداره في قضية التوحيد.

وفي ضوء هذه الفكرة، نلاحظ أن القرآن الكريم بدأ في رسم الصورة من خلال المنهج الجديد الذي يريد أن يدفعه إلى تفكير المجتمع وطريقته في مواجهة القضايا فابتدأ بالدعوة إلى التفكير في الكون كله، بما فيه من ظواهر ومخلوقات، من أجل البحث عن أسراره وعن القوانين الطبيعية، التي تحكمه وتوجهه في حركته. وأراد من الإنسان أن يرجع إلى صفاء فطرته وهو يتعامل، وإلى هدوء عقله وهو يفكر.. لأن الفطرة الصافية والعقل الهادىء، إذا انطلقا في كيان الإنسان المنفتح على كتاب الكون المفتوح الذي يقرأ فيه ببصره وبصيرته، استطاعا أن يقوداه إلى النتيجة الحاسمة، وهي أنه لا بد للكون من مدبر حكيم قدير.

ولهذا نجد القرآن الكريم وثيقة حية شاملة لكل ما في الكون من ظواهر وموجودات وأوضاع تحكم سير الإنسان وسير الحياة، باعتبارها مادة حية للتفكير الذي يؤدي - بأقرب طريق - إلى الإيمان بوجود الله.

ونلاحظ - في هذا الجانب - أن القرآن الكريم لا يقتصر على دعوة الإنسان للتفكير في ذلك كله، بل يحاول أن يطرح أمامه الخطوات الأولى في هذا السبيل ويدلّه على بدايات الطريق.

الكون كتاب الإيمان

والآن نحن - في خطى هذه الفكرة - مع الآيات القرآنية التي طرحت أمامنا أسلوب الحوار وجهاً لوجه:

١ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩).

٣ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٢ ـ ٤).

وهكذا نشعر بالحياة، بكل مظاهرها العظيمة وجمالها الرائع، تتحرك أمام نظرك، لتعيش في وعيك وفكرك، من خلال قصة الوجود الأولى التي تتجدد باستمرار وتتحرك بحيوية، لتخاطب وجدانك وعقلك وفكرك بأنها ظلال للقدرة المطلقة التي تدلك على من خلقها وأوجدها، وأعطاها كلّ هذه العظمة وكلّ هذا السحر والجمال. وهكذا تلتقي العظمة والسحر والجمال في الوجود في شهادة سرّ الخلق وعظمة الخالق إنه الأسلوب الرائع الذي يربي لك ـ وأنت في رحلة المعرفة ـ حسك الوجداني بالروعة، وذوقك المرهف بالجمال، وعقلك الواعي بالأسرار الكبيرة التي تعيش في نطاق الكون الكبير.

... وتنطلق الآيات ـ في صورة أخرى ـ لتوجه النظر إلى كل هذا في أسلوب مباشر:

١ ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١١٠).

٢ ـ ﴿ . . . وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا . . . ﴾ (آل عمران: ١٩١).

٣ ـ ﴿ . . . وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . . . ﴾ (الذاريات: ٢١). .

إنها الدعوة الواثقة بالحقيقة الكامنة في كل ما في السموات، وفي كل ما في الأرض،التي لا تتطلب من الإنسان إلا أن ينظر ويتطلع ويفكر، من دون حاجة إلى جهد كبير أو أخذ وردّ.

وهي ـ في الوقت ذاته ـ دعوة إلى الإنطلاق في حركة الفكر نحو التعرف على أسرار الكون والإطلاع على القوانين الطبيعية المودعة فيه، من أجل اكتشاف الطريقة التي يستطيع الإنسان التعامل بها مع هذه القوانين من أجل الإستفادة منها في مجالات الحياة المتحركة في أكثر من إتجاه.

طريق العلم يلتقي بطريق الدين

وبهذا يمكننا أن نقرِّر: أن طريق العلم ـ في الإسلام ـ يمر بطريق الدين، على أساس الفكرة التي تطلقها هذه الآيات لتجعل من قضية الإيمان بالله، حافزاً للإنسان على اكتشاف الخالق من خلال اكتشافه لعظمة خلقه، كما أن العكس هو الصحيح، وهو أن طريق الدين يمر بطريق العلم، لأن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد معرفة بالله، وكلماً ازدادت معرفته بالله ازداد تدينه وخشيته من الله وامتثاله لأوامره وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة:

﴿ . . . إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ . . . ﴾ (فاطر: ٢٨).

أدلة الإيمان تمر بالحياة لا بالفلسفة

ونلاحظ ـ في هذا الجانب ـ الذي تتحرّك فيه الآيات في أسلوب الحوار في إثبات وجود الله من خلال ظواهر الكون وأسرار الطبيعة: إن القرآن الكريم ـ في حديثه عن الإيمان بوجود الله ـ لا يتحدّث عنه بالطريقة الفلسفية المجردة التي تجعل من الفكرة شيئاً تجريدياً، يرقد في الفكر بأسلوب عقليّ جاف لا تشعر بأي أثر للحياة فيه، بل يحاول أن يتحدث عنه من خلال حركة الحياةالتي تشير إليه ـ وهو يرعى الحياة ويخلقها وينميها ويجددها ويحييها ـ وتدعو الإنسان ـ على هدى ذلك ـ إلى شكره وعبادته وإلى التعرف عليه من خلال حاجة الإنسان إلى شكر النعم وعبادة المنعم، حيث تكون المعرفة بالله غايةً في نفسها ووسيلة إلى الشكر والعبادة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يشكر أو يعبد من لا يعرف فهذا الكون وما فيه من عظمة، هو دليلٌ على وجود الله من جهة، ونعمةٌ للإنسان من جهة أخرى ينبغي للإنسان أن يشكرها.

ولعل قيمة هذا الأسلوب أنه يجعل العقيدة تتحرك مع حركة الحياة اليومية ومع الكون الواسع الكبير الذي يحيط بالإنسان، ويدفع حياته إلى النمو والتجدد والاستمرار، فلا يشعر الداعية في حواره مع الآخرين أنه ينفصل عن الحياة وهو يتحدث، ولا يشعر الآخرون أنهم يغرقون في ضباب الأفكار التجريدية، وهم ينطلقون في معرفة الله وبهذا تكون قضية المعرفة بالله والإيمان بوجوده قضية الحياة بكل ما فيها من قوّة وحيوية واستمرار، وليست قضية الخيال الذي يفتِّش عن موطئ قدم له في عالم الواقع.

وتواجهنا ـ في هذا الأسلوب ـ آيات كثيرة نختار بعضاً منها، كَمَثَلٍ حيٍّ على ذلك:

١ ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

٢ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا

سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٢).

٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٤٥ ـ ٤٩).

إننا نشعر ـ ونحن نقرأ هذه الآيات ـ أن حياتنا التي نعيشها منذ بدأنا رحلتها إلى أن اكتملت نشأتها، نأكل ونشرب ونتحرك، ونواجه حاجاتنا الطبيعية التي سخّر الله لنا قوى الكون، لتلبيتها ونحس ـ بعمق ـ كيف يكون وجود الله في حياتنا، قضية تتصل بسرّ الحياة الذي لا نستطيع الإنفصال عنه ولو لحظة، لأن ذلك يعني الانفصال عن معنى الوجود، الذي يتحول إلى فرضية تبحث عن أساس لها بين آلاف الاحتمالات.

وهكذا نجد، في هذه النماذج وغيرها، كيف يمكن للداعية المسلم أن يفيض في الحديث عن ظواهر الحياة ـ وهو يتحدث عن أي شيء يتصل بها ـ حتى إذا استطاع أن يشد أفكار الآخرين واهتمامهم إلى ذلك، أطلق الفكرة الإلهية كفكرة تبرّر ذلك كله، وتعطيه المعنى المعقول في عملية توعية وإيمان.

ويتعاظم هذا الدور في الوسط العلمي الذي يهتم بعلوم النبات والحيوان والفيزياء والكيمياء، فإن من الممكن أن يجد في هذا الوسط الميدان الرحب الذي يجول ويصول فيه بالأسرار الكامنة في كل هذه العلوم التي تمتد في جذورها لتصل إلى المعرفة الحقّة بالله سبحانه وتعالى.

الطريقة العقلية تؤدي إلى الإيمان

حاول القرآن الكريم، في أسلوب الحوار من أجل الإيمان بالله، أن يطرح الفكرة

المضادة إلى جانب فكرة الإيمان بالله في نطاق الطريقة العقلية في التفكير التي تطرح الفروض المحتملة، ثم تبدأ عملية النفي والإثبات؛ لتكون النتيجة في مصلحة الغرض الأخير الذي يثبت أمام النقد. وذلك ما تجسّده لنا الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

إن الموضوع ـ في القضية ـ لا يخلو من فروض ثلاثة.

١ ـ أن لا يكون هناك خالق.

٢ ـ أن يكون الخالق هو نفس المخلوق.

٣ ـ أن يكون الله هو الخالق.

ونلاحظ أن الآية تطرح الفرضين في أسلوب الإستفهام الإنكاري، الذي يعني رفض الفكرة التي يدور الإستفهام حولها. فالفكرة الأولى مستحيلة، لأن فرض الحدوث وعدم وجود أساس لحتمية الوجود، لتكون من قبيل واجب الوجود، يفرض وجود القوة الخالقة التي تبرّر له وجوده ما دام فرض الوجود والعدم فيه متساويين، مما يجعل من الضروري في عملية الوجود أن نبحث لها عن علّة خارج الذات.

أما الفرض الثاني فهو مستحيل أيضاً لأن خلق الإنسان نفسه يفرض كونه سابقاً لنفسه في الوجود، فيلزم أن يكون الشيء موجوداً في حال عدمه وهو فرض غير معقول، لأن الموجود لا يمكن فرضه معدوماً في حال وجوده، وبالعكس لأنه تناقض مستحيل، فيثبت الفرض الثالث، على أساس هذه المحاكمة العقلية، وهو أن يكون الله هو خالق الإنسان.

ويتنوع الأسلوب في آيات أخرى، فنجد القضية تعيش بين افتراضين: الأوّل أن يكون الخالق هو الله، والثاني أن يكون الإنسان؛ لأن الفرض الثالث الذي ينفي عملية الخلق ليثبت الأزلية، لا معنى له في ممكن الوجود وهذا ما تصوره لنا الآيات الكريمة التالية في قوله تعالى:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ (الواقعة: ٥٧ ـ ٧٢).

ونلاحظ في هذه الآيات، أن الموضوع الذي يدور عليه الحوار ليس هو الإنسان وخلقه، بل هو الظواهر التي تعيش في حياته، إبتداءً من النطفة التي هي المرحلة الأولى في عملية الخلق، إلى الموت والحياة، إلى الزرع الذي نزرعه، والماء الذي نشربه، والنار التي نوقدها.

من الذي أوجد ذلك هل هو الإنسان، أم الله؟

وهنا تحاول الآيات الكريمة أن تركّز على عجز الإنسان عن حماية هذه الأشياء من الطوارىء والحوادث، أو العمل على استمرارها؛ بينما تظل في النظام الدقيق الذي يحكمها بعيداً عن إرادة الإنسان واختياره في بدايتها وحركتها ونهايتها، مما يجعلنا نخضع للفكرة التي يفرضها الإيمان من أن الخالق لها هو خالق الإنسان، إنه هو الذي يملك القدرة المطلقة في ذلك كله.

ونود ـ في نهاية الحديث في هذا الموضوع ـ القول إنّ من الممكن أن تكون هذه الآيات خاضعة للمنهج الذي يريد إرجاع الإنسان إلى فطرته وإحساسه الداخلي، باعتبار أن النتيجة التي تحاول الوصول إليها تخضع للوجدان الصافي والإحساس الذاتي المجرَّد، من دون حاجة إلى التحليلات الفلسفية التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث، لأن قصة النفي والإثبات ـ في هذا الموضوع ـ وجدانيةٌ فطرية، كما يلاحظها كل من رجع إلى فطرته ووجدانه.

مع المنكرين للمعاد

واجه الإسلام - مع فكرة البعث واليوم الآخر - تحديات وقفت لتنكرها وتسخر منها وتعتبرها أسطورة لا تتصل بالحقيقة من قريب أو من بعيد.

ولم يكن لأصحاب هذه التحديات من حجّة على ذلك، إلا الظن والإستبعاد؛ فهم يستبعدون الفكرة من خلال استبعاد أن يتحول الجماد إلى حياة. فكيف يمكن لهذه الذرات الترابية التي يتحول الإنسان إليها بعد أن يموت أن تتحول - من جديد - إلى إنسان ينبض بالحياة ويأخذ صورته التي كانت له؛ كيف يمكن لها أن تتحول إلى حياة وهي تفقد كل عنصر من عناصرها؟

ويبدأ الأسلوب القرآني يتجه إلى عدة ألوان من تقريب الفكرة إلى الأذهان، ليرفع الاستبعاد من جهة، وليركز الفكرة على قاعدة أساسية من جهة أخرى.

ألطريقة العقلية

ونلتقي الطريقة العقلية في الحوار التالي، الذي يديره القرآن مع هؤلاء الذين يدّعون استحالة المعاد، في قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٧٨ ـ ٨٢).

٢ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ (مريم: ٦٦ ـ ٦٧).

إنها الفكرة الواضحة وضوح الحياة، فإذا كان التفكير بالإستحالة نابعاً من التصور الساذج الذي يعجب للحياة كيف تنطلق من التراب، الذي لا يملك أي مظهر للحياة، فإن فإمكاننا أن نثبت له إمكان ذلك من ظاهرة بداية الحياة لنتساءل كيف أمكن للنطفة التي ترجع في بدايتها إلى التراب، أن تتحوَّل إلى وجود إنساني كامل؟ ولنا أن نقول في الجواب: إن القدرة التي ولَّدت النطفة من التراب، ثم ولَّدت الإنسان من النطفة، هي التي تعطي التراب سرَّ الحياة، ليتحوَّل إلى إنسان كامل من جديد. فإن القدرة على الانتقال من العدم إلى الوجود في البداية، تستلزم القدرة على ذلك في النهاية، لأن أساس الإمكان والإستحالة فيهما واحد لا يختلف ولا يتعدَّد.

الطريقة الحسية

وكانت الطريقة الحسيَّة التي تحاول أن تضع الفكرة مع مثيلاتها في الحياة، من خلال حركة التجدّد والتحول في خلق الإنسان وفي خلق النبات؛ مما يقرب الفكرة ليجعلها شيئاً مألوفاً للإنسان، لقربه من المشاهدات الحسيَّة التي تتكرَّر أمامه في كل وقت وهذا ما نلمحه في الآيات الكريمة التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ

﴿مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج: ٥ ـ ٧).

إنها المحاولة الواقعية التي تريد أن تجعل من قصة المعاد نظاماً للحياة، يتمثّل في المراحل التي يقطعها وجود الإنسان في بداية وجوده، حيث ينتقل في كل مرحلة من العدم إلى الوجود، ويتجسَّد في خلق النبات الذي لا يموت، إلا ليعود من جديد في عملية بعث الحياة في البذور المتناثرة في الأرض كمثل التراب.

المعاد في إطار قدرة الله

وكان الأسلوب الثالث يسير في اتجاه التأكيد على عظمة الله وقدرته التي لا تقف عند حد؛ الأمر الذي يجعل من موضوع الإستبعاد والتفكير بالإستحالة شيئاً لا معنى له ، فما دامت قدرة الله متمثّلة في كل هذا الوجود، فما الذي يمنعها من أن تتجسَّد في إعادته من جديد، من دون أن يكون هناك ما يمنع من إعمال القدرة في النهاية، كما لم يكن هناك ما يمنع من إعمالها في البداية؟ كما أن موضوع البحث ليس بأعظم من خلق السماوات والأرض وغيره من مظاهر العظمة في الخلق. وهذا ما نجده في هذه النماذج من الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨١ ـ ٨٩)

٢ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

٣ ـ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨١ ـ ٨٢).

فقد لاحظنا في هذه الآيات أنها لم تحاول مناقشة تفكير المنكرين للمعاد، على أساس الإستبعاد بصورة مباشرة، بل حاولت إثارة علامات الإستفهام أمامهم حول ما يحيط بهم من السماء والأرض وما فيها. لمن كل هذا، وَمَنْ الذي خلقه، وَمَنْ الذي بيده ملكوت كل شيء؟ لتوجههم إلى عظمة القدرة في ذلك كله، ولتقودهم بعد ذلك إلى الإعتراف بالله، الذي خلق كل هذا وبيده كل هذا. ليعترفوا بقناعة واعية، بأن القادر على خلق الكون كله، لا يصعب عليه أن يبعث الحياة في التراب ليكون إنساناً من جديد.

إنه الأسلوب الذي ينطلق من الحكمة الرائعة عندما يُفاجىء الخصم بالحقيقة التي ينكرها، وهي تتحداه، من خلال قناعاته الذاتية التي تحيط به من كل جانب؛ دون أن يستطيع منها فكاكاً، أو يجد للهروب منها سبيلاً.

المعاد في إطار حكمة الله

ثم يتجه الحوار في اتجاه يبتعد عن موضوع الإمكان والإستحالة والقدرة وعدمها، لينطلق بالفكرة في إطار الحكمة من الوجود، وليعتبر أن إنكار المعاد مساوٍ لفكرة العبث في الخلق، مما يستحيل نسبته إلى الله سبحانه وذلك في قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

فإن التكليف والمسؤولية يستتبع مواجهة الإنسان نتائج المسؤولية، إذ بدون ذلك يتحول الموضوع إلى عَبَث ولغو، لا ينسجم مع عظمة الله وحكمته وكماله.

الظن هو أساس الإنكار

ويرجع الحوار إلى الفكرة التي قررناها في بداية الحديث، وهو ارتباط إنكارهم، الذي يواجهون به هذه الفكرة، بالظنون التي لا ترجع إلى أساس، والتخرّصات التي لا ترتكز على دليل؛ وهذا ما تصوِّره لنا الآيتان الكريمتان في قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (الجاثية: ٢٤ ـ ٢٥).

وهكذا نجد النبي (ص) ينطلق ـ من خلال القرآن الكريم ـ على قاعدة اعتبار البرهان على الفكرة سلباً وإيجاباً أساساً لرفضها أو قبولها، ثم محاولة تحريك الفكر الإنساني للبحث في التفاصيل للإحاطة بكل جوانب الموضوع. فإذا أدّى الحوار إلى نتيجة حاسمة يكون قد حقق الهدف منه، وإلا فالموقف الحكيم ـ في إطار الإيمان ـ هو إفساح المجال أمام كل فكرة لي تمارس حريتها في الحركة، ما لم تؤدِّ تلك الحركة إلى الإخلال بالنظام. إن الإسلام يمد يده إلى مخالفيه في الرأي، ليحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

مع المنكرين للنبوة

ظاهرة غير عادية

كانت النبُّوات ـ في كل عهد انطلقت فيه ـ موضع نقاش في المجتمع الذي تعيش فيه، باعتبارها حَدَثاً غير عادي في حياة الناس، لأنها ليست مجرد دعوة تغييرية تتحرك على أساس بشري، تخضع لما يخضع له البشر ـ عادة ـ من إمكانات وطاقات وقوّة وضعف.. بل هي دعوة تتميز بارتباطها بما وراء هذا العالم، من خلال الوحي بوصفه ظاهرة غير عادية، تمثل الإتصال غير المنظور بالقوى غير المنظورة البعيدة التي تنتمي إلى عالم آخر يختلف عن عالمنا هذا في شكله وفي طبيعته، وهي لذلك لا تخضع لأيّ ضعف في الصدق والصواب والانسجام مع المصلحة الأساسية للحياة، لأنها من الله العالم بما يصلحهم وما يفسدهم.

وقد شاركت هذه الصفة، التي تتميَّز بها النبُّوات عن الدعوات الأخرى، في إثارة العديد من علامات الإستفهام التي اتخذت لنفسها طابعاً جدلياً عنيفاً، لم يقتصر على الكلمات التي أُثيرت في هذا السبيل، بل امتد إلى المواقف العملية، التي تحوّلت إلى رفضٍ حاسمٍ للأشخاص الذين تتجسَّد فيهم فكرة النبوّة وتتحرك معهم.

ففي البداية، كان السؤال الذي أُثير مع أكثر الأنبياء حول شخصية النبي، من

خلال تصوّر الناس لما يجب أن تكون عليه هذه الشخصية. فإذا كانت النبوّة حدثاً غير عادي فيجب أن تتجسّد في شخص غير عادي؛ ولهذا فإن من الضروري أن لا يكون النبي بشراً، ما دامت النبوّة مرتبطة بغير عالم البشر، وما دامت طرق الإتصال غير بشريّة.

ومن هنا وُلدت فكرة رفض تصديق الأنبياء، لأنهم بشر مثلهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق؛ فلا ينسجم ذلك مع التصوّر العام للنبي الذي يجب أن يكون ملكاً من السماء ليصلح لحمل رسالة السماء.

وينطلق ـ بعد ذلك ـ سؤال ثانٍ في هذا المجال، فقد نتقبّل فكرة النبي ـ البشر، ولكن لا بد أن يكون إنساناً غير عادي، يتميّز بقوى خارقة تحمل ظلال الألوهية في قدراتها. وإن لم تكن لها هذه الصفة، لأن اتصالها المباشر بالله وحملها الرسالة منه بطريق الوحي يفرض ذلك كله.

علامات استفهام

وفي ضوء ذلك، كانت علامات الاستفهام تتكاثر حول الأنبياء الذين لا يتميّزون عن الناس العاديين بشيء في قدراتهم وأوضاعهم العملية في الحياة، فلا نجدهم يستجيبون لأيّ اقتراح من الاقتراحات التي تُطلب منهم في القيام ببعض الأعمال، أو إيجاد بعض الظواهر الخارقة في الحياة.

أمّا رسالة الإسلام، فقد جابهت ـ إلى جانب علامات الإستفهام هذه ـ في شخصية النبي محمد (ص) علامات استفهام من نوع آخر؛ كانت تتحدى ما جاء به، وما لم تستطع أن تجابهه بالمنطق والمعرفة الواعية الهادئة، بأنه سحر. ولهذا أعطت النبي صفة الساحر الذي يتخذ لنفسه صفة الشاعر، ويجمع أساطير الأولين التي اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا.. وتحولت القضية في تفاعلٍ مريرٍ حاقد إلى ما يشبه التشنجات الانفعالية، فكان الوصف بالجنون أحد الأشياء التي تعرّضتْ لها شخصية الرسالة في شخص الرسول.

ونحن لا ندعي اختصاص هذه الصفات بنبي الإسلام، لأن القرآن قد أشار في

بعض الآيات إلى أن الأنبياء - بشكل عام - قد حوربوا باتهامهم بالجنون، كما جاء في قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ (الذاريات: ٥٢).

ولكننا نقول إن هذه الأمور كانت بارزة في موقف أعداء الإسلام من الرسول.

تصحيح الافكار

وقد واجه الرسول هذا كله بأسلوب رسالي هادئ، ينطلق من الثقة العميقة بنفسه وبرسالته، ومن الفهم الواعي للظروف وللدوافع وللتصورات التي شاركت في ولادة علامات الإستفهام الرافضة، التي واجهت رسالته وأساءت إلى شخصه. فقد كان للتصور المنحرف لمعنى النبوّة وللعوامل الاجتماعية والذاتية التي كانت تقود خطى المعاندين نحو معاندة الحق الذي أطلقه ولغير ذلك، الأثر الكبير في هذا كله.

وعلى هُدى ذلك، بدأ الحوار معهم من أجل تصحيح المفهوم الخاطئ الذي يحملونه عن النبوة ودورها في الحياة، وعن شخصية النبي وطاقاته، ثم عمل بنفس الهدوء على تصحيح أفكارهم الخاطئة، عن طبيعة رسالته، وعن صفة القرآن، وعن الصفات التي يلصقونها بشخصه، تحت تأثير الإنفعالات المتباينة التي ولّدها الجو المحموم للمعارضة.

أما الفكرة الأولى التي تتحدث عن العلاقة بين النبوّة والبشرية، فقد أدارها النبي محمد (ص) - كما صورها الله في القرآن الكريم - في أسلوبين:

الأسلوب الأول: محاولة عرض الفكرة من خلال تاريخ النبوّات، وكيف كان الحوار يدور في حياة الأنبياء السابقين مع خصوم الرسالات.

الأسلوب الثاني: محاولة إدارة الحوار - بشكل مستقل - حول الفكرة التي تتحدى النبوّة من خلال هذا التصوّر المنحرف عن شخصه.

ونواجه - في الأسلوب الأول - الآيات التي تتحدث عن الأنبياء السابقين، الذين كانوا

محل احترام لدى المجتمع العربي الذي ولدت فيه الرسالة، ولا مانع من فرضية أنهم كانوا يؤمنون بهم كأنبياء. فقد تحدثت هذه الآيات عن رفض الأمم السابقة لهؤلاء الأنبياء، من خلال صفة البشرية التي كانت لا تنسجم مع صفة النبوّة في زعمهم؛ ولكن النبوّة كانت تفرض نفسها في نهاية المطاف، من خلال مواقفها ومعاجزها الخارقة للعادة التي قام بها أولئك الأنبياء، مما يوجب تحطيم الإعتقاد الخاطىء الذي كانوا يحملونه في أفكارهم.

ففي حديث القرآن عن نوح وقومه يقول الله تعالى:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود: ٢٧ ـ ٢٨).

وفي آية أخرى تتحدث عن أسلوب نوح ـ في حواره معهم ـ حول تجريد مفهوم النبوّة في واقعها الأصيل من فكرة القدرات الخارقة التي يتمتع بها النبي، أو صفة الملائكية غير البشرية:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ . . . ﴾ (الأنعام: ٥٠).

وتصرح بعض الآيات بفكرة النبي ـ الملك التي كانوا يزعمونها كأساس لرفض دعوته:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

وهكذا يطرح القرآن قصة نوح وقومه، ليؤكد في أكثر من آية، من خلال الأدلة التي انطلقت فيها رسالته، خطأ الفكرة التي كان يزعمها قومه من التنافي بين البشرية والرسالة.

وتمتد القضية إلى بقية الأنبياء، كما حدّثنا بذلك عن قصة هود وصالح، فقد جاء في قوله تعالى عن قوم هود:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٣).

وقال تعالى في قصة صالح وقومه:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤).

وقال تعالى في قصة شعيب:

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨٦).

ويلخص القرآن الكريم الجانب التاريخي لرفض فكرة التنافي بين البشرية والنبوّة، ليشمل تاريخ الأنبياء السابقين، فيقرِّر أنهم كانوا ـ بأجمعهم ـ بشراً لهم كل صفات البشر الجسدية، في كل ما يتضمنه ذلك من ضعف وقوّة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧ ـ ٨).

أما الأسلوب الثاني: فتواجهنا فيه الآيات الكريمة التي تتناول رفض رسالة النبي لصفته البشرية وطاقاته العادية:

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٧ ـ ٩).

ويتابع القرآن الكريم، الجانب الثاني من الحوار، في السورة نفسها في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠).

ونلتقي ـ في هذا الإتجاه ـ بالآيات الكريمة التي تعرض الخطأ وتحاول أن تناقشه:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠ ـ ٩٥).

فنحن نلاحظ ـ في هذه الآيات ـ أنهم واجهوا الرسول بهذه المقترحات كأساس لإثبات رسالته، من حيث أنها تمثل في مفهومهم ما ينبغي أن يتمتع به من القدرات غير العادية. وكان الجواب الهادىء البسيط منطلقاً من تأكيد فكرة البشرية التي تتعارض مع هذه الإقتراحات، واعتبار الرسالة ـ بعد ذلك ـ هي الصفة الوحيدة التي تميّزه عن الآخرين. ثم تقرر الآية أن التصور الخاطىء ـ في تاريخ الشعوب التي عايشت النبوات ـ الذي يرفض فكرة الرسول ـ البشر، شارك في منع الناس من الإيمان. ثم تضع الفكرة في إطارها الطبيعي من جانبين:

الجانب الأول: هو استبعاد هذه الفكرة الخاطئة، لعدم استنادها إلى أساس، والتأكيد على أن الأمر الطبيعي هو أن يكون بشراً، كشرط ضروري لتحقيق الإنسجام بين الرسول وأتباعه، لتكون العلاقة بينهما علاقة طبيعية، لأن مهمته ليست البلاغ فحسب؛ بل التجسيد الحي للفكرة في عمله إذ لو كان ملكاً، أو كان في مستوى أعلى من المستوى البشري في طاقاته، لأمكن أن لا يعتبر الناس التطبيق

العملي الذي كان يمارسه دليلاً على واقعية الرسالة، وإمكانية تطبيقها من قِبَل الآخرين. وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بصورة واضحة، حيث اعتبر أن طبيعة الانسجام بين الرسول وأتباعه توجب أن يرسل الله إلى الأرض ملكاً رسولاً، في حال كان المجتمع الذي أرسل إليه في الأرض مجتمع ملائكة.

الجانب الثاني: التركيز على خطأ الفكرة من زاوية أخرى، وهي أننا لا نشعر بضرورة حصول الرسول على قوة غير عاديّة، لأن مهمته ليست تغيير النظام المألوف للكون، أو القيام بحركات استعراضية خارقة للعادة، ليلفت الأنظار إليه أو ليزهو بالعظمة التي تخشع لها القلوب والأبصار، مما يحوجه إلى القوة من أجل تحقيق ذلك، بل مهمته الوحيدة هي الرسالة؛ وشرطها الوحيد أن يتمتع بالطاقات التي تؤهّله لتلقّي تلك الرسالة بالوحي، ولحمل تلك الرسالة وإبلاغها للناس، ثم القدرة العملية على تطبيقها وقيادة الناس لذلك. أما في غير ذلك، فإن القضية تخضع لتخطيط الله له، من حيث ما يمنحه الله من معلومات أو يمكّنه من المعجزة.

وقد نلمس وضوح هذه الفكرة في كثير من الآيات القرآنية، التي تحدثت عن الأهداف التي انطلقت من أجلها الرسالات، مما يجعل للمهمة الرسالية إطارها المحدود، الذي يتلخص بكلمتين: الدعوة والتشريع. وتغيير الواقع من خلال ذلك، ليستطيع الناس ممارسة حياتهم بسلام يرتكز على العدالة والرحمة والتعاون والخير الكبير.

فقد حدّد في قوله تعالى بعض الملامح العامة لدعوة الأنبياء بشكل عام:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢١٣)

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ... ﴾ (الحديد: ٢٥).

وفي حديثه عن رسالة النبي محمد (ص) وطبيعتها وأهدافها العامة قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

فقد نلاحظ بوضوح تحديد المهمّات الرسالية للأنبياء، في وضع الخطوط العامة للفكر والتشريع، من أجل أن ينطلق الحكم على أساس الحق وميزان العدل وفي رعاية الناس، بما يخفف عنهم أغلالهم وأثقالهم التي ترهقهم وتعطّل مسيرتهم، في بناء الحياة على قاعدة ثابتة، وفي تركيز الأسس التي تلتقي عليها مصالح الناس وأفكارهم، من أجل إخضا ع الاختلافات إلى الحكم العدل الذي لا ينحرف ولا يجور. وبالتالي، إشاعة السلام القائم على الرحمة والعدل. وفي ضوء ذلك، لا نجد أمامنا ـ في هذا الإطار ـ أيّ ضرورة تفرض اتصاف النبي بالقدرات غير العادية، التي يستطيع معها أن يصنع الخوارق في أيّ وقت وفي أيّة مناسبة؛ بل كل ما هناك، أن يملك النبي القدرة على حمل الرسالة وإبلاغها وتطبيقها بالحكمة والمرونة والقوّة، في كل ما يحتاج إليه الداعية والمشرع والحاكم، مما يتعلق بدعوته وشريعته وحكمه.. وبذلك يبطل التصور المنحرف الذي كان يربط بين النبوة وبين القوّة الخارقة التي تصنع ما تشاء بلا حدود.

ألنبوة والتفوق المطلق

وقد يمكن لنا في هذا المجال أن نتحفظ في ما يفيض فيه الكثيرون من علماء الكلام، عندما يتحدثون عن صفات النبي ـ أيّ نبيٍّ كان ـ فيوجبون له التفوّق في كل علم وفي

كل صفة ذاتية، على أساس القاعدة العقلية المعروفة لديهم، وهي قبح قيادة المفضول للفاضل. فإذا لم يكن النبي في مستوى القمة في كل شيء، لم يصلح لمركز القيادة الحياتية للناس.

وقد يتطرف البعض فيوجب أن يكون النبي أجمل الناس وأشجعهم وأقواهم في عضلاته، إلى غير ذلك من الصفات الجسمية التي لا ترتبط بالنبوة ولا بالقيادة من قريب ولا من بعيد. فإننا نلاحظ في أوضاع القيادات في العالم - حتى العسكرية منها- أن القائد لا يفرض فيه أن يكون أكثر شجاعة من جنوده، فربما يكون الكثير من جنوده أشجع منه، لأن دوره الأساسي - كقائد - ليس خوض المعركة، بل قيادتها التي تتمثل في الفكر العسكري القيادي الذي يعرف كيف يخطط للمعركة وكيف يواجه التطبيق العملي للخطط المرسومة.

وهكذا نجد القضية في كل جانب من الجوانب الحياتية، التي لا تتطلب من القيادة إلا أن تكون في مركز التفوق والكمال في القطاع الذي تتولى قيادته.

إننا نسجل تحفُّظنا الشديد حول هذا كله، لأن دور النبي لم يكن الدور المؤسس للعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، ولم تكن مهمته - مهمة المعلّم للألسن واللغات؛ إذ لا يُطلب منه أن يكون مُلماً بجميع العلوم وبجميع اللغات، فضلاً عن أن يكون متفوقاً من زاوية نبوّته، بل المهمة الأساسية - كما حددها القرآن الكريم في الآيات المتقدمة - هي الإرشاد والإبلاغ والإنذار وتعليم الناس الكتاب والحكمة وقيادتهم إلى تطبيق ذلك كله على حياتهم، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

ولعلنا نفهم ذلك كله من التأكيد على جانب البشرية الموصولة بالوحي، والتركيز على الرفض المطلق لعلم الأنبياء بالغيب إلى مستوى أن النبي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه السوء، أو يجلب لها الخير الذي يخفيه المستقبل، كما في قوله تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف: ٩).

ولكن الله قد يخص نبيه ببعض المعلومات الخاصة، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة:

﴿عَالمُ الغَيب فَلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيبه أحَداً (٢٦) إلاَّ مَنِ ارتَضَى من رَّسُولٍ فَإنَّهُ يَسلُكُ مَن بَين يَدَيه وَمن خَلفه رَصَداً﴾ (الجن: ٢٦ ـ ٢٧).

وتتحدث بعض الآيات عن موضوع العلم باللغات، لتشير إلى أن ذلك غير وارد بالنسبة إلى النبي. وذلك في قضية إتهام الكفار للنبي بأن هناك إنساناً يقوم بتعليمه. فيجيء الردالقرآني عليها حاسماً، على أساس أن هذا الشخص الذي ينسبون إليه تعليم النبي من الأعجميين، بينما نجد القرآن عربياً مبيناً، فكيف يمكن أن تصح التهمة؟ ومن الطبيعي أن هذا الرد لا يصلح لإفحام الكفار، إلا إذا كان النبي لايعلم لغة هذا الأعجمي، لأنه ـ في هذه الحال ـ لا يستطيع أن يفهم منه أو يقوم بمهمة الترجمة لما يمليه عليه ذلك من أحاديث التوراة والإنجيل وغيرهما.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

إننا نتحفظ في ذلك، في إطار الفكرة التي تربط النبوة بالتفوق المطلق في كل شيء، لأن النبوّة لا تقتضي ذلك كله؛ ولكننا لا نمانع في أن يكون للنبي أكثر الصفات المذكورة من ناحية واقعية موضوعيّة، كميزة شخصية خاصة، لا كميزة نبوية حتمية في حساب الحكم العقلي القاطع ـ كما يقولون ـ.

الحوار في موضوع القرآن

هل القرآن من كلام الله الذي أوحاه إلى محمد (ص)، ليكون دليلاً لنبوّته وحجةً على الناس،

أم أنّه من كلام محمد الذي أنشأه من نفسه، أو أخذه من أحاديث الأولين، وتعلّمه من بعض أهل الكتاب؟.

كان هذا السؤال يتداول في أوساط المجتمع العربي الذي انطلق الإسلام فيه، كموضوع يحتاج إلى إجابةٍ تحسم أمر اقتناعهم به، أو كاتهام يفتعلونه كتحدٍ كبير للنبي في دعوته، باعتبار أن القرآن يجسد قوّة الدعوة في مجال إثبات الرسالة وامتدادها الحيوي في واقع الأمة وحركتها.

وكانت المواجهة في مستوى الرسالة، التي تريد أن تجابه التحدي بالحوار الهادىء العميق الذي لايريد أن يُفحم خصومه أو يُسكتهم، بل يحاول أن يقنعهم بصدقه وبما يؤمن به؛ أويحطِّم عنادهم بالصدمات الفكرية القوية، ليبدؤوا التفكير من نقطة الحياد، لا من قاعدة المشاعر العدائية للعقيدة.

وقد تمثلت هذه المواجهة في حوار العقيدة بأسلوبين:

الأسلوب الأول: ألتحدي المضاد، الذي يطلب من الآخرين أن يجرّبوا مجاراته والإتيان بما يستطيعونه، من حيث الكمية ولو بسورة من مثله. ولم يقتصر هذا الطلب على فئة معينة من الناس، بل امتد إلى الجن والإنس جميعاً من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى ثقافي، منفردين أو متعاونين. ثم ينطلق في أسلوب الواثق المطمئن ليدلّل على أنهم لا يملكون القدرة عل ذلك ولو اجتمعوا له بكل ما عندهم من طاقات وإمكانات.

ولم ينقل التاريخ لنا أيّة تجربة جادة أو ناجحة في هذا المجال، بالرغم من أن خصوم الإسلام كانوا يلجؤون إلى أية وسيلة يستطيعون من خلالها تسجيل موقف ناجح ضد النبي ودعوته، في كل حالة من حالات الصراع المرير الذي كانوا يخوضونه معه. أمّا الفكرة التي انطلقت، في هذا التحدي المضادّ، لاتهاماتهم وشبهاتهم التي أثاروها ضد القرآن، فقد ارتكزت على الأساس التالي:

وهو أن القرآن لو كان كلاماً بشرياً، في أيّ درجة من الدرجات، فلا بد من أن يلتقي ببعض المستويات الفكرية والثقافية في الحياة، مما يجعل أمر الإتيان بمثله أو بنموذج

مشابهٍ له ـ سواء أكان مساوياً له أم كان أعلى منه ـ شيئاً ممكناً. فإذا لم يتحقق ذلك ولم يستطع أحد مجابهته في ذلك كله، فستكون النتيجة مع الفكرة التي تثبت أنه كلام الله الذي لا كلام مثله أو فوقه.. وبهذا نعرف أن الأسلوب هنا لم يتجه إلى إسكات الخصم، بل اتجه إلى جعل التحدي طريقاً للإيمان بالفكرة الإسلامية المطروحة أمامهم. وهذا ما نستطيع أن نقرأه في الآيات التالية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (هود: ١٣).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

ويبلغ ذروة التحدي في قوله تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

الأسلوب الثاني: الطريقة العقلية التحليلية، التي تحاكم الفكرة المضادّة على أساس التفكير الذي يطرح القضية أمامه في مناقشة تحليلية هادئة. وقد أثار القرآن الكريم هذا الأسلوب في نقاط ثلاث:

الأولى: الكشف عن تاريخ النبي الثقافي من عدة جوانب:

١ ـ شخصيته الثقافية، فلم يسبق له أن قرأ كتاباً أو خطّه بيمنه أو انتمى إلى مدرسة، كما أشار القرآن إلى ذلك في خطابه للنبي ـ وهو يوحي له بنوعية الأسلوب الذي يديره معهم في هذا الموضوع ـ قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢).

ولم يحدِّثنا تاريخ النبي أن أحداً من خصومه واجه هذه الآيات بالتكذيب أو بالإشارة إلى جانبٍ يؤكد فكرة القراءة والكتابة، إلا من بعض الافتراضات التي حدثنا القرآن عنها دون أن تستند إلى شيء، كما سنشير إليه فيما بعد.

٢ ـ ملاحظة تاريخ النبي في حياته مع قومه قبل نزول القرآن، وذلك في ما يحدثنا به قوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

فقد عاش النبي معهم مدة أربعين سنة ـ قبل تكليفه بالرسالة ـ دون أن تبدر منه أيَّة إشارة، ولو إلى آية واحدة أو فكرة معينة من أفكاره، بل كانت حياته وأحاديثه جاريةً بطريقة عادية، ليس فيها أيُّ شيء يلفت النظر إلى مستقبل أمره من قريب أو من بعيد. وفي هذا دلالةٌ كبيرة على أن الرسالة لم تتحرك في أفكارها، ولا في قرآنها من موقع إمكانات النبي الذاتية التي تحكم طبيعة الأمور. فإن من الصعب، بل من المستحيل عادة، على أيِّ إنسان ينتج فكرةً تنبع منه، أن يعيش الصمت المطلق في حياته اتجاهها، في أدوار تكاملها ونموّها في نفسه؛ فإن سلوك الإنسان وأقواله يعتبر انعكاساً ـ عفوياً ـ لأفكاره وآرائه في الحياة، بحيث تصدر عنها كما يصدر النور من الشمس، والماء من الينبوع، دون إرادة أو اختيار.

٣ ـ تاريخ البيئة التي نشأ النبي وعاش فيها، فإن المجتمع العربي الذي شكل بيئة النبي محمد (ص)، لا يساعد على ولادة فكر في مستوى الفكر القرآني الذي يجسد عدة ألوان من الثقافة، تشمل كثيراً من شؤون المعرفة، كالتشريع والأخلاق والحديث عن أسرار الكون، والجوانب النفسية والإجتماعية والأخلاقية بشكل عام؛ مما لم يكن وارداً

مع المستوى الثقافي المحدود لذاك المجتمع، كما نعرفه في تاريخ الجزيرة العربية التي كانت ثقافتها لا تتعدى الجانب الأدبي.

ولعلنا نلمح الإشارة إلى ذلك، إنطلاقاً من وصف أفراد البيئة المكية بالأميّين وبالضلال المبين، في قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

ولم يُعرَف للنبي بيئة ثقافية أخرى، في المدارس الثقافية الموجودة في ذلك الوقت؛ فلا يوجد في تاريخه أثر لأية رحلة طويلة سافرها النبي إلى تلك المدارس، بل كلّ ما قام به رحلتان تجاريتان إلى بلاد الشام، لم تتجاوزا زمنياً المدة التي تفرضها طبيعة الرحلة التجارية السريعة. وكانتا في وقت متقدم على الهجرة بالإضافة إلى أنّ النبي لم يصل فيهما إلى بيروت - المركز العلمي آنذاك - بل توقف سفره في حدود بصرى في ما تنقله لنا السيرة النبوية الشريفة.

النقطة الثانية: في الأسلوب العقلي للحوار في هذا الموضوع، إن الفكرة التي كانت تنسب القرآن إلى غير الله تؤكد نسبته إلى إنسان غير عربي[1] ، ولم يعرف عن النبي - في ما أشرنا إليه - أنه كان يعرف لغة غير اللغة العربية، فكيف يمكن أن يكون التعليم، وكيف يمكن أن تحصل الترجمة؟ ولو كان الكلام مستمداً من ذلك الإنسان، لكان الكلام غير عربي كما قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

---

(١) يذكر تاريخ السيرة النبوية أن هذا الشخص كان غلاماً رومياً (عجمياً نصرانياً، يشتغل في مكّة حداداً يصنع السيوف؛ وكان له معرفة بالقراءة والكتابة) وكان النبي يقف عليه بعض الأحيان ليشاهد صنعته. فقد جاء في سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٦٤: كان رسول الله (ص) - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبير عبد لبني الحضرمي فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به الأجير النصراني فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم الآية الكريمة.. قال ابن هشام يلحدون إليه: يميلون إليه.

النقطة الثالثة: أن القرآن يشكل وحدة فكرية، تمثل التوافق والإنسجام في كل ما أثاره من قضايا ومفاهيم وما خطط من تشريع؛ بينما تقتضي الفكرة التي تنسبه إلى النبي محمد (ص) أن يحصل فيه التناقض والإختلاف، لأنه نزل متفرقاً في مواضع مختلفة وأزمات متباعدة وظروف متباينة تختلف في طبيعتها ونتائجها، مما يجعل الفكرة تختلف من وقت لآخر، أو توجب نسيان الإنسان في حالةٍ ما يقرره في حالةٍ أخرى. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

وهكذا نجد، في كل ما عرضناه من أساليب واجه بها النبي محمد (ص) خصومه الذين كانوا يشككون بنسبة القرآن إلى الله، الأسلوب الإسلامي الذي يريد للحوار أن ينتهي إلى نتيجةٍ إيجابية في جانب المعرفة والقناعة بالفكرة، من خلال الدليل والحجة، لا من خلال الأجواء العاطفية التي لا تستند إلى أساس متين مقبول.

كيف واجه النبي حملات التشويه

وكانت التحديات الشخصية، التي قام بها خصوم الدعوة الإسلامية، على رأس التحديات التي أرادوا من خلالها تشويه صورة النبي في نظر الناس. وقد حاولوا اختلاق أيّة صفة من الصفات التي تجعل منه إنساناًعادياً ككثير من النماذج الموجودة في المجتمع، فكانت صفة الشاعر وكانت صفة الساحر من بين الصفات التي توحي للآخرين باتخاذ موقف من كلامه مماثل للموقف الذي يتخذونه من الشعراء والكهّان؛ الامر الذي يجرده من أيّ نوع من أنواع القداسة أو الامتداد والشمول، ومن الدور القيادي أوالتغييري في حياة الأمة. ولم يقتصروا على تلك الصفات لتشويه صورته فنعتوه بصفة الجنون، دون وجود أي مظهر يبرر أو يقنع الآخرين بذلك، إلا الأجواء الانفعالية المحمومة التي كانت تتابع الكلمات التي تثار دون تفكير، تماماً كما ينطلق الصدى في الحياة.

قال تعالى:

﴿. . . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سبأ: ٤٣).

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (ص: ٤).

وواجه النبي ذلك كله بصفة النبي، الذي لم تكن ذاته تمثل بالنسبة له شيئاً، إلا بمقدار ارتباطها برسالته؛ ولذا فإن حملة التشويه لم تثر لديه أيَّ رد فعل، إلاّ من خلال حاجةالرسالة إلى ما يحميها من التشويه الذي يسيء إلى أثرها العملي في حياة الناس. فدعاهم إلى أن يوازنوا بين الشعر، والقضايا التي يثيرها الشعراء والأجواء التي يعيشونها والأساليب التي يتبعونها، وبين القرآن في قضاياه وأجوائه وأساليبه، ليروا أنه بعيد كل البعد عن الشعر وزناً وقافيةً وقضايا وشخصيةً.. وهكذا كان الأمر - في موضوع السحر والكهانة - فلم يكن القرآن كتاباً يعتمد على خداع أبصار الناس وأفكارها، أو النفاذ إلى غيب الماضي والمستقبل في قضاياهم الخاصة... كما يفعل السحرة والكهّان، بل هو كتاب يتوجه إلى الناس وحياتهم على أساس الفكرة الواعية العميقة الواسعة، والكلمة الهادئة، والأسلوب المرن الحكيم، ليقتنعوا به من خلال مقوّمات القناعة لديهم.

قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣). ص١٣٥

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩). ص١٣٥

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ٣٦ ـ ٣٧).

وتنقل لنا قصة السيرة النبوية الشريفة الرفض العفوي الذي قابل به أحد كفار قريش فكرة أن يكون القرآن شعراً أو حديث كهانة؛ وهو الوليد بن المغيرة الذي سمع

شيئاً من القرآن وتأثر به، فقالت قريش صبأ والله الوليد، ولتصبون قريش كلهم. فأوفدت إليه أبا جهل، يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً ليعلم به قومه أنه كاره له. قال: فماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه و بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا. والله إنّ لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى. قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر، قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه. وفي ذلك نزل القرآن الكريم ـ كما تقول الرواية ـ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ١١ ـ ٢٥).

ـ وتورد السيرة النبوية ـ كما في سيرة بن هشام[1] ـ الحديث بشكل آخر ـ «أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه. وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تجالجه ولا وَسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله رجزَه وهَزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لَحَلاوة، وإن أصله لعذْق وإن فرعه لجَناة ـ قال ابن هشام: ويقال لغدَق ـ وما أنتم

---

(١) سيرة ابن هشام ج١؛ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عُرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يُفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بُسبُل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إيّاه وذكروا له أمره، فأنزل الله في الوليد بن المغيرة وفي ذلك قوله:

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (المدثر: ١٨/٢٥)

ومن الطبيعي، أن كلمة السحر هذه التي اختارها الوليد لتكون تهمة تبطل دعوى الرسالة، ليست هي ما ينطلق به أسلوب السحرة، بل هو السحر الذي يأخذ بمجامع القلب لروعة الفكرة والكلمة والأسلوب.

أما صفة الجنون، فقد كانت من الكلمات التي لا تقنع حتى أصحابها؛ بل هي من قبيل الكلمات التي تلقى دون وعي وبلا معنى. ولذا أراد القرآن الكريم، في ما نقله من أسلوب النبي في محاورتهم، أن يراجعوا فكرهم لينتهوا إلى الهزء والسخرية بهذه الكلمة.

قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦).

وهكذا نلاحظ أن النبي لم يواجه الموقف بحركات تشنجية أو انفعالية، كما يفعل مَنْ يثيرهم تحدي الآخرين الذاتي في لغة السباب والمهاترات، ليبادلوه سُباباً بسباب، وقذفاً بقذف، بل واجهه بهدوء الرسالة وروح الرسول، بإسلوب الحوار الهادىء المتزن، لأن القضية ليست قضية الشخص، بل قضية الرسالة.. ولذا فلا بد للأسلوب من أن ينطلق من خلال مصلحة الرسالة، على أساس خطها المستقيم، في فكرها العميق، ووداعتها السمحة، وموقفها الواثق المطمئن.

وقال تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٠).

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (القلم: ٥١ ـ ٥٢).

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ (التكوير: ٢٢).

وقد نجد في هذه الآيات أن الله يتحدث عن هذه الفردية بكل هدوء، ليعرِّفنا في الآية الأولى أن القضية لا تعود إلى فكرة يؤمنون بها في قرارة نفوسهم، ولكن تعود إلى كراهتهم للحق الذي جاء به، والذي لا يريدون أن يرتبطوا به، في الوقت نفسه الذي لا يريدون أن يظهروا معاندتهم له. فكان العذر الوحيد لهم، في الرفض والسلبية في الموقف من النبي، اتهامه بالجنون. أمّا في الآية الثانية فإن الله يصور لنا الكافرين في حالة الهلع والضيق والإستغراب التي تجعلهم ينظرون إلى النبي شزراً احتجاجاً على ما جاء به من الذكر. ثم لا يلبث القرآن إلا أن يربطنا بالحقيقة من خلال طبيعة الوحي الإلهي، فيدعونا إلى مواجهتها بالفكر لنعرف أنه ذكْر وموعظة للعالمين.

أما الآية الثالثة فإنها تنفي القضية من ناحية المبدأ، دون أن تقدم أيَّ رد تفسيري أو تحليلي، بل تحاول أن توحي بأن القضية لا تحتمل الأخذ والردّ، لأنها واضحة بشكل لا يدع مجالاً للجدل.

ونلاحظ في بعض الآيات الكريمة، أنهم يلصقون بالنبي تهمة الرجل المسحور التي تشبه صفة الجنون، وإن كانت تختلف عنها في بعض خصائصها ومظاهرها، ولا يحاول القرآن في هذا الموضوع، إلا أن يطلق صفة الظلم على هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وظلموا النبي بافتعال التهم الكاذبة عليه. ثم يعقب على ذلك بأن هؤلاء الظالمين قد ضلوا عن الرشد والحق، فلا يستطيعون سبيلاً يوصلهم إلى الحق ويهديهم إلى الرشاد.

قال تعالى:

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨).

مع أهل الكتاب

لم يلتق النبي محمد (ص) أهل الكتاب في موقف صراع في مكة، فقد كان المجتمع المكي مجتمعاً وثنياً مشركاً، إلا من بعض أفراد قلائل. ولذا لم نجد في الآيات التي نزلت في مكة ما يشير إلى أيّ جدال،أو حوار بينه وبينهم، لأنه كان مشغولاً بمحاربة تيار الشرك والوثنية من جهة، ولأنهم لا يُعتبرون مشكلة إسلامية من جهة أخرى.

تعاطف مع النصرانية

وربما نلمح في البداية تعاطفاً وتقارباً بينه وبين المجتمع النصراني في مكان آخر، ظهر من خلال مشروع هجرة المسلمين المضطهدين إلى الحبشة، فراراً بدينهم، أملاً في أن يجدوا هناك بعض الحرية والطمأنينة في ممارسة عقيدتهم. وهذا ما حصل - حسب ما جاء في التاريخ الإسلامي، وما أشارت إليه بعض الآيات الكريمة - فقد حدّثنا التاريخ أن المسلمين حصلوا على الحماية القوية عند ملك الحبشة النجاشي؛ فقد منعهم من قريش التي لحقت بهم لتوغر صدره عليهم، فلم يستجب لها، بل أصغى مع جماعته إلى أفكار المسلمين وأقوالهم، وانسجم مع الأجواء الروحية التي أفاضها القرآن الكريم عليهم، في ما تلاه المسلمون من الآيات التي تتحدث عن عيسى وأُمّه، وعن المعاني الروحية الكبيرة التي أوحى بها الله إلى نبيه؛ مما يلتقي مع الخط الواحد

للرسالات السماوية، لأنهم رأوا فيها روحانية المسيحية الحقة، وإخلاصها وواقعيتها الخاشعة، مما جعل أعينهم تفيض من الدمع خشوعاً لله، وذلك في ما أشار إليه في قوله:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٢ ـ ٨٣)(١).

معاهدة سلمية مع اليهود

وهاجر النبي محمد (ص) إلى المدينة، ليبني قواعد المجتمع الإسلامي الجديد فيها على أساس من قوّةٍ وعلمٍ وتقوى، فواجه اليهود من أهل الكتاب هناك، (لم يكن في المدينة نصارى). ولم يحاول أن يصطدم بهم، لأنه لم يرد إثارة مشاكل صراع جديدة في دعوته. فبدأ باتخاذ تدبير في غاية الحكمة، وهو عقد معاهدة صداقة معهم تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين، وتطبع الواقع الجديد بطابعها المتسامح المبني على قاعدة متينة من مواطن اللقاء الكثيرة المشتركة. فما دام هناك موقف مشترك يجمع بين الدعوتين، فليكن هو القاعدة التي يلتقيان عليها. ليكون الحوار، في مواقع الاختلاف، منطلقاً من موقع اللقاء الذي يهيئ المجال للتفاهم المشترك، على أسس الحوار بعيداً عن العصبيات والسلبيات.

وقد يكون من الخير للباحث المسلم، الذي يحاول أن يفهم الطبيعة الواقعية للتحرك الرسالي الإسلامي في مواقف الصراع العقيدي والاجتماعي، أن يستعرض هذه المعاهدة التي تعتبر من أعظم الوثائق الإسلامية للعلاقات بين الأديان، ليعرف كيف كانت السيرة الإسلامية تعتبر الحوار أساساً لكل عوامل الصراع ومواقفه. وذلك في ما نراه فيها، من التأكيد على خلق الأجواء الطبيعية الهادئة التي تمهّد ـ في المستقبل ـ لولادة علاقات طبيعية تقوم على الإحترام المتبادل دينياً وإنسانياً، في نطاقٍ لا يخضع للعاطفة بل يستند إلى الفكر والقانون.

وقبل أن نستعرض هذه المعاهدة ـ الوثيقة، كمدخل لفهم طبيعة الصراع بين الإسلام وبين أهل الكتاب من اليهود، لا بد لنا من التأكيد على نقطة مهمة جداً، وهي أن هذه المعاهدة لم تكن معاهدة مستقلة بين النبي وبين أهل الكتاب، بل كانت منسجمة مع الأجواء العامة التي تحكم علاقة المؤمنين بعضهم مع بعض، فهي جزء من هذه العلاقة، مما يوحي بأن النبي أراد أن يجعل من المجتمع المدني وحدةً متكاملة بجميع الفئات الموجودة منه، سواءً منها المهاجرون والأنصار من المؤمنين، أو أهل الكتاب من اليهود على اختلاف قبائلهم وطوائفهم، نظراً لأن المصير الأمني والحياتي مشتركاً بينهم،دون أي تعقيدات من جانبه كدني جديد بحيث نستطيع تقرير الفكرة التالية وهي: أنّ الإسلام لم يكن ليخطط لأية مشاريع حربية أو عدائية ضد أهل الكتاب من اليهود، بل كان ـ على العكس من ذلك ـ يخطط لمشاريع سلمية طويلة الأمد لخلق التعايش السلمي بين الأديان، الذي كان يخطط لمشاريع يعمل له.

نص المعاهدة

ونورد في ما يلي نص هذه ا لمعاهدة ـ الوثيقة، التي ذكرها ابن هشام، في كتاب السيرة النبوية:

«قال ابن اسحاق: وكتب رسول الله (ص) كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من النبي محمد (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

المؤمنين؛ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرجاً(*) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وإن لا يحالف مؤمن من مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوانٍ أو فسادٍ بين المؤمنين وإن أيديهم عليهم جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا ينصرَ كافر على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم. وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من موالي اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا، يعقب بعضها بعضاً. وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أ حسن هدى وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنه قوَد به إلا أن يرضى ولي المقتول. وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم قيام إلا عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه. وإنه من نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله عز وجلَّ وإلى محمد.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني أوس مثل ما ليهود بني عوف.

(*) المفرج:ذكر ابن هشام أنه المثقل بالدين الكثير العيال.

وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البرّ دون الإثم. وإن موالي ثعلبة كأنفسهم. وإن بطانة يهود كأنفسهم. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد. وإنه لا ينحجر على ثأر جرح. وإنه من فتك فبنفسه (فتك) وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا. وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على منْ حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّدون الأثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وإن النصر للمظلوم. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله (ص). وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه. وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم، وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن اسحاق: وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه. وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه. وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم. وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله [1].

اليهود يواجهون الدعوة

وكان من الممكن لهذه المعاهدة أن تدوم وتخلق الجو الرائع للتعايش الديني السلمي؛

---

(١) سيرة ابن هشام ج١؛ ص ٣٤٨.

ولكن اليهود أبوا المساعدة في استقرار هذا الجو، فمضوا يعدون العدّة للوقوف بوجه الدعوة الجديدة، والنبي الجديد.

قال ابن اسحاق في ما رواه ابن هشام في سيرة النبي (ص):

«ونصبت ـ عند ذلك ـ أحبار يهود لرسول الله العداوة، بغياً وحسداً وضغناً لما خصّ الله به العرب من أخذه رسوله منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنّة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود، لتكذيبهم النبي وجحودهم الإسلام. وكان أحبار يهود الذين يسألون رسول الله (ص) ويتعنتونه ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم، وفي ما يسألون عنه إلا قليلاً من مسائل الحرام والحلال، كان المسلمون يسألون عنها[1] ...

وهكذا نجد أن اليهود، هم من بدأوا الجدال، من خلال سعيهم إثارة القضايا التي تخلق جوّاً قلقاً من التساؤلات المغرضة عن الرسالة والرسول، لتصرف النبي محمد(ص) عن مهمته الأصيلة ـ في بناء القاعدة ـ إلى القضايا الجانبية، التي يثيرونها بأساليب اللف والدوران، ولتشغل المسلمين عن همومهم العملية، في مواجهة حياتهم الجديدة في ظل الإسلام.. بما يحدثونه في داخلهم من ارتباك وقلق وتشويش، وبما يثيرونه بينهم من خلافات أو انقسامات.

فكيف كان ردّ الفعل لدى النبي إزاء ذلك؟

هل أعلن عليهم الحرب؟

إن الجواب لم يكن إيجاباً على ذلك، بل نجد أنّ النبي لم يُرد أن يجعل من هذه الإثارة منطلقاً لبداية معركة حارّة معهم، بل حاول أن يطرح أمام المسلمين الخط العام

---

(١) سيرة ابن هشام ج١؛ ص ٣٥٨.

الذي يلتقي عنده المسلمون في علاقاتهم الجدلية مع أهل الكتاب، سواء منهم اليهود أو غيرهم.

الإسلام يخطط للصراع الفكري مع أهل الكتاب

فبدأ بالتخطيط لأسلوب الصراع الفكري بين الديانات، فجعله في إطار يبتعد فيه عن كل الأجواء النفسية الحادة، الزاخرة بعوامل الإثارة أو الحقد، بغرض أن ينتهي إلى إحدى النتيجتين: إمّا وحدة الموقف، وإمّا الإلتقاء على أساس وضوح الرؤية لما يفكر به كل منهما.

وقد كان الإسلام واقعيّاً عملياً، لأن فكرة التعايش السلمي بين الأديان، التي حمل لواءها، لا تلغي وجود عناصر الصراع التي لا بد أن تظهر، ولا تمنع الإسلام - في الوقت ذاته - من ممارسة دعوته التبشيرية مع أهل الأديان، كما يمارسها مع غيرهم ممن لا يدينون بدين.

وفي ضوء هذا، لا بد من وضع الأسس التي يرتكز عليها الصراع، فكرة وأسلوباً، لئلا يعكر الصراع المتحرك أجواء التعايش من الأساس، ليحوّل الأوضاع إلى ما يوحي بالحرب أو يجر إليها. وبدأت الخطوط العامة تتحرك، في هذا الصراع، من حيث الفكرة والأسلوب. أمّا الفكرة فهي البدء بمواطن اللقاء التي تركز التعايش على أرض مشتركة صُلبة، يقف عليها كل الفرقاء، وتوحي باكتشاف أراضٍ جديدة للقاء، أو بإمكانات هذا الاكتشاف على الأقل.

وأما الأسلوب، فهو توسل الأفضل والأحسن والأجمل، كلمة وحركة وجواً نفسياً عاماً؛ فلا يجوز إستخدام الكلمات الحادة إذا كانت الدعوة تتحقق بالكلمات الهادئة؛ ولا يحسن اللجوء إلى الحركات والأجواء المتوتّرة المنفعلة إذا استطعنا أن نستبدلها بالحركات المدروسة المتّزنة والأجواء الوادعة المطمئنة.

ولعل الغرض من ذلك كله، هو إثارة شعور الآخرين بأن الإسلام يحترم فكرهم

وشعورهم ، فلا يحاول أن يسيء إليها، بل كل ما يفعله هو مواجهتهم بعلامات الإستفهام التي تتلاحق بحثاً عن جواب، يكون أساساً ينطلق الحوار من خلاله بكل واقعية وهدوء وحرّية.. لئلا تتحول القضية إلى استجواب مثير يهدر كرامة الفكر. وهذا ما لا يريده الإسلام، لأنه يبحث عن الإيمان والقناعة الذاتية، اللذين لا يعيشان إلا في الأجواء الطبيعية الحرّة الهادئة.

الخط العريض للمنهج

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

فقد ركّز القاعدة في الجدال على الطريقة التي هي أحسن، واستثنى الظالمين منهم، لأنهم لا ينطلقون من الرغبة في المعرفة والوصول إلى الحق، بل يحاولون أن يعتدوا أو يشاغبوا ويخربوا، ما أمكنهم ذلك؛ فلا بد من التعامل معهم بالطريقة التي تردعهم عن الظلم وتبعدهم عن العدوان، فلا مجال للحوار معهم من قريب أو من بعيد.

ولم يسترسل القرآن في الحديث عن تفاصيل هذه الطريقة نظرياً، بل حاول أن يقدم لنا النموذج العملي للأسلوب الأحسن كمثالٍ نحتذيه، وفيه امتزجت الطريقة بالفكرة التي يرتكز عليها الإيمان بالإسلام الذي يعتبر جسراً بين الديانات، لأنه لا يشكو من أيّة عقدة إزاء ما تقدس من أنبياء أو تؤمن به من عقائد وما تمارسه من شريعة. فهو يؤمن بالأنبياء السابقين، كما يؤمن بالنبي محمد (ص)؛ ويقدس الكتب المنزلة بوحي من الله، كما يقدّس الكتاب الذي أنزل على محمد (ص)؛ وينطلق من فكرة التوحيد التي تدين

بالإله الواحد، كما تنطلق هي من تلك القاعدة. وهو في بداية المطاف ونهايته، يُسلم وجهه وقلبه وحياته لله تعالى في كل موقف من مواقف الحق والسلام.

وهذا ما توضحه الآيتان الكريمتان في ما يطلب الإسلام إظهاره من دعوة للقاء الآخرين في مقام الحق، كأسلوب نموذجي من أساليب تقريبهم للجو الروحي الذي يوحي إليهم بالحوار الهادئ السليم.

وقد يتضمن هذا الأسلوب بنظر الاسلام إلغاء الاخرين من خلال الإيمان بمقدساتهم، من موقع الإيمان بمقدساته، بحيث لا تمثّل القضية أيّ تنازل من قبِله، بفعل المجاملة والبحث عن قاعدة للّقاء كيفما إتفق، بل هي منسجمة مع واقع العقيدة والإيمان، الأمر الذي يملأ أطراف الحوار بالشعور بالقرابة الفكرية والروحية إليهم، مما يوحي بأن الإلتقاء به لا يبتعد بهم عن مواقعهم الأصيلة من حيث المبدأ.

المنهج يُبعد الداعية عن العزلة

وربما نشعر بالحاجة إلى مثل هذا الأسلوب في كثير من مواقع اللقاء مع الآخرين، عندما نطرح الخطوط العريضة التي نلتقي عليها، للدخول في عملية حوار، توصلنا إلى القاعدة المشتركة الأصيلة، سواء كانت قضايا اللقاء أمراً يتعلق بالعقيدة، أو شأناً من شؤون الحياة العامة والخاصة.

وقد يُساهم هذا الأسلوب في تجنب الداعية إلى الله، وإلى الإسلام العزلة الإجتماعية والسياسية التي قد تفرض عليه في الحالات التي لا يستطيع فيها أن يَطرح الفكرة، جُملةً وتفصيلاً. فقد نجد في هذه الآيات ما يوحي بأنّ عليه أن يطرح القضايا المتفاهم عليها، قبل الدخول في تفاصيل العقيدة والحياة، كخطةٍ مرحلية ينفذ من خلالها إلى أفكار الناس وقلوبهم، ليتحرك من موقع ثابت متين إلى المواقع الكبيرة التي يبني عليها دعوته، دون أن يسمح للآخرين باستغلال دخوله التفصيلي في قضايا العقيدة للمزايدة عليه واتهامه بالبعد عن قضايا الناس.

وربما يكون في طليعة هذه الأمور، الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، التي تثير اهتمام الناس لتأثيرها في حياتهم العملية. فإننا نلاحظ مدى الأثر الذي يحدثه تبني الأحزاب والتيارات السياسية شعارات تتحرك في إطار أوضاع الناس وقضاياهم، وما يحققه ذلك لحركتها من مكاسب في واقع المجتمع الذي يشعر بأن تلك التيارات تدافع عن قضاياه وهمومه، بينما لا تشارك القاعدة الإسلامية ـ بصورة عامة ـ في التحرك إلا من بعيد، وبصورة منفردة عن الآخرين، لإلتزامها بالتركيز على الحواجز الأساسية التي تفصلها عنهم، دون الإلتفات إلى مواطن اللقاء.. مما يجعل القافلة تتحرك بعيداً نحو الأهداف، في الوقت الذي تتراوح فيه القاعدة الاسلامية في بداية الطريق، مع فئات أثقل أقدامها التعب من كثرة الوقوف، وجمّد حركتها الإيحاء الدائم بحتمية التريّث والتأنّي والصبر إلى ما لا نهاية دون هدف محدد.

إننا نشعر بأن السير مع الآخرين مع الإحتفاظ بالشخصية الإسلامية، كما هو الحال في تعاون الآخرين في ما بينهم مع الإحتفاظ بشخصيتهم الخاصة، لا يتعارض مع التعاليم الإسلامية التي ترى في مواطن اللقاء أساساً لتحصيل قدرٍ أكبر من حرية الحركة في الصراع مع الآخرين، وفي سبيل الآخرين. ولن نحتاج في إثبات شرعية ذلك إلا إلى التأمل في هذه الآيات وفي ما نذكره منها في موضوع آخر، من حيث أسلوب العرض وطبيعة الفكرة. ولكن مشكلة الكثيرين منا هو أننا نتصرف، كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، عندما نتبنى الآيات التي تدعو إلى التشدد في التعامل مع الكافرين ونترك الآيات التي تدعو إلى اللين والمرونة معهم، من دون أن نقف لنفرّق بينهما، فيما يفترق الكلام فيه من مجال عن مجال.

الانطلاق من مواطن اللقاء

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وتلتقي هذه الآية بالآية السابقة، في طرح القضايا المشتركة الأساسية بين الأديان، وهي التوحيد الخالص، الذي لا يخالطه الشرك الظاهر المتمثل في اعتقاد تعدد الآلهة أو في عبادة الأوثان، أو الشرك الخفي الذي يتجسد في إطاعة الناس بعضهم بعضاً من دون الله، وتفضيل طاعتهم على طاعته، كما أشار إليه القرآن الكريم في آية أخرى، في قوله تعالى في حديثه عن بعض أهل الكتاب:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

وينطلق هذا الأسلوب من أخذ الموافقة ـ من حيث المبدأ ـ على الفكرة العامة دون دخول في التفاصيل، بغرض عدم إثارة الحساسيات إزاء بعض الممارسات الخاصة التي لا يلتفتون إلى اختلافها عن المبدأ. فإذا حصلت الموافقة على المبدأ وبدأ اللقاء في الخطوط العامة، أمكن الإتجاه إلى تطبيق الفكرة العامة على الواقع والنفاذ إلى التفاصيل بشكل مباشر.

ولعلّ قيمة هذا الأسلوب، تكمن في احتمال كون المعارضين ينطلقون في معارضتهم من غفلة الجاهل عن المبدأ العام للعقيدة، أو علاقته بالواقع الحي للممارسة، فلا يشعرون بالإختلاف بين العقيدة والواقع، ولذا يُفرض في الحوار أن يُركّز على الفكرة العامة، ليتجه إلى الداخل في هزّةٍ قويّةٍ عاصفة. وهذا ما حصل في الخطوات الأخيرة التي أكدها القرآن في مجال بحث التفاصيل، عندما بدأ بوضع النقاط على الحروف، موضحاً إنحرافهم الكبير عما يؤمنون به من عقيدة؛ كما شاهدناه في الآية السابقة التي أثارت قضية اعتبارهم ـ الأحبار والرهبان والمسيح ـ أرباباً من دون الله، على الرغم من الإختلاف القائم برأيهم بين نظرتهم إلى الأحبار والرهبان من جهة، ونظرتهم إلى عيسى من جهة أخرى، فإن ما يجسده الموقف من انحراف عن خط التوحيد، الذي يطرحه الإسلام في القرآن، أساساً للقضية المشتركة بين الديانات، لا يختلف البتة.

لماذا ركز القرآن على موضوع الأحبار والرهبان؟

وقد نتساءل عن السبب الذي جعل القرآن يدفع الحوار فيه إلى موضوع علاقتهم بالأحبار والرهبان، مع أن هذه العلاقة لا تتصل بموضوع العقيدة. فإننا لا نجد هناك من ادعى أنهم آلهة، بل كانت القضية متصلة بربوبية الطاعة، لا بربوبية العقيدة. وربما يكون الجواب عن ذلك، هو تأثيرهم الكبير في حياة الناس وأفكارهم ووقوفهم بوجه الدعوة بقوّة وعنف. فقد كانوا يقيمون الحواجز بين الناس وبين الدعوة إلى الله، لأنهم يخافون على مراكزهم وامتيازاتهم من الزوال أمام الواقع الرسالي الجديد، ولذا كانوا يفتعلون الخلافات الجانبية ويضللون الناس، بإدخال إضافات على ما يمثلونه من رسالات و كتب منزلة لا تتفق مع الحقيقة، وتلغي كل إمكانات التقارب واللقاء على أرض مشتركة.

وكانت فكرة القرآن - في هذا الإطار - منسجمة مع خط الأديان المشترك، الذي ينطلق من فكرة أصيلة ترفض كل امتياز لأيّ كان مهما كانت درجته وقيمته. فليس لأي شخص أن يجعل لنفسه موقع الطاعة المطلقة أمام طاعة الله، إذ لا يملك أيّ بشر - بما في ذلك الأنبياء - أيّة صفة من صفات الألوهية أو أي جزء منها - لو كان يمكن للألوهية أن تتجزأ - بل كل ما هناك أنهم يبلغون رسالات ربهم ويدعون الناس إلى طاعته. فإذا كان هناك من تعليمات تدعو إلى طاعتهم، في ما نقرأ من الأمر بإطاعة الله والرسل، فإنها ترتكز على أساس طاعة الله التي هي كل دعوتهم في ما يدعون، وكل حركتهم في ما يتحركون.

وقد أوضح لنا القرآن الكريم هذه الصورة في أكثر من آية، فقد تكلم الله تعالى في موضوع الأحبار والرهبان وشرح أوضاعهم وأعمالهم التي تتنافى مع ما يحملون من رسالة، ويبشرون به من تعاليم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤ ـ ٣٥).

وفي مجال رفض الدعوة إلى عبادة الناس وطاعتهم لغير الله. قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾ (آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠).

الموقف يشمل علماء المسلمين السائرين على خطهم

وقد نجد في ما توحيه هذه الآيات الكريمة ، أن ما يرفضه القرآن في مواقف هؤلاء الأشخاص من أهل الكتاب، لا يختص بهم فقط، بل يمتد إلى كل النماذج التي تتجسد فيها هذه الصفات السيئة والمعاني الشريرة، لأن القرآن لا يرفض الأشخاص في إطارهم الذاتي، بل يرفضهم في إطارهم الفكري والعملي. ولذا فإن الرفض يتجه إلى المبادىء الفكرية والمواقف العملية بالذات، لتتحرك ـ من خلالهم ـ إلى كل زمان ومكان.

وبهذه الروح نستطيع التقرير الحاسم: أن ايحاءها يشمل العلماء المسلمين الذين يجعلون لأنفسهم مركزاً فوقياً يستعلون به على الناس، ويستغلّون تمثيلهم للدين في تكديس الثروات بالباطل، وتحصيل الإمتيازات بطريق غير مشروع، ويقيمون الحواجز بين الناس وبين المعاني الحقة في حركة العقيدة والإمتداد، ويتزلفون إلى أصحاب المال والسلطان على حساب المبدأ والعقيدة وقضايا الناس، ويجعلون من مركزهم الإجتماعي منطلقاً للإضرار بالناس فيقرّبون القريب وإن كان مبطلاً، ويبعّدون البعيد وإن كان محقاً. وهكذا يفقد الحق قيمته في حياتهم كأساس للتقييم والتقدير.. وهذاما أشار إليه الحديث الوارد في التفسير المنسوب إلى الإمام الحادي عشر من أئمة أهل البيت (ع)،

الإمام الحسن بن علي المعروف بالعسكري في تفسير قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨).

قال (ع): قال رجل للإمام جعفر الصادق (ع): فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود والنصارى لا يعرفون الكتاب، إلا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره. فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلا كعوامنا، يقلّدون علماءهم. فإن لم يجز لأولئك القبول من علمائهم، لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم.

قال (الإمام جعفر الصادق (ع): مجيباً على ذلك): بين عوامنا وعلمائنا، وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة. أمّا من حيث استووا، فإن الله ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذم عوامهم بتقليدهم علماءهم.

وأمّا من حيث افترقوا فلا. قال (الرجل): بيّن لي يا ابن رسول الله. قال (الإمام): إن عوام اليهود عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وأكل الحرام والرشا، وبتغيير الأحكام عن وجهها بالشفاعات والنسابات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من أجلهم من تعصبوا له، من أموال غيرهم وظلموهم وعلموهم يتعارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يُصدّق على الله تعالى، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله تعالى، فلذلك ذمّهم لما قلدوا من عرفوا، ومن علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه، ولا العمل بما يؤديه إليهم عمن لم يشاهدوه لأجلهم، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله، إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى وأشهر من أن لا تظهر لهم.

وكذلك عوام أمتنا، إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر، والعصبية الشديدة، والتكالب على حطام الدنيا وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه وإن كان لإصلاح أمره مستحقاً، والترفرف بالبر والإحسان على من تعصبوا له وإن كان للإذلال والإهانة

مستحقاً. فمن قلد من علمائنا مثل هؤلاء الفقهاء، فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم. فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه[1] ..

أما الأساس في ذلك كله، فهو أن الرسالات لم تنزل لتخلق من الناس الذين يحملونها أو يمثلونها، طبقة جديدة تتمتع بالإمتيازات الكبيرة بدون حق، وتمارس ما تشاء دون حساب، بل انطلقت لتحرر الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان، ولتمنحه الشعور بالكرامة المنبثقة عن الكفاءة والعمل الصالح، ليسعى إلى الحق من موقع الإحساس بحريته الفكرية من دون خضوع لبشر أو لغيره، وليقف بين يدي الله، مع كل بني البشر، في وحدة الإخلاص والطاعة والعبودية المطلقة الخالصة.

وأخيراً.. أن لا يشعر الإنسان بأن علاقته بالآخرين تقف حاجزاً بينه وبين الإلتقاء بالحق وبدعوته في أي طريق، بل يشعر - بدلاً من ذلك - بالإمتداد المنبسط أمامه في رحلته إلى شواطىء الحقيقة.

النبي يواجه التحدي

ولم يستجب أهل الكتاب، ولا سيما اليهود منهم، لهذه الدعوة المخلصة من النبي محمد (ص) في القرآن الكريم، بل بدؤوا يشاغبون، فيلفّون ويدورون من أجل أن يفجِّروا الإسلام من الداخل من جهة، ويشككوا فيه أو يشوِّهوا صورته من جهة أخرى. ثم كانت التحركات الظاهرة والخفية، التي تصدر منهم ضد النبي محمد (ص).

ولم يترك النبي - مع ذلك كله - الأسلوب الإسلامي في الحوار وفي العمل، الذي يسعى للوصول إلى القناعات من أقرب طريق، لأن الإسلام لم يطرح أسلوبه بعيداً عن ظروف التحدي، لينهزم أمام التحديات، بل انطلق على أساس الوقوف أمام التحدي في حكمة قويّة وقوّة حكيمة، إنطلاقاً من الخط العام الذي يدعو إلى الحكمة والموعظة

---

(١) كتاب الاحتجاج للطبرسي ج٢: ص ٢٦٣.

الحسنة؛ فبقيت الكلمات الوديعة تطبع خطاب الله لهم، واستمر النبي يواجههم بآيات الله في مختلف القضايا، على أساس مُقابلةِ الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان والدعوة بالدعوة. ولم يمنعه ذلك من أن يشتد بالكلام إلى حدّ القسوة اللاذعة، نظراً إلى أنّ المهمة ـ هنا ـ لم تقتصر على قضية الإقناع، بل امتدت إلى إبطال تأثيرهم على الناس، في ما يثيرونه من مشاكل وعقبات أمام الدعوة الجديدة للإسلام. ولذلك كانت الحكمة في كشف مخططاتهم، وفضح تاريخهم وتعريتهم من كلّ المعاني الطيّبة التي تربط الناس بهم، وتدفعهم إلى الثقة بأقوالهم وأفعالهم والتعامل معهم .

وقد كانت الأساليب ـ في أكثرها ـ موجّهة إلى اليهود، لأنهم عاشوا مع النبي(ص) في مجتمع النبوّة ووقفوا ضده سراً وعلانية، واستتروا بالرابطة التي تربطهم بالكتاب فتجعل لهم قداسة وهيمنة، وتكسبهم حصانةً إجتماعية عند أنفسهم وعند الآخرين.

وكانت القضايا التي أدار الإسلام الحوار حولها، كثيرة ومتنوّعة تناولت أكثر من جانب من جوانب الدعوة، تبعاً للقضايا التي أثاروها من جهة، أو حاول الإسلام أن يثيرها من جهة أخرى.

وقد بدأ النبي محمد (ص) حملة الحوار معهم في الموضوع الذي كانوا يتاجرون به، ويمنحون لأنفسهم القداسة من خلاله، ويستظهرون به، وهو الكتاب الذي أصبحوا ينادَون به، فقد كانوا يستنصرون على الكافرين ـ قبل بعثة النبي(ص) ـ بالنبي المبعوث، الذي أخبرهم التوراة عنه، ولكنهم تنكّروا للنبي بعد البعثة ومع دخول الكافرين، الذين كانوا يستظهرون عليهم به في الإسلام، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩).

القرآن يطرح نبوة محمد (ص) كبداية للحوار

أمّا القضية التي طرحها النبي - في البداية - فهي قضية نبوّته - بالذات - التي يؤكد القرآن الكريم، أنها بشارة موسى وعيسى في التوراة والإنجيل، كما أشار إلى ذلك القرآن في الآية التي تتحدث عن صفة النبي محمد في التوراة والإنجيل.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وجاءت الإشارة إلى ذلك في آية أخرى في صفة النبي محمد (ص) وأصحابه في الكتابين المقدّسين:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ . . . ﴾ (الفتح: ٢٩). ص١٥٥

وجاء - ذلك - في قصة عيسى - عليه السلام - في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ . . . ﴾ (الصف: ٦). ص١٥٥

وفي ضوء ذلك دعا القرآن الكريم أهل الكتاب إلى الإيمان بالنبي، لشهادة التوراة والإنجيل له بالنبوة، وطلب منهم أن يعرضوا التوراة على أعين الناس، ويوضحوها للناس، ليطلعوا على ما فيها من دلائل وبيّنات على النبوّة وصاحبها، وأكّد في أكثر من آية على مسؤوليتهم الكبيرة عن كتمان ما يعرفونه من الكتاب، فتوعدهم باللعنة والعذاب جزاء ذلك، وهذا ما حدثتنا عنه الآيات الآتية:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ

ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

﴿الَّذين آتيناهُمُ الكتَابَ يَعرفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبنَاءَهُم وإِنَّ فَرِيقاً مِّنهُم لَيكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

﴿إِنَّ الَّذينَ يكتُمُونَ مَا أَنزَلنَا منَ البَيِّنَات وَالهُدَى من بَعد مَا بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ فِي الكتَابِ أُولَئكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلعَنُهُمُ اللَّعنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

القرآن يطلب تقديم التوراة وإظهارها للناس

وهكذا أراد القرآن الكريم منهم أن يبدؤوا الحوار من القاعدة، التي يرتكزون عليها في ما يؤمنون به وفي ما يكفرون به، ولكنهم رفضوا ذلك ، ولم يقابلوا هذا العرض بالإيجابية ليصل الحوار إلى هدفه.

ولعلنا نجد في ذلك، الدليل على أنَّ التحدي القرآني قد أصاب هدفه في هذا الموضوع، بقطع النظر عما نؤمن به من صدق القرآن فيه، لأنهم لو كانوا صادقين في إنكارهم ما تحدَّث القرآن عنه، لما احتاجوا إلى أيِّ جهد في تكذيبه، بل يكفيهم عرض التوراة على أعين الناس، لتبطل حجة النبي في ذلك، ولكنهم يعرفون أن استجابتهم له تبطل حجتهم.

ولم يكتف القرآن بذلك، بل أراد منهم أن يأتوا بالتوراة لإثبات بعض القضايا التشريعية التي يرى الإسلام أنهم كاذبون فيها، وذلك في حديث القرآن عن الحلال والحرام من الطعام:

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٩٣ ـ ٩٤). ص١٥٦

وهكذا يواجه القرآن الكريم أهل الكتاب، في ما يثيره من القضايا التي ينكرونها بكل وضوح، فيجابههم بطلب بسيط جداً ليس فيه التباس ولا تعقيد. أن يأتوا بالتوراة

ويقدموها للناس، لتكون التوراة هي الحكَمَ، باعتبارها الحجة المشتركة على الطرفين. وبهذا يؤكد القرآن أسلوبه العملي في الحوار، الذي يبحث عن الأسس المشتركة التي يلتقي عندها كل الأطراف، لتكون القاعدة التي ينطلق منها الحوار.

حاجتنا إلى هذا الأسلوب في الصراع المعاصر:

وربما نحتاج - في حياتنا المعاصرة - إلى استخدام هذا الأسلوب في صراعنا مع بعض التيارات الفكرية الكافرة، التي تلتزم أفكارا تخالف عقائد الناس ومقدساتهم، ويحاول أتباعها إنكار ما يعتقدون، لئلا يتخذ حجةً ضدهم أمام الجماهير التي يحاولون خداعها. كبعض التيارات التي تنطلق فلسفتها من أساس مادي، لا يؤمن بأي شيء خارج نطاق الحس، وتعتبر الأديان «أفيوناً يخدر الشعوب»؛ أو بعض التيارات التي لا تنطلق من قاعدة إلحادية مادية ولكنها تعتبر الأديان - ومنها الإسلام - عقيدةً أو نظاماً بشرياً، يخضع لظروف المرحلة التي عاش فيها وانطلق منها، وينتهي دوره بانتهاء المرحلة، ليفسح المجال لمرحلة جديدة مخالفة لما سبقها في الأفكار والتشريعات. وبهذا يتحول الدين في نظر تلك التيارات إلى تراث كبقية ألوان التراث التي نحتفظ بها لمجرد الذكرى، أو لنستوحي منها بعض مشاعر الزهو والكبرياء لا أكثر، مما يُسهِّل لأعدائها استغلال هذا الأمر ضدّها، سياسياً واجتماعياً... وبهذا تنطلي الحيلة على الناس، لا سيما أولئك الجاهلين الذين لا يستطيعون الرجوع بأنفسهم إلى مصادر المبادىء ومؤلّفاتها.

وقد يمعن بعض أصحاب هذه التيارات في إنكار أصولهم الإعتقادية، بالأسلوب الذي يوحي إلى الناس أنها تهمٌ من صنع الإستعمار الذي يريد تشويه وجه الحركات الوطنية ظلماً وعدواناً، وهو أمر يسهِّل على الناس الإعتقاد به لأنهم اعتادوا على أحابيل الإستعمار ودعاياته المغرضة.

ربما نحتاج إلى الأسلوب الذي اتبعه القرآن في مواجهة اليهود، الذين أنكروا الحقائق الموجودة عندهم لئلا تتخذ حجة ضدهم . وذلك بأسلوب التحدي الذي يطلب

منهم أن يظهروا كتبهم وصحفهم التي تصرّح بحق، مع الإشارة إلى أسمائها وعناوينها إمعاناً في التحدي.. أو يحاول أن يأخذ منهم اعترافاً حاسماً بالحق الذي ينكرونه، في المواقف العامة التي لا يستطيعون التراجع عنها، للحصول على أحد موقفين: إمّا الاستجابة للتحدي الذي يفضح واقعهم ويدفعهم إلى القبول بالحوار، وجهاً لوجه، إزاء الفكر. وإما الإعتراف بالحق، كموقف حقيقي أو تسجيلي، يؤدي إلى تقوية الحق في موقفه وإضعاف الباطل في حركته في مجال الحياة.

حوار النبي مع اليهود في طلباتهم التعجيزية

ولم يقف اليهود عند هذا الحدّ، بل وقفوا يطالبون النبي (ص) بأمور تعجيزية ليثيروا النبي من جهة، وليظهروا عجزه أمام البسطاء من الناس من جهةٍ أخرى، ولكن النبي كان هادئاً ، ثابتاً . فلم يُرد أن يجعل من هذه الإثارة منطلقاً لبداية معركة حارّة معهم، بل حاول أن ينطلق معهم من الخط العام للأسلوب الإسلامي، فكان يجيب عن كل سؤال بما يناسبه، للتدليل على أن النبوّة أرحبُ صدراً وأوسعُ أفقاً، من أن تُجر إلى معركة لا تريدها أو إلى جدال لا ينتهي إلى نتيجة. ولذا كانت الأجوبة على الأسئلة المطروحة حاسمة وهادفةً ، من حيث إثارتها لتاريخ النبّوات القديم ـ التي ينتمي إليها هؤلاء ـ وموقفهم منها ليجعل تساؤلاتهم من الآن شاهداً حيّاً على أن موقفهم من النبي في الحاضر امتداد لمواقفهم المتعنتة المتحدية للنبوات في الماضي، ليكشف ـ من خلال ذلك كله ـ أسلوبهم العملي في مواجهة رسالات السماء بالحقد والعداوة والبغضاء.

ويطرح القرآن الكريم أمامنا بعض النماذج الحية لهذه المواقف في آيات الله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ

بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ (النساء: ١٥٣ ـ ١٥٦).

إن من الملاحظ أنّ القرآن الكريم لم يجب على السؤال بشكل مباشر، بل حاول أن يستعرض مواقفهم التاريخية من موسى ـ النبي الذي ينتمون إليه ـ في ما سألوه، وفي ما نقضوه من التزامات ومواثيق، وفي ما قاموا به من أعمال معه ومع الأنبياء الذين من بعده، مما يجعل من السؤال حلَقةً متصلة، يطبعها الكفر الذي يبعث على المشاغبة والتخريب في كل مجال.

وربما كان هذا الإستعراض جواباً يستوحي الفكرة من خلال التاريخ، فإن الذين يسألون موسى أن يريهم الله جهرةً، مع أنهم يعلمون من فكرة التوحيد في رسالته ـ أن الله لا يُرى، لا يُستغرب منهم أن يسألوا محمداً كتاباً ينزل عليهم من السماء، مع أنهم يعرفون أن ذلك لا يتحقق، لأن إرادة الله لم تشأ أن تنزل الرسالات بهذا الأسلوب، فمن أراد منهم الوصول إلى الإيمان، يستطيع ذلك من خلال الآفاق التي تعيش فيها الحجة على الرسالة.

أمّا المعاندون الذين لا يريدون أن يؤمنوا ـ مهما قدمت إليهم من أدلّة وبراهين ـ فإنهم لن يعدموا وسيلة للإنكار والمكابرة في ادعاء كونه سحراً. أوغيره . ولذا فإن القضية ليست محلاً للحوار والجدل، لأن الطرف الثاني للحوار لا يريد له أن يبلغ غايته في الوصول إلى الحقيقة.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٨٣).

... وهذه ذريعة أخرى للإنكار، على أساس طلب جديد يقدمونه كحجة، على الرسالة. وهو أن يأتي الرسول بقربانٍ تأكله النار من السماء، باعتبار هذه الحجة وحياً منزلاً، وعهداً معهوداً من الله إليهم. ونلمح في ذلك محاولة الإيحاء الذكي بامتلاكهم لقوة عظيمة، تجعلهم يتلقون تعليمات وتوجيهات إليه مباشرة لقربهم منه واختصاصه بهم، كأسلوب من أساليب التأثير النفسي على الجماهير التي لا تملك من أمر المعرفة ـ في هذه الأمور ـ شيئاً لتثبته أو تنفيه.

وجاء الجواب كشفاً بحساب الماضي، فقد قُدّمت هذه الطلبات في عهد النبوّات السابقة، التي كانت تستعمل مثل هذه الأساليب في إقناع الناس، عندما كان لذلك أثراً كبيراً في الإيمان. واستجاب الأنبياء لذلك، كما استجابوا لسؤال البيّنات الأخرى، ولكن بدون جدوى، فقد كان ردّ الفعل ـ على ذلك كله ـ عملهم على تغطية ضعفهم تجاه الأنبياء بالقوة الغاشمة التي تضطهدهم وتعذبهم وتقتلهم. ولهذا فلا مجال لإستجابة النبي إلى هذا الطلب، لأن التاريخ يعيد نفسه باعتبار أن القضية المطروحة من قبَلهم، غايتها التحدي والتعجيز لا البحث عن جواب للمشكلة، تبريراً لموقف الكفر والضلال وسنواجه في القرآن الكريم الكثير من هذه الأساليب التعجيزية، المنطلقة من موقع الكفر والضلال من أهل الكتاب وغيرهم؛ كما سنواجه ـ معها ـ الأسلوب الرسالي الذي يتحدى ذلك كله بالقوّة الهادئة في الفكر والعاطفة، من دون أيّ تشنج أو انفعال.

القرآن يواجه اليهود بالأساليب الوعظية العاطفية

ونجد في آيات أخرى كيف وقف القرآن الكريم من قضية إيمان اليهود وكفرهم، موقفاً يتميز بالهدوء الذي يجري مجرى العتاب، ويجسد خيبة الأمل الكبيرة فيهم، لأن المفروض فيهم أن يكونوا في طليعة المؤمنين بالنبي، بدلاً من أن يكونوا في مقدمة الكافرين به. فقد جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب، بأدلة لا تقبل الشك في رسالته، مما يجعل قضية اتِّباعه وإطاعته مرتبطة بطاعة الله وعبادته وبشكر المنعم الذي أنعم عليه.

وهذا أسلوب يجمع بين العتاب والتبكيت ومرارة الموقف والوعظ والنصيحة والتوجيه

بغرض، حشد أكبر قدر ممكن من عناصر الإثارة العاطفية والعقلية، كطريقة لتحريك الجمود النفسي الذي أوحى إليهم بالجحود العقيدي. فيربط الحاضر لديهم بالماضي والمستقبل الذي يواجههم في الدنيا، بالإنسجام بين ما يبشرون به من تعاليم وما يمارسونه من أعمال، وفي الآخرة بالمسؤولية الكبرى التي يواجهونها أمام الله، عندما يستغلون الدين في عملية بيع وشراء ومساومة، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم.

ولنقف لحظات أمام هذه الآيات الكريمة التي توجّه بها إلى بني إسرائيل ويقصد بهم اليهود.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة: ٤٠ ـ ٤٨).

إنه الأسلوب الذي يجمع بين اللين والشدة، والموعظة والتذكير، من أجل تطويق كل حالة نفسية معقدّة، تقف حائلاً بين الإنسان وبين الهدى، لو كان هناك مجال للهداية. وقد أراد القرآن الكريم من هذه الآية أن تكون بداية لخلق جوّ هادىء، يسمح للحوار بأن يتخذ سبيله إلى حياة الناس، عندما يرجع المعاندون إلى أنفسهم ويشعرون بالحاجة إلى التفكير الذي يربطهم بالواقع، بعد أن تزول عنه عوامل الشك والتشويه،

ويوقفهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة.

ولنلاحظ ـ بدقة ـ مفردات هذا الأسلوب، فنجد أنه ذكرّهم بداية بالنعم المتتالية التي أنعمها الله عليهم دون سائر الناس، ثم طالبهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم لله ـ سبحانه ـ ليفي لهم بعهده في الدنيا والآخرة، خاتماً الآية بالإنذار الرهيب الذي يدعوهم إلى خوف الله، عند ميلهم إلى الإنحراف. وفي مثل هذا الجو يضعهم، وجهاً لوجه أمام الدعوة الجديدة، لأن الإستجابة لها هي النتيجة الطبيعية لشكر النعم وللوفاء بالعهد وللخوف من الله.

ثم ينعطف إلى واقعهم المنحرف الذي يتمثل في خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق، وعدم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على الرغم من معرفتهم بحرمة ذلك كله. ويخاطبهم بعتاب زاخر بالقوة والمرارة على ذلك الواقع الذي يدعو فيه الإنسان إلى البّر، وهو يعمل ضد ما يدعو إليه. ويبدأ لفتةً جديدةً معهم تدعوهم إلى الإستعانة على الإنحرافات النفسية بالصوم والصلاة التي ترتفع بها النفس في طمأنينة وخشوع إلى الله، عندما يتجسد في أعماقها الشعور الحيّ والإحساس العميق بلقاء الله والرجوع إليه. وينتهي الخطاب، كما بدأ، بالتذكير بنعم الله الكبيرة عليهم، وبالدعوة إلى التقوى ومخافة الله الذي لا ينفع الإنسان شيئاً عند الوقوف أمامه إلا عمله، ليكون العمل شعار الإنسان للنجاح في الدنيا، والسعادة في الآخرة. إننا نستشعر مع هذا الأسلوب الرائع، كيف يقف الإنسان أمام الله، مستعرضا مواقعه وتطلعاته، وماضيه ومستقبله في الدنيا والآخرة، ليواجه مسؤولياته الكبرى بعيداً عن أي ضباب يحجب عنه صفاء الرؤية.

الأسلوب في عطائه الحاضر

وربما نشعر بالحاجة إلى ممارسة هذا الأسلوب في مواجهة موقف العناد من المعاندين، فقد يكون خلق هذا الجو بالنسبة إلى بعض الأشخاص أو الجماعات، أمراً

مجدياً حيث تحتشد عناصر التركيز والإثارة، التي تفسح المجال للإنسان ليقوم بعملية مسح واسعة لأعماقه ولآفاقه ولنوازعه، ليحدد موقفه على ذلك الأساس.

ونلمح في هذا الإتجاه، أنّ علينا أن لا نغفل دور الموعظة التي تنتقل بالإنسان إلى الله وإلى اليوم الآخر الذي يواجه فيه نتائج المسؤولية وجهاً لوجه، لأن النفس قد تلين وتشفى وتخشع أمام الوعظ في حالات الصفاء الروحي والهدوء النفسي الذي قد تلتقي فيه بروح الله.

القرآن يتابع الحوار من أجل كشف المواقف

.. وتابع القرآن الكريم عملية الحوار أو الإيحاء بإيجاد أجوائه، من أجل كشف مواقفهم القلقة، ولإبعاد الناس عنهم بعد اليأس من إمكانية هدايتهم، كما أوضح الله ذلك لنبيّه محمد (ص) في قوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٥ ـ ١٤٦). ص١٦٣

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

وعلى هذا الأساس بدأت خطابات الله تعالى لنبيه محمد (ص) تتتالى لتطرح عليه القضايا التي يريد الإسلام إثارتها أمامهم، فإما أن يجيبوا عنها ويبدؤوا الحوار، لينطلق الإسلام معهم في عملية كشفٍ منظّمة، وإما أن يسكتوا ـ وهذا ما فعلوه ـ فتتحرك هذه القضايا في حياتهم لتدمغ واقعهم بشكلٍ لا يقبل الجدل.

وقد ركّز القرآن الكريم، على مخاطبتهم بالصفة التي تربطهم بالكتاب وتنسبهم إليه، لتوحي بابتعادهم عنه وعن تعاليمه، عندما يبدأ الناس عمليَّة المقارنة بين ما يطرحونه من قضايا وتعاليم، وبين ما يقومون به من ممارسات وأعمال.

ولسنا ـ هنا ـ لنستقصي الآيات الواردة في هذا الباب، بل إننا نحاول أن نشير إلى بعض النماذج المتنوعة التي تشير إلى الخط العام في الأسلوب الإسلامي للحوار.

قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٥٩). ـة: ٥٩).

إنه يتساءل بمرارة واستنكار عن السبب الذي جعلهم ينقمون على النبي وأتباعه. هل سوى الإيمان بالله ورسله ورسالاته التي أنزلت عليه وعلى الأنبياء السابقين الذي يعترف بهم أهل الكتاب؟ فإذا كان السبب هو ذلك، فكيف ينسجم ذلك مع إلتزامهم بخط الإيمان ورسالاته، ومحاربتهم طريق الكفر وأهدافه؟ أليس هذا تناقضاً بين الدعوة وبين الموقف؟ ويتوقف القرآن الكريم، تاركاً علامات الإستفهام متناثرة بحثاً عن جواب.

قال تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١).

الأسلوب يفضح عقدة اليهود التاريخية

قد نفهم من هذه الآيات أنها تتجه إلى أسلوب التعرية لهؤلاء، وفضح مواقفهم باستعراض تاريخهم مقارناً بواقعهم الحاضر مع النبي محمد (ص)، ليتعرف الناس إلى طبيعة العقدة التي تتحكم فيهم وتُطلق مواقفهم، لتبرز النتيجة الحاسمة للناس، وهي كونهم لا يرجعون في معارضتهم لما يعارضون إلى شيء من عقيدة أو إيمان، بل إلى نزعة نفعيه غرضها المحافظة على الإمتيازات المادية والإجتماعية.

ثم تُوجِّه الناس إلى أساليبهم الملتوية في إلباس الباطل ثوب الحق وتزييف الحقائق وكتمان الحق الأصيل ومناقضة أفعالهم لأقوالهم، مما يجعلهم في مركز الإتهام في كل زمان ومكان، ويفقدهم الثقة التي يحاولون الحصول عليها لتنفيذ ما يريدون، فيحذرهم الناس وينتبهون إلى كل أعمالهم وأقوالهم فلا ينخدعون بأي منها.

بعد ذلك توحي الآيات بوحدة موقف اليهود في التاريخ، لإنطلاقهم من قاعدة واحدة ولرضا الآخرين بما عمله الأولون، مما يجعل المسؤولية الأدبية مشتركة باعتبار الحاضر امتداداً للماضي. وقد ورد في حديث الإمام علي (ع) «إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموّه بالرضا»[1]. وفي هذا إيحاء بأن المجتمع يتحمل مسؤولية ما يفعله بعض أفراده إذا رضي بذلك ولم ينكره.

إنهم ينكرون أن ينزل الله على بشر من شيء، لأن البشر ليس في مستوى الرسالة، أو لأن ذلك غير معقول بنظرهم.

فإذا كان ما تقولونه ثابتاً، فكيف تفسرون نزول التوراة على موسى؟ أليس هو بشراً كمحمد (ص)؟ فمن الذي أنزلها عليه؟ أليس هو الله؟ ولا بد أن يكون الرد إيجاباً، لأنهم يتاجرون بالتوراة باسم الله، فيُبدون ما ينفعهم في تجارتهم، ويخفون ما يكشف زيفهم في خداعهم.

---

(١) نهج البلاغة جزء ١٠ باب ١٩٤ ص ٢٦١.

وفي ضوء هذا الجواب تبرز القضية في إطارها الطبيعي، أن من الممكن أن ينزل الله الوحي على بشر، ولا مانع من أن يكون محمد هو ذلك الإنسان - النبي الذي أنزل الله عليه القرآن - ويترك القرآن القضية تتفاعل في الواقع، وإن لم يواجهوها إلا بالصمت وهو - أي الصمت - أكثر دلالة من أيّ كلام، لو فهمه الآخرون.

قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة: ٦ ـ ٨).

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٤ ـ ٩٦).

إنهم يزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه؛ وأنهم شعب الله المختار، وأنهم أحب الناس إليه من دون الناس، وأن الجنة لهم دون غيرهم وللآخرين النار.

ويقف القرآن الكريم ليقدِّم إليهم طلباً بسيطاً جداً، وهو أن يتمنوا الموت من كل قلوبهم، لأن المؤمن لا يحب الحياة إلا ليستفيد منها ما يقرِّبه إلى الله، بأن يستزيد من العمل الذي قصَّر فيه، وليستغفر الله في ما قدّمه من ذنوب. أمّا إذا كان واثقاً بالمصير وبالنجاة في الآخرة، فما الذي ينتظره ليواجه النعيم المنتظر بكل شوق ولهفة.

ولكنهم لا يجيبون. ويتولى القرآن الإجابة عنهم، فهم لا يتمنون الموت، لأن جرائمهم تنتظرهم لينالوا جزاء ما قدموه من قتل الأنبياء بغير حق، وأكلهم السحت وقد نُهوا عنه، وتكذيبهم للرسل، وتحريفهم لكلام الله، وكتمانهم لكتابه.. وغير ذلك من الأمور التي تجعل من الدار الآخرة كابوساً يرهق تفكيرهم في المستقبل، ولذا فإنهم يكرهون الموت كراهتهم للنار.

المطالبة بالبرهان

ولا يترك القرآن هذه النقطة إلا ليثيرها من جانب آخر، وهو مطالبتهم بالبرهان على هذه الدعوى من جهة، ثم التأكيد على المقياس الذي جعله الله أساساً للقرب والبعد عنه، وبالتالي لغضبه ورضاه من جهة أخرى، وهو العمل بما يأمر وترك ما ينهى عنه، من دون فرق بين اليهود والنصارى وغيرهم، فليس لله أيّة علاقة خاصة بأحد من خلقه، بل الناس كلهم سواسية أمامه في العبودية لا يفضل إنسان إنساناً إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، مهما كانت درجته، ومهما كان نسبه وهذا ما صرحت به الآيتان الكريمتان في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨).

إنه يعلق على أقوالهم، بأنها تمنيات يعيشونها كما يعيش الناس الأمنيات في القضايا الأخرى من الحياة، ولكنها لا تتحول إلى حقائق، لأن الحقيقة في أيّ شيء تستند إلى البرهان الذي لا يملكون أساسه، ولذا فإنهم كاذبون في دعواهم هذه.

أما الآية الثانية، فتشجب الفكرة بالتساؤل في البداية عن السبب في عذاب الله لهم لما اقترفوه من ذنوب، مع أن الله لا يعذّب أحباءه وأولياءه. ثم يطرح الفكرة الحاسمة التي تؤكد أن الناس سواسية أمام الله في الطاعة والمعصية، في العقاب والثواب، ولله السلطة المطلقة في المغفرة لمن يشاء، والعذاب لمن يريد، دون أن يكون لأيّ إنسان إمتيازاً خارج نطاق إرادته وحكمته. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، كمبدأ عام، في خطابه للمسلمين، ليقطع عليهم طريق هذه الإدعاءات أو التمنيات.

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٢ ـ ١٢٤).

فالقضية في الآخرة تتبع العمل الذي يبعد المسيء عن الله ويقرِّب المحسن إلى الله، فلا وليّ ولا نصير من دون الله لأحد، مهما كانت صفته أو قيمته، مسلماً كان أو يهودياً أو مسيحياً. تلك هي الحقيقة، وما عداها فكله أحلام لا أساس لها من الصحة، ولا قرابة لها بالحق.

معايير الصدق

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٨). ص١٦٨

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (آل عمران: ٧١). ص١٦٨

إنه ـ في هاتين الايتين ـ يعود من جديد إلى التوراة والإنجيل، ليطلب ممن ينتسبون إليهما أن ينسجموا مع تعاليمهما ويقيموهما في حياتهم، إذا كانوا صادقين في انتمائهم إلى هذين الكتابين، وإلاّ فليكشفوا عن هويّتهم الحقيقية، ولا يسترسلوا في الزيف وتشويه الصورة، بما يموّهون به على البسطاء من الناس، في إلباس الباطل ثوب الحق، وكتمان ما يعرفونه من الحق، خشية أن يتخذ المسلمون ذلك حجة عليهم .

وهي دعوة جديدة إلى إظهارالتوراة والإنجيل أمام الناس، ليواجهوا هذا التحدي بمثله لو كانوا صادقين. ولكن القرآن الكريم يستدرك، ليعطينا الصورة الصحيحة عن مستقبل موقفهم الذي يدفعهم إليه الطغيان والكفر المتنامي في صدورهم، إزاء ما أنزل

الله إلى النبي. ولذا فلا أمل من الحديث أو من إدارة الحوار معهم من أية جهة كانت، لأنه جهد ضائع لا فائدة منه.

وفي موقف آخر يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٩).

إنه - في هذه الآية - يتوجه إليهم بكلمات لا تخلو من المرارة والوعيد؛ فقد كان من المفترض بهم أن يكونوا الشهداء على صحة دعوة النبي محمد باعتبارهم من أهل الكتاب الذي يعرفون ما فيه. فإذا بهم على العكس يتحولون إلى عناصر مضلّلة، تصد الناس عن سلوك الطريق المستقيم.

إنه يتساءل عن سبب ذلك كله، كمن يريد أن يبدأ الحوار معهم من هذا المنطلق، ليحرك النقاش وصولاً إلى الحقيقة. ولكن الآية في أسلوبها الإحتجاجي، تستخدم إطار التعرية لتفصح - بأبلغ بيان - عن الإنحراف في الخطى، بفعل العوامل الذاتية التي تسببه وتظهره. ويختم الآية بالوعيد، معلناً أن الله - سبحانه - ليس بغافل عن ذلك كلّه، بل إن علمه الواسع يحصي كل شيء مهما كان دقيقاً وخفياً، ويحاسب كل الذين يتمردون على إرادته ويتحدون رسالاته حساباً عسيراً.

دعاوى مزيفة

قال تعالى﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٥ - ٦٨).

الذي يلوح من هذه الآيات أن أهل الكتاب كانوا يحاولون إستغلال إسم إبراهيم

وقداسته في نفوس الناس في المجتمع العربي آنذاك، باعتباره بَانِي الكعبة آنذاك، والنبي المعترف به من جميع الديانات والإتجاهات المختلفة، بما في ذلك الإتجاه الوثني المشرك. فكانوا ينسبونه إلى كل فرقة منهم، فيحاول اليهود أن ينسبوه إليهم، كما يقف النصارى ليؤكدوا إنسجامه مع عقيدتهم، كما يتضح في أسلوب الآية في رفض نسبته إلى اليهودية وإلى النصرانية، لوضوح الزيف في ذلك الإدعاء، نظراً لتأخر الإنجيل والتوراة زمنياً عن إبراهيم، فكيف يمكن انتسابه إلى الفكرة التي جاءت بعده.

ثم يشرح لنا القرآن إسلام إبراهيم وإخلاصه لله وبُعدَه عن الإشراك الذي خالط كِلا الفريقين، لينتهي - بعد ذلك - إلى أن أولى الناس به أتباعه الذين أسلموا لله، كما أسلم وجهه له، وهذا النبي والمؤمنون به، لأنهم ينطلقون من فكرة الإسلام لله والإخلاص له، وينسجمون مع فكرة التوحيد الخالص التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

وغاية هذا الأسلوب إعطاء الصورة الواقعية للموضوع، عن واقع إبراهيم وواقع الإسلام، وطبيعة العقيدتين اللتين ينتسبون إليهما دون زيادة ولا نقصان، بل هو الحق الصريح بعينه الذي يخاطب الواقع.

وقد نجد ملامح هذا الأسلوب الذي استخدمه أهل الكتاب، في استغلال إسم بعض الشخصيات المحترمة، لإضفاء صفة القداسة على ما يدعون، باعتبار إنتمائها إليهم.

وهذا ما نجده حاضراً في مواقف بعض التيارات المعاصرة، ولا سيما التيارات الاشتراكية الماركسية التي تحاول أن تضفي على فكرها طابع القداسة بالإيحاء أن بعض الشخصيات تنتمي إلى فكرها، كشخصية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي وقف ضد السلطة الحاكمة المتمثلة في خلافة عثمان وولاية معاوية، التي اتخذت مال الله ملكاً شخصياً يتلاعب به الأولاد والأقرباء، وطعمةً للمتزلفين من انسباء وأصدقاء.. وثار ثورته المعروفة المستمدة من فكر القرآن وشريعته، حاملاً الآيات القرآنية شعاراً لتحدي الإنحراف، كالآية الكريمة:

﴿... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤ ـ ٣٥). ص١٧١

ولكنهم وجدوا في ذلك وفي غيره من المواقف، ثورةً على الرأسمالية ودعوة إلى الإشتراكية، وانطلقوا يبشرون بهذه الفكرة في كل مجال ينفذون منه إلى عقول البسطاء من الناس.

ومما يزيد الموضوع غرابة أن بعض أهل الفتيا الذين يجاملون الحكم القائم في كل بلد، ركّزوا هذه الفكرة عندما أصدروا بياناً [1] يهاجمون فيه أبا ذر الغفاري، رداً على

---

(١) أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر في سنة ١٣٦٧/ بياناً ضد كتاب يقول فيه صاحبه بوجود الشيوعية في الإسلام، من خلال ثورة أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه، ونحن ننقله هنا بنصه، من كتاب الغدير للعلامة الشيخ عبد الحسين الأميني ج/٨ ص ٣٦١.

أن من مبادىء الدين الإسلامي إحترام الملكية، وإن لكل أمرىء أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لإكتساب المال وتنميته ما يحبه ويستطيعه، ويتملك بهذه السبل ما يشاء. هذا وقد ذهب جمهور من الصحابة وغيرهم من الفقهاء والمجتهدين إلى أنه لا يجب في مال الأغنياء، إلا ما أوجبه الله من الزكاة والخراج والنفقات الواجبة بسبب الزوجية أو القرابة، وما يكون لعوارض مؤقتة وأسباب خاصة، كإعانة ملهوف وإطعام جائع مضطر، وكالكفارات وما يتخذ من العدة للدفاع عن الأوطان وحفظ النظام؛ إذا كان ما في بيت مال المسلمين لا يكفي لهذا ولسائر المصالح المشروعة، كما هو مفصل في كتب التفسير وشروح السنة وكتب الفقه الإسلامي. هذا هو الواجب، غير أن الإسلام يدعو كل قادر من المسلمين أن يتطوع بما شاء من ماله، يصرفه في وجوه البرّ والخير مع عدم الإسراف والتبذير في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ولاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقكَ ولا تبسطها كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلوماً مَحْسُوراً﴾ (الاسراء: ٢٩) وكما قال عز وجل ﴿والذين إذا أنْفَقُوا لم يُسرفوا ولَمْ يَقْتُروا وكان بَيْنَ ذلك قَواما﴾ (الفرقان: ٦٧)، وكما تدل عليه السنة في أحاديث كثيرة. وذهب أبو ذر الغفاري إلى أنه يَجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال مجموع عنده في سبيل الله، أي في سبيل البر والخير، وأنه يحرم إدّخاره. وقد تكفل كثير من علماء المسلمين بردّ مذهبه، وتصويب ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين، بما لا مجال للشك معه في أنّ أبا ذر مخطىء واستنكره الناس في زمنه واستغربوه منه، قال الآلوسي في تفسيره بعد ما بيّن مذهبه ما نصّه: (وكثر المعترضون على أبي ذر في دعواه تلك وأن الناس يقرؤون له آية المواريث ويقولون: لو وجب إنفاق كل المال لم يكن للآية وجه. وكانوا يجتمعون عليه مزدحمين حيث حلّ مستغربين منه ذلك). انتهى (كلام الآلوسي). =

إستغلال إسمه، وحمايةً لبعض الأسماء الضخمة المقدسة التي ثار عليها هذا الصحابي الجليل، ومجاملةً للحكم الحاضر المنحرف الذي لا يريد لأيّة فكرة مشرقة ثائرة أن تنطلق في حياة الناس، لا سيما إذا كانت تلك الفكرة نابعة من أعماق الفكر الإسلامي، ويؤكدها التاريخ الحيّ لبعض الشخصيات التي تزيد إيمان الناس بالثورة على الحكم المنحرف، حتى لو أحاطت به هالة مقدسة، ويشجعهم على إعلانها في مواجهة الحكم المنحرف الذي يريد أن يمنح نفسه قداسة دون أساس، وحصانةً دون سبب.

ولولا هذا الإغراق في مجاملة الحكم الذي يعاصرونه، لأمكنهم أن يفضحوا عملية الإستغلال تلك، بالكشف عن الفروق الأساسية، بين ما تتضمنه الدعوة الإشتراكية - بمعناها الفلسفي والحقوقي - وبين ما تضمنته دعوة أبي ذر في أفكارها الإسلامية التي قد تلتقي بالإشتراكية في بعض معانيها، ولكنها تختلف عنها في الشكل والمضمون، والروح في أكثر من جانب. ثم في محاولة الكشف عن زيف العلاقة بين هذه الشخصية العظيمة والفكر الإشتراكي الذي يعود إلى زمن بعيد عن زمن شخصية أبي ذر، فكيف يمكن انتساب هذا الأخير إليه؟ تماماً كما هو الحال في حوار النبي مع اليهود والنصارى في قضية إنتساب إبراهيم في فكره إليهم،حيث ركّز في البداية على الفارق

= ومن هذا يتبين أن هذا الرأي مغلوط وصاحبه مجتهد مخطىء، مغفور له خطؤه بل مأجور على إجتهاده، ولكنه لا يُتابع في ما أخطأ فيه بعدما تبين أنه خطأ لا يتفق هو وما يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله (ص).

ولما كان مذهبه داعياً إلى الإخلال بالنظام والفتنة بين الناس، طلب معاوية والي الشام من الخليفة عثمان أن يستدعيه إلى المدينة - وكان أبو ذر وقتئذٍ في الشام - فاستدعاه الخليفة فأخذ أبو ذر يقرر مذهبه ويفتي به ويذيعه بين الناس، فطلب منه عثمان أن يقيم بجهة بعيدة عن الناس، فاقام في «الربذة» (مكان بين مكة والمدينة).

قال ابن كثير في تفسيره: كان من مذهب أبي ذر تحريم إدخار ما زاد على نفقة العيال. وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى عثمان وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات في خلافة عثمان... (إلى آخر البيان).

الزمني، وانتهى إلى تحديد الملامح الأصيلة لشخصية إبراهيم (ع)، بأسلوب يكشف الفروق الكبيرة بينه وبينهم هؤلاء، ويوضح ـ من خلالها ـ أتباعه وأعداءه.

مع فكرة التثليث

لقد أثار القرآن مع أهل الكتاب من النصارى قضية المسيح، وموقعه من العقيدة الإلهية، ومضى يناقش الفكرة، من خلال واقع التوحيد الحق الذي جاءت به الرسالات ـ بما في ذلك رسالة السيد المسيح (ع) ـ وقد طرح أمامه الفكرة التي تقول إن المسيح هو ابن الله، كما طرح الفكرة التي قالها اليهود إن عزير ابن الله[1]. وذلك في قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

ولم يقف القرآن طويلاً عند الفكرة الثانية، لأنها لم تنتشر كثيراً في حياة الناس وأفكارهم، بل اكتفى بالإعلان أولاً أن هذه الدعوى تشبه دعوى الكافرين، ولا تنسجم مع واقع الإيمان الحق الذي يعلن هؤلاء إنتسابهم إليه من خلال إنتمائهم إلى كتاب الله وشريعته، فقد كان الوثنيون في الشرق والغرب يذهبون هذا المذهب أيضاً. ثم اعتبر الإحتجاجات التي سجلها القرآن حول نسبة الولد إلى الله ـ في حواره مع المسيحية في

---

(١) عزير هو الذي يسميه اليهود عزرا، غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ يسوع، فصار بالتعريب عيسى، ولفظ يوحنا فصار كما قيل يحيى. وعزرا هو الذي جدّد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرّب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيرّهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن، ثم لما فتح «كورش» ملك الفرس ـ بابل شفع لهم عنده عزرا ـ وكان ذا وجه عنده ـ فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانياً بعد ما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح، على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة، وإن كانوا افتقدوها أيضاً في زمن انتيوكس ـ صاحب سورية. الذي فتح بلادهم حوالي سنة ١٦١ق. م وتتبع مساكنهم فأحرق ما وجده من نسخ التوراة، وقتل من وجدت عنده على ما في كتب التاريخ.

هذا الشأن ـ أساساً للرد على الفكرة من أساسها، باعتبارها تناقض فكرة التوحيد ـ الأم، دون حاجة للنظر في التفاصيل.

وربما لا يجد الباحث نصاً تاريخياً واضحاً، على طبيعة الفكرة التي نسبها القرآن الكريم إلى اليهود في قولهم عن عزير ابن الله، هل هو بالمعنى المسيحي للكلمة، الذي يرجع إلى اعتباره إلهاً أو مشتقاً منه، أو وجود شيء من جوهر الربوبية فيه؟ أو هو معنى مجازي تماماً كما نقول نحن أبناء الله وأحباؤه، كأسلوب من أساليب الزهو بشرف الإنتساب إلى الله ولو بلحاظ بعض الملابسات المجازية؟

ويحدثنا صاحب تفسير الميزان الذي أثار هذا التساؤل، أن بعض المفسرين قد ذكر، «أن هذا القول منهم عزير ابن الله» كلمة قالها بعض اليهود في عصر النبي محمد (ص) لا جميعهم، كما أن قولهم «إن الله فقير ونحن أغنياء» وكذا قولهم «يد الله مغلولة» التي قالتها بعض يهود المدينة الذين عاصروا النبي (ص)، فنسب تعالى قولهم إلى الجميع لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء وروّية متشابهة التأثير[1] .

وليس من شأننا تحقيق ذلك كله، فإن القرآن ينطلق في احتجاجه على الأفكار المنحرفة من قاعدة مناقشة الفكرة ولو كانت مجرد رأي يدور بينهم دون أن يشكل تياراً في حياتهم، ليبعد الناس عنها في حملته لقيادتهم إلى الطريق المستقيم.

وقد يُلفت نظرنا ـ ونحن نتابع الأسلوب الحاسم في خطابه لهؤلاء ـ أن القرآن الكريم لا يتساهل ـ أبداً ـ في القضايا التي تواجه العقيدة بالله، فلا يهمل أيّ جانب من جوانبها، مهما كانت درجة إنتشاره في المجتمع، ومهما كانت قيمته التأثيرية في حياتهم وأفكارهم، ولذلك نجده يلاحق كل فكرة صغيرة أو كبيرة، مما يوحي إلينا بقيمة العقيدة الصافية الخالية من الإنحراف، لأن أيٌ إنحراف في التصور سوف يؤدي إلى إنحراف في العمل وإرتباك في خطى الرسالة نحو أهدافها الكبيرة في الحياة.

---

(١) الميزان السيد محمد حسين الطباطبائي، ج٩/ ص ٢٥٤.

ولعل مثل هذا الإتجاه، يقودنا إلى مواجهة التيارات المعاصرة التي تحاول أن تجعل من كل القضايا الدينية المثارة في إطار العقيدة، شيئاً تافهاً أو فكراً هامشياً، لا يستحق الوقوف عنده طويلاً أو إثارة الأفكار حوله، بإزاء القضايا العملية الأخرى.

وفي هدى ذلك نقرر موقفنا الحاسم من إعتبار الجانب العقيدي والجانب العملي وحدةً قائمة بذاتها، ليس فيها أيّ إزدواجية أو إنفصال، باعتبار العقيدة أساساً للعمل، واعتبار العمل تعبيراً عن حركة العقيدة في الحياة.

وقد تحدث القرآن الكريم - في مواضع أخرى - عن عقيدة التثليث، التي تُعتبر الفكرة المسيحية الأولى - المسيح ابن الله - جزءاً منها، لأن التثليث يرتكز على أقانيم ثلاثة، الأب والإبن والروح القدس.

وأثار في موضع آخر، فكرة اعتبار عيسى إلهاً معبوداً، واعتبار أمه كذلك وذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦).

وربما تلتقي هذه الأفكار مع بعضها، لأن النبوة في هذا المنظار لا تتنافى مع الألوهية، بل تنسجم معها إنسجاماً حقيقياً في إطار فكرة التثليث التي تعتبر الإبن هو الله، كما تعتبر الله شيئاً لا ينفصل عن الإبن، على أساس فكرة الإله الواحد المتعدد الأقانيم لا المتعدد الذات، في تحليل فلسفي لا يستطيع أن يصل به الإنسان إلى فكرةٍ معقولة.

وكان الإسلام واضحاً كل الوضوح في الأفكار التي طرحها أمام هذه العقيدة - كعادته في كل ما يطرحه من قضايا، وفي ما يناقشه من أفكار - على العكس من العقائد الأخرى التي يطرحها أصحابها في أجواء ضبابية مبهمة تتحرك فيها الألفاظ والمعاني كما تتحرك الأشباح، دون أن تبصر شيئاً تحدد فيه ملامح الفكرة بشكل

واضح محدّد. فهم لا يمانعون في إنطلاق العقيدة من مستوى يرتفع عن مستوى العقل، لأن مجال الإيمان يختلف عن مجال العقل ـ كما قال بعض فلاسفة المسيحية ومفكريها في حديثهم عن عقيدة التثليث وعلاقتها بوحدة الإله فهذا شيء يجب الإيمان به وإعتقاده أولاً، وبعد ذلك يجتهد المسيحي في فهم ما اعتقد. يقول حبيب سعيد في هذا الشأن: إن الإنسان لن يبلغ هذا الإيمان عن طريق المطارحات النظرية، بل بإلهام من الله وإعلان منه[1] .

ولم يوافق القرآن على هذا المنهج في قضية الوصول إلى الإيمان، بل استخدم ـ في حواره المنهج العقلي الذي لا يمنع وجود مساحات من تفاصيل العقيدة، لا تخضع للرؤية وللحساب، كما في الإمتداد اللانهائي لله، أو التصور الواضح لحقيقة الله؛ ولكنه ينطلق بالإنسان ـ في هذه المجالات ـ إلى أن يؤمن بما يقوده الدليل إليه، إمكاناً و استحالة، ثم يقف حيث يقف به الدليل دون أن يتجاوزه في قليل أو كثير، وبالتالي فإنه لا يكلف الإنسان أن يؤمن قبل أن يفهم ما يعتقد، لأنه لا معنى للإيمان بما لم يفهمه على أساس أن الإيمان نور والجهل ظلمة.

ولهذا كله أراد القرآن أن يجعل القضية كلّها في إطار العقل الذي يحاكم الفكرة، ليحكم لها أو عليها، تبعاً لمقتضيات الحكم وأسبابه.

وقد تمحورت المناقشات القرآنية حول المقارنة بين هذه الأفكار، والواقع البشري لعيسى (ع) في جميع مظاهره وأوضاعه من جهة، وبينها وبين واقع العقيدة الإلهية وما تمثله من الصفات الأساسية للإله من جهة ثانية، مما يخلق لدى الإنسان إنطباعاً عفوياً بأن هذه الفكرة لا تتناسب مع تلك العقائد جملة وتفصيلاً.

إنه الحوار الذي يتحرك في أكثر من مجال ومع أكثر من صورة ليثير الدليل ويقدم الحجة على بطلان هذه الأفكار، بأسلوب الخطاب الموّجه إلى الآخرين، ليثير فيهم روح المواجهة العنيفة تارةً والهادئة أخرى، أو بالأسلوب التقريري الذي يحث الآخرين من

---

(١) مقارنة الأديان ج٢/ ص ١١٨ (نقلاً عن أديان العالم الكبرى).

خلال تقرير الفكرة على التفكير بتجرّدٍ ، بعيداً عن أية تأثيرات سابقة لمواجهة الحقيقة من دون إلتباس أو إنحراف.

ونحن ـ هنا ـ في محاولة جادة لإستعراض الآيات الكريمة التي تعرضت للعقيدة في أكثر من صورة، على ضوء وعرضناه من ألوان مختلفة.

مع آيات التثليث

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: ١٧١).

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (المائدة: ٧٣ ـ ٧٤).

إن هذا الأسلوب يبدأ من الفكرة التي تحكم على العقيدة، من خلال انسجامها مع الحق في القلب وفي اللسان، فلا مجال لقبول الخروج عن الحق والغلوّ في الدين.

وفي ضوء ذلك يطرح الفكرة، من خلال حقيقة المسيح عيسى بن مريم كونه رسول الله، ومهمته الكبرى في حياة الناس هي حمل الرسالة، كأيّ رسول أو نبيّ آخر يبعثه الله ليؤدي رسالته كما تحدث عن نفسه في قوله تعالى:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ (مريم: ٣٠ ـ ٣٢).

ولكنَّ لعيسى (ع) سمة تميزه عن سائر الناس والأنبياء، فهو لم يخضع في ولادته

لنظام التناسل الطبيعي الذي أراده الله لولادة الإنسان كسائر الانبياء والرسل والناس، بل كان ـ كما تقول الآية ـ كلمة الله ألقاها إلى مريم، وروحاً منه أفاضها عليه، كما أفاضها على آدم من قبل، ليكون مظهراً لقدرة الله، في ولادة إنسان بلا أب، كما كان آدم مظهراً لقدرته تعالى في ولادة إنسان من غير أب وأم، كما أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وليست الكلمة، أو الروح، في الآية، تعبيراً عن الجزء الإلهي أو الحقيقة الإلهية، لأن طبيعة الله لا تتجزأ، فهي بسيطة كلّ البساطة، ولا يمكن أن تنتقل من مكان إلى آخر.

بل المراد بهما مظهر قدرة الله وسرّ إبداعه، في ما أفاضه على جسد آدم الهامد الجامد الخالي من الروح، كما أفاضها على مريم الفاقدة لأسباب الولادة الطبيعية، ولهذا التقت الكلمات القرآنية في التعبير عنهما، فنقرأ ـ مثلاً ـ في قصة آدم التي يعبر عنها حوار الله مع الملائكة في الآية الكريمة:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (ص: ٧١ ـ ٧٢).

ونقرأ في قصة مريم وابنها، قوله تعالى:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١).

أما وصف عيسى (ع) بالكلمة، فلأن وجوده إنطلق من كلمة الإيجاد المتمثلة في قوله تعالى: «كن» المعبِّرة عن إرادته ـ سبحانه ـ دون تدخل الأسباب الطبيعية، خلافاً للناس الآخرين، مع أن الجميع خاضعون لإرادة الله وقدرته التكوينية.

ولعله الخلاف بين المفسرين، في ما يتعلق بالكلمة وبالروح، خاضع لطريقتهم في فهم القرآن الكريم، على أساس الإستنطاق الحرفي لمعنى الكلمتين، والإبتعاد عن الجو الذي يحكم الفكرة، وهو الجو الذي تتحرك فيه القدرة الإلهية بشكل غير مألوف، مما يحتاج إلى الطريقة الكنائية في التعبير، التي يسوغ ـ معها ـ إعتباره مصداقاً لروح الله أو نفخة من روحه، تماماً ـ مع الفارق الكبير في التشبيه ـ كما يقول الأديب أو الشاعر عن القصيدة أو الأثر الفني الذي يصدر عنه، بأنها قطعةٌ من روحه، أو أنها ذوب روحه أو أنه أودع فيها روحه للتدليل على ما بذله فيها من جهد فني، أو صرفه عليها من طاقة. ومن الطبيعي أن ذلك لا يصلح للإنطباق على أفعال الله بشكل دقيق، على أساس المعنى الحقيقي للكلمة، لأن الجهد لا معنى له في ما يخلقه الله، ولكنه يتجسد في مظهر القدرة وعظمة الخلق.. وبهذا يكون التعبير بالروح التي نفخها الله في الجسد، أو اعتبرها نفس المخلوق، كناية عن قدرة الله التي بها يخلق ما يخلق ويُبدع ما يبدع.

تلك هي صفة عيسى (ع)، التي يريد الله للمؤمنين أن يتمثلوها في إيمانهم، لأنها تمثل الصفة الواقعية التي ترتفع عن الغلو، وتنسجم مع طبيعة الأشياء. ثم يدعوهم ـ من خلال ذلك ـ إلى الإيمان بالله ورسله، وإلى الإمتناع عن القول بالتثليث فإن ذلك خير لهم، لأن الله إله واحد، تعالى عن أن يكون له ولد، سواءً في ذلك ما يعطيه ويدل عليه لفظ الإبن في المفهوم البشري من التولد عن طريق التناسل، مما يستتبع وجود الزوجة، أو ما يحاول بعض متفلسفة المسيحية أن يحملوه عليه، وهو التولد الذاتي الذي يجعل له الطبيعة الإلهية المستمدة من الأب. فإن ذلك كله مستحيل في حقه ـ كما سنرى في ما يأتي من حديث. وبهذا تلتقي آيات التثليث بالآيات التي تجعل لله الإبن، كما في الآية الكريمة المتقدّمة، وكما في قوله تعالى في آية أخرى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٦ - ١١٧).

ونلاحظ ـ في هذا المجال ـ أن القرآن اتخذ في أسلوب الرد على هذه ا لفكرة، طريقة التركيز على عظمة الله وتنزيهه عن ذلك بما توحيه كلمة «سبحانه»، ثم محاولة إلفات الإنسان إلى أن الله هو مالك السماوات والأرض وما فيها، وأن كل ما فيها قانت له خاضع لإرادته، أنه مبدع كل شيء، وأنه لا يحتاج في إيجاد أيّ شيء ـ مهما عظم ـ إلاّ إلى تعلق إرادته به التي تعبّر عنها كلمة الإيجاد وهي قوله «كن».

وإذا كانت القضية على هذا الأساس، فأيّ حاجة به إلى جعل الولد بأيّ معنى كان؟ وما معنى التثليث بعد ذلك؟

ويلتقي هذا الأسلوب، بالطريقة القرآنية العامة التي لا تميل إلى التعقيد في مجالات الإحتجاج، بل تتبع سبيل التبسيط والتسهيل الذي يخاطب الفطرة الصافية عن قرب، لأن ذلك هو السبيل الصحيح للإيمان الحق، حيث يهيئ الجو للفطرة أنّ تتحرك للوصول إلى الحقيقة من أقرب طريق.

وبهذا ندرك أن القرآن الكريم لم يدخل مع هؤلاء في جدل فلسفي حول قضية التثليث والوحدة، وما يلزم ذلك أو يستتبعه من الوقوع في الفروض المستحيلة، بل اكتفى بالتأكيد على الوحدة التي يقرّها هؤلاء وتقتضيها الأدلّة؛ ثم أطلق النهي عن القول بالتثليث، وأكّد كفر القائلين به، لأنه يتنافى مع التوحيد الذي يرفض تعدّد مظاهر الطبيعة الواحدة، كما يرفض تعدد الطبائع؛ فإن التوحيد الإلهي لا يلتقي بأيّ معنى من هذه المعاني.. وترك للفطرة أن تقارن ـ بعد ذلك ـ وتحكم دون أن يحدّد لها تفاصيل المقارنة والحكم، إنطلاقاً من المنهج القرآني الذي يحاول أن يشق الطريق للفكر، ويدله على المنهج، ثم يدع له أمر سلوكه أو الإطلاع على ما فيه والإستفادة منه في ما يريد.

معالجة فلسفية

ويحاول بعض المفسرين أن يخضع الآية للإستدلال الفلسفي، فيجعل كل كلمة من الكلمات الواردة في الآية المتقدمة، إشارة إلى دليل مستقل على رفض فكرة الإبن،

وبالتالي، لرفض فكرة التثليث التي ترتكز على تلك الفكرة.

وخلاصة ما ذكره، أن هناك إتجاهين في تفسير معنى العقيدة بالإبن لله.

الأول: الإتجاه الذي يلتقي بالمعنى اللغوي للكلمة، وبالتصور العادي المألوف لدى الناس، وهو التولد على طريقة التوالد والتناسل الطبيعي الذي يتمثل في تكّون المولود من جزء من جسم الوالد.

الثاني: الإتجاه الفلسفي الذي يعتبر معنى مجازياً للكلمة وهو إنفصال شيء عن شيء يماثله في الحقيقة من غير تجزّء مادي أو تدرّج زماني، وهذا ما يرومه النصارى ـ في قولهم إن المسيح ابن الله ـ بعد تنقيحه.

أما السير مع الإتجاه الأول، فغير ممكن لأمور عديدة.

الأول: إن ذلك يجعل الله جسماً مادياً، والله منزه عن ذلك، كما حقق في محله.

الثاني: إن الألوهية المطلقة والقيّومية المطلقة لما سواه، تقتضي إفتقار كل شيء إليه في وجوده إبتداءً واستمراراً، فكيف يمكن فرض شيء غيره، يماثله في النوعية ويستقل عنه بنفسه، ويكون له من الذات والأوصاف والأحكام ما له، من غير افتقار إليه وهل هذا إلا فرض إجتماع الألوهية المطلقة وغير المطلقة في فرض واحد؟

الثالث: إن نسبة الإيلاد والاستيلاد يستتبع إمكان الفعل التدريجي عليه تعالى، وهو يستلزم دخوله تحت قانون المادة والحركة، وهو خلف بل كل ما يقع بإرادته ومشيئته يقع من دون مهلة أو تدريج.

ثم يضيف صاحب التفسير ـ وهو العلامة الطباطبائي في الميزان ـ إن قوله تعالى: في الآية الكريمة﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾إشارة إلى الدليل الأول، وقوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ إشارة إلى الدليل الثاني، وقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾، إشارة إلى الدليل الثالث. أما السير مع الإتجاه الثاني، فلا يخضع لما يخضع له الإتجاه الأول، في قضية المادية والجسمية والتدرّج، بل يواجه الرد الثاني،

وهو إشكال المماثلة التي تقتضي تحديد الألوهية المطلقة في ما يفرض ابناً لله؛ وتوضيح ذلك في إطار الإتجاه الثاني إن إثبات الأب والإبن إثبات للعدد بالبداهة، وهو إثبات للكثرة الحقيقية، وإن فُرضت الوحدة النوعية بين الأب والإبن، كالأب والإبن من الإنسان، فهما واحد في الحقيقة الإنسانية، وكثير من حيث أنهما فردان من الإنسان وعلى هذا فلو فرض وحدة الإله كان كل من سواه، ومن جملتها الإبن غير إله، مملوكاً له مفتقراً إليه، فلا يكون الإبن المفروض إلهاً مثله، ولو فرض له إبن مماثل له غير مفتقر إليه بل مستقل مثله، بطل التوحيد في الإله[1] .

ذلك هو الخط العريض في مناقشة الفكرة من وجهة عامة.

أما قضية المسيح عيسى بن مريم بالذات، فلا يمكن أن يتصور فيها ذلك، مع غض النظر عن استحالة الفكرة في ذاتها؛ لأن فكرة ابن الله تلتقي مع فكرة أنه الله، كما أشرنا إلى ذلك في ما تقدم من حديث. وكيف يمكننا أن نقرّ بذلك في ما يتصف بكل خصائص البشرية ولوازمها، تماماً كأي بشر عادي؟

وقد ركّز القرآن في أكثر من آية على استعراض الخصائص البشرية في وجود عيسى منذ ولادته إلى أن رفعه الله إليه، ثم أفاض في وصف ولادته وما أحاط بها من العوارض التي واجهته في حياته، كجسد يتأثر بكل مايتأثر به الجسد في دائرة الحياة والموت، مما يتنافى مع أي طبيعة إلهية.

أما قصة ولادته الخارجة عن نواميس الطبيعة العادية، وما قام به من معجزات وخوارق، فلا يمكن اعتبارهما دليلاً على الجانب الإلهي فيه، لأن موضوع الولادة غير المألوفة كان متمثلاً في آدم قبله، أما الخوارق فقد حدثت للأنبياء باعتراف كتب العهدين، من دون أن يكون في هذا وذاك ما يوجب اعتبار آدم إلهاً أو القول بألوهية الأنبياء. ونحن هنا في جولة مع الآيات القرآنية التي تشجب فكرة الطبيعة الإلهية، أو الجزء الآلهي في إطار النبوة وغيرها، وتقتصر على اعتبار عيسى (ع) بشراً أرسله الله

(١) الميزان في تفسير القرآن - السيد محمد حسين الطباطبائي - ج٣/ ص ٣١٥ - ٣١٧.

إلى عباده وميّزه على كثير من خلقه.

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة: ٧٥).

ويقول صاحب تفسير الميزان، تعليقاً على هذه الآية:

«وقد خص أكل الطعام ـ من بين جميع الأفعال ـ بالذكر لكونه من أحسنها دلالة على المادية واستلزاماً للحاجة والفاقة المنافية للألوهية. فمن المعلوم أن من يجوع ويظمأ بطبعه ثم يشبع بأكلة أو يرتوي بشربة، ليس عنده غير الحاجة والفاقة التي لا يرفعها إلاّ غيره. ما معنى ألوهية مَن هذا شأنه، فإن الذي أحاطت به الحاجة واحتاج في رفعها إلى الخارج عن نفسه، فهو ناقص في نفسه مدبّر بغيره وليس بإله غني بذاته بل هو مخلوق مدبّر بربوبية من ينتهي إليه تدبيره»[1] .

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٧).

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (المائدة: ٧٦).

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٧٢).

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٣/ص٣١٧.

أساليب الإيحاء بالحقيقة القرآنية التي تعلن عن إبتعاد هذه الأفكار عن رسالة المسيح وإرادته، واعتبارها دخيلة على المسيحية والمسيح. وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٦ ـ ١١٨).

الإحتجاج بالمباهلة

ورد في قصة الحوار الذي أداره النبي (ص) مع بعض النصارى من أهل الكتاب، أن النبي قد سلك مسلكاً جديداً في معالجة الموقف معهم بعد وصول الحوار إلى الطريق المسدود، وهوأسلوب المباهلة الذي حدثتنا عنه الآية الكريمة في قوله تعالى مخاطباً نبيه محمد (ص):

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٦١).

أمّا قصة هذه الآية فتشرحها لنا عدة روايات، قد تختلف في طولها وقصرها، ولكنها تتفق في الفكرة العامة التي نريد أن نستخلصها منها. ولذا فإننا سنكتفي بذكر بعضها، وهي رواية المحدّث الجليل علي بن إبراهيم القمي، التي رواها في تفسيره عن الإمام جعفر الصادق (ع).

قال: إنَّ نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله - وكان سيدّهم الأهتم والعاقب والسيّد - وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلّوا، فقال أصحاب رسول

الله (ص): يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم. فلما فرغوا دنوا من رسول الله، فقالوا، إلام تدعو؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويُحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله (ص) فقال: قل لهم ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويُحدث وينكح؟ فسألهم النبي، فقالوا: نعم قال: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٥٩ ـ ٦١).

فقال رسول الله (ص): فباهلوني، فإن كنت صادقاً أنزلت اللعنة عليّ. فقالوا: أنصفت. فتواعدوا للمباهلة، فلمّا رجعوا إلى منازلهم قال رؤساؤهم: إن باهلنا بقومه فليس نبيّاً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله، فإنه لا يقدم أهل بيته إلا وهو صادق. فلما أصبحوا، أتى رسول الله (ص) ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه علي بن أبي طالب وهذه فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين، ففرقوا، فقالوا لرسول الله: نعطيكم الرضا فأعفِنا من المباهلة، فصالحهم رسول الله (ص) على الجزية، وانصرفوا[1] .

ولعل قيمة هذه القصة ـ في موضوعنا الذي نعالجه ـ أنها تجسد لنا الأسلوب الإسلامي في الحوار، حين يريد الإحتجاج لفكره من جهة، ومواجهة الأفكار المضادة من جهة أخرى، وتعرّفنا مبلغ التسامح الإسلامي الذي يريد لأتباعه أن يمارسوه مع الآخرين إنطلاقاً من الممارسات النبوية الرائعة، من مركز القوّة لا من مركز الضعف.

فقد قدِم هؤلاء إلى مركز الإسلام القويّ، من أجل أن يناقشوا الدين الجديد، فأعطاهم النبي كل الحرية في ذلك إلى مستوى السماح لهم بأداء طقوسهم وعبادتهم في مسجد النبي، تحت سمعه وبصره في مجمع المسلمين الكبير، حتى أن النبي لم

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٣ / ص ٢٥٠.

يستجب لتساؤلهم وإنكارهم لذلك، بل طلب منهم أن يتركوا لهم الحرية في ذلك، ليشعرهم ـ بشكل فعلي ـ كيف يحافظ الإسلام على مشاعر الآخرين وحرياتهم في الإطار العام للنظام الكامل، وليعطيهم إنطباعاً ذاتياً أنه لا يؤمن بالقوة كسبيل من سُبُل إدخال الآخرين في الإسلام، دون اقتناع منهم بذلك.

وهكذا كان، ويبدأ النبي حواره معهم بإستخدام الدليل والحجة والبرهان، كما تنقله لنا القصة سؤالاً وجواباً في حوار هادىء قويّ، يستجيب للسؤال في البداية، ثم يطرح السؤال عليهم من جديد ليلزمهم بالحجة من خلال ذلك.

وقد نفهم من الآية الكريمة، أن الحوار لم يقتصر على هذا الجانب فحسب، بل تعداه إلى جميع الجوانب التي يختلف فيها المسلمون والمسيحيون في نظرتهم إلى عيسى وإلى طبيعة الاعتقاد به، لأن الآية تتناول المحاجة فيه لكل ما جاءه من العلم. ويظهر من خلال الآية ومن جوّ القصة، أنّ هؤلاء القوم لم يشاؤا الاقتناع، بل دخلوا في جدل عقيم لا يحقق أيّ هدف، ولا يصل إلى أيّة نتيجة؛ مما دعا النبي (ص) إلى طرح المباهلة عليهم، كأسلوب من أساليب التأثير النفسي عليهم يُشعرهم بثقة النبي المطلقة بالعقيدة الإسلامية، وبمفاهيم الدعوة الجديدة. حتى أن النبي كان مستعداً لأن يعرِّض نفسه للموقف الصعب، عندما يقف مع أهل بيته ليواجهوا الآخرين بالوقوف بين يدي الله، في ما تنازعوا فيه فيطلبوا منه ـ سبحانه ـ أن يجعل اللعنة على الكاذبين.

وقد أراد النبي (ص) أن يزيد من قوة تأثير الموقف وإيحائه بالثقة لدى الآخرين، لذا لم يقتصر على تقديم نفسه للمباهلة والملاعنة، بل أشرك أهل بيته معه في ذلك، مع أنه يستطيع حصر الأمر بنفسه، دون أن يترك ذلك أيّ تأثير سلبي على موقفه.

ولكنه ـ كما أشرنا ـ أراد أن يوحي لهم بالإطمئنان الكامل إلى صدق دعواه، لأن الإنسان قد يعرض نفسه للخطر، ولكنه لا يعرّض أبناءه وأهل بيته لما يمكن أن يتفاداه من خطر.

ولهذا أدرك القوم أبعاد الموضوع ، فاهتزت أعماقهم خوفاً من خوض التجربة؛ لما تستتبعه من لعنة فعلية يجسدها عذاب الله وعقابه، فقبلوا الصلح.

الدرس الذي نأخذه من الأسلوب

أما الدرس الذي نستفيده من ذلك كله، فهو العمل على توظيف الجانب الإيماني بعد استخدام الجوانب العلمية والفكرية، في الحوار بين الإسلام وخصومه، إنطلاقاً من الفكرة التي تقول: إن على الداعية أن لا يُهمل أيّ عنصر من عناصر التأثير على الآخرين لإيصالهم إلى الحقيقة، والإيحاء إليهم بالاطمئنان إلى قوّة هذه الحقيقة، إلى درجة الوقوف في أشدّ المواقف في مجالات التحدي، وثقته في قدرة الدعوة على مواجهة التحدي القوي بأقوى منه.

وربما نجد بعض النماذج التي تتصل بهذا الأسلوب، في حوار النبي محمد (ص) مع أهل الكتاب عندما دعاهم إلى اللقاء على الأرض المشتركة التي تربط بين الرسالات في الآية الكريمة المتقدمة:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

فإن الفقرة الأخيرة في الآية ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ . . .﴾ جاءت لتحدد الموقف بعد إمتناعهم عن التجاوب مع الدعوة الكريمة للّقاء والتعاون في المجالات المشتركة، وفيها يطلب المسلمون من أهل الكتاب الوقوف قليلاً، ليتحملوا الشهادة التي يشهدوها ويلتزموها، ويحددون بها الخط الذي يحكم علاقاتهم بالحياة وبالآخرين، بإسلام الوجه والقلب واليد واللسان لله سبحانه، والإستعداد للإستجابة إلى تعاليمه وتوجيهاته في العقيدة والتشريع، فلا خضوع إلا لله. وليس على الآخرين إلا أن يثبتوا لهم ذلك بالحجة والبرهان والدليل. وأخيراً، إنّ قيمة العامل النفسي هو أنه يهيئ الجو لشعور الآخرين بالمعاني القوية الرائعة التي تحكم الفكر والدعوة في مجال الحوار.

الفصل الرابع

- الحوار في إطار السؤال

أ - النبي يطرح الأسئلة.

ب - الآخـرون يسـألون - والنبي يجيب.

ج - النبي يسأل ويجيب.

الحوار في إطار السؤال

أ ـ النبي يطرح الأسئلة

قد نلتقي في القرآن الكريم بالكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تعالج قضية العقيدة وتفاصيلها، بأسلوب الحوار الذي يتسلم النبي زمام المبادرة فيه، فنراه يثير بعض علامات الإستفهام أمام التصوّرات المنحرفة لبعض الناس في قضايا العقيدة والحياة. فيواجههم ببعض الأمور التي لا ينكرونها أو لا يستطيعون إنكارها ـ ولكنهم لم يدركوا إرتباطها بالخط الصحيح للعقيدة، ليكون إقرارهم بها إقراراً ملزماً بالعقيدة، كنتيجة طبيعية للرابطة الوثيقة التي تربط بينهما. ولذا فإن القضية تدخل في إطار محاكمة تفكيرهم بأسلوب تستيقظ فيه فطرتهم على دعوة الحق من حيث لا يشعرون، مما يجعل العناد أو المكابرة أمراً لا يستند إلى شيء مما يحترم فيه الإنسان نفسه.

ونجد أمامنا ـ في هذا المجال ـ بعض النماذج القرآنية لهذا الأسلوب في الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: ٦١ ـ ٦٢).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٩ ـ ١٣).

إننا نلاحظ في هذه النماذج الثلاث من الآيات، محاولةً لإدارة الحوار مع مَنْ يشركون بالله، ويعترفون في الوقت نفسه بقدرته وسيطرته، ولكنهم يفقدون التصور الصحيح لفكرة الألوهية. ولذا فإن الأسلوب يسير في خط توجيه السؤال حول ما يعرفونه من شؤون الإيمان بالله، ليكون جوابهم أساساً للإنطلاق في إفاضة الحديث حول قدرة الله وتصرّفه في الكون وإرتباط كل شيء يتصل بحياة الإنسان أو بغيره به، لتكون النتيجة ـ الموقف أن يحاكم المشرك نفسه، ويشعر بضلاله وإفكه دون مواجهته بذلك بشكل صريح.

وقد نجد الآيات القرآنية سائره في هذا الإتجاه من حيث المبدأ، ولكنها تتمايز في التفاصيل، فهي تحاول ـ في نطاق إثارة السؤال ـ أن تطرح الفكرة من خلال مقارنتها بشكل صريح بالفكرة المضادّة، ليواجه الإنحراف بقسوةٍ، تبعاً لما يوحيه وضوح المقارنة من فظاعة في الفكرة المنحرفة؛ مما يجعل الحكمة القرآنية تتمثل في مواجهة الإنسان بالحقيقة بشكل حازم، لا يسمح له بالتقاط أنفاسه، كي لا يضيع في متاهات الضلال أو يتخبط في رواسب الماضي. وهذا ما نواجهه في الآيات الكريمة التالية:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٣١ ـ ٣٦).

ففي هذه الآيات، نواجه السؤال عن الكون وما يتمثل فيه من دقائق الصنع وأسرار الإبداع في الخلق، التي توحي بالقدرة المطلقة. فإذا أشار جوابهم إلى الله ـ كما هو منتظر لأنهم يؤمنون به ـ فسيوجه السؤال من جديد إليهم عمن جعلوهم شركاء له، هل يستطيعون ذلك، أو بعض ذلك؟ وهنا يتولى القرآن الجواب عنهم، لأنهم سيواجهون الشعور بالعجز المطلق أمام القدرة المطلقة، حيث يتطلعون إلى كل ما يحيط بهم من موجودات أثارها السؤال أم لم يثرها فلا يجدون إلا الله، فيلوذون بالصمت. والصمت ـ في كثير من الحالات ـ أبلغ من الكلام.

ثم يعقب القرآن الكريم على ذلك بحسم النتيجة، التي توضح تفاهة تصوراتهم واعتقاداتهم، بأسلوب عنيف يصدمهم من الداخل بقوّة، ويتحدى جانب الكرامة فيهم بعنف، ليجعل من قضية الإيمان بالحق والتوحيد الخالص قضية العدالة في الحكم، وقضية الشرك، إفكاً وضلالاً، لا يلجأ إليه الإنسان الذي يحترم عقله وفكره في مواجهة بديهيات الأمور، ولا يترك الحق لظنون وتخرّصات لا تستند إلى شيء واضح متين.

الأسلوب في حركة العقيدة

وربما نحتاج إلى هذا الأسلوب في حياتنا المعاصرة التي تصطدم فيها الدعوة

الإسلامية ببعض العناصر، الذين ينكرون على الإسلام مسيرته نحو قيادة الحياة، فيتجهون ـ بسبب ذلك ـ إلى بعض المبادىء الأخرى، بحجة أنها تحقق للإنسان حاجاته الأساسية في الحياة، وتحلّ مشاكله المعقّدة، ويغفلون عما في الإسلام من حلول لمشاكل الحياة واستجابة لمتطلباتها. فيمكن للداعية أن يثير أمامهم تلك القضايا بهذا الأسلوب الذي يعتمد على الإفاضة في التفاصيل، أو بطريقة المقارنة بين الإسلام وبين المبادىء الأخرى، مع توضيح ما يجعل الإسلام في مركز القوّة أمام تلك المبادىء، مما يفسح المجال لإثارة التفكير الذاتي الهادىء، أو للصدمة الفكرية العنيفة التي تعتمد على عناصر الإثارة القوية.

وقد نحتاج إلى السير مع هذا الأسلوب، في قضايا الحوار المذهبي الذي يدور حول تفضيل بعض الشخصيات الإسلامية على غيرها، لتحليها بالصفات الرسالية التي تجعلها مميزة في مجال التقييم والتفضيل في الجوانب الحيوية للعقيدة والتشريع، بالشكل الذي يجنب الحوار الدائرمن التحول إلى مجرّد إثارة للتاريخ، تأكيداً للحالات الاجتماعية القلقة والامتيازات الطائفية الضيّقة التي يعيشها الحاضر، بل يحصر استخدام التاريخ في الحوار إطار الفكرة، بعيداً عن الحالات الشخصية المعقدة لتبقى القضية خاضعة للفكرة في كل ما تثيره من نوازع ومشاعر، وما تفرضه من تصوّر للموقف وعمل في سبيله. وبذلك يرتفع الخلاف في هذه القضايا، بالأسلوب الحكيم المَرِن، إلى مستوى الفكر العقيدي المنفتح.

وقد لا تقتصر الحاجة إلى اتباع هذا الأسلوب، على الحوار حول الأشخاص الذين يعيشون في أعماق التاريخ، بل إننا نشعر بالحاجة إليه في ما نختلف فيه من قضايا القيادات والمرجعيات في أكثر من جانب، والتي يختلف تبعاً للنوازع الذاتية التي تدعو إلى تعيين هذا أو ذاك، تحديد شخصياتها مما يفقدنا التركيز في الأسلوب الذي نتبعه لحل المشكلة وإنهاء الخلاف، فنقع من خلال ذلك في الدوران في حلقة مفرغة لا ندري أين طرفاها، أو منازعات لا نعرف كيف تنتهي وإلى أين؟

ولعل من أوضح الآيات دلالة على هذا الاتجاه في الموضوع الذي أشرنا إليه، هي الآية الكريمة المتقدمة.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس: ٣٥).

فقد ركزت هذه الآية على الإبتعاد عن الجانب الذي يرتبط بالشخص، ذاتياً كان أو عائلياً أو إقليمياً، ليرتبط بالجانب الرسالي الذي يخضع لقاعدة الكفاءة والفضل، في حركة الشخص من ناحية الإكتفاء والعطاء.

ب ـ الآخرون يسألون ، والنبي يجيب

وهناك مشكلة تواجه العاملين في سبيل الله، في قضية الحوار، وهي إثارة بعض المواضيع التي لا فائدة منها للعقيدة ولا للحياة، بل هي مجرد ترف ذهني يستجيب لنوازع الفضول، التي تحرك الإنسان إزاء بعض القضايا؛ فيتحول الحوار إلى جدل فارغ وعبث، ككثير من الأسئلة التي تدور حول أسماء آباء الأنبياء وأمهاتهم، أو عدد بعض المجموعات، التي يتحدث عنها التاريخ أو يحدّث بها القرآن الكريم ـ وقد عاشت الفترات الإسلامية المظلمة ـ مرحلةً من الجدل في كثير من القضايا الفكرية، التي لا تمسّ العقيدة والحياة من قريب أو من بعيد، مما جعل التفكير لديهم يتحرك في دائرة عقيمة لا تقدم للمعرفة العملية أيّ نتاج مفيد. الأمر الذي أدى إلى تخلف المسلمين عن ركب الحياة، عندما تركوا ما يفيدهم ويثير فيهم روح التقدم وانصرفوا إلى ما لا يغني عنهم شيئاً.

وربما يكون من هذا القبيل ما أشار إليه الشيخ محمود شلتوت في تفسيره[1]، عند تعرّضه لهذا الموضوع.

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٥٩.

«أمّا الاشتغال بالسؤال عن النظريات البحتة التي لا يتعلق بها نفع في الدنيا ولا ثواب في الآخرة، فهذا ليس من شأن المؤمنين العاملين، فلا ينبغي أن يُسأل عن الأرواح بعد مفارقتها للأجساد أين تكون؟ وماذا تعمل؟ ولا ينبغي أن يسأل عن كيفية عذاب القبر للجسم وللروح، أم للروح فقط؟ وهل بحياة كاملة أو ناقصة ولا ينبغي أن يسأل عن كيفية الميزان، ولا كيفية الوزن، ولا عن الموزون، ولا عن أرض الجنة ولا عن سمائها وما إلى ذلك مما شغل به المسلمون أنفسهم وملأ كثير من علمائهم به كتبهم وصرفوا به الناس عن معرفة الخير وعمل الخير».

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى مواقف النبي محمد (ص) مما كان أصحابه، يسألون عنه ويثيرونه من قضايا لا تؤدي معرفتها إلى نتائج عملية ملموسة، حيث كان يهمل الجواب أحياناً أو ينصرف به إلى جانب آخر في أحيانٍ أخرى، للإيحاء إليهم بأن من واجبهم أن يسألوا عن ذلك الجانب، لأنه يحقق لهم الفائدة، دون ذاك الذي أداروا الحوار حوله.

وربما يقتضي الموقف أن يلامس القضية التي يثيرونها ملامسةً بسيطةً يغلق - بعدها - باب الحوار، لانعدام الفائدة من الاستمرار به إلى ما يريدون.

فقد سألوه - كما حدثنا القرآن - عن الروح والساعة، فلم يشأ الله - سبحانه - الإفاضة في الجواب، لأنهما مما استأثر الله بعلمه، ولأن الروح - بالذات - مما لا يستطيعون إدراكه، لأنه لا يخضع للحسِّ ولا يقع تحت التجربة بل يُعرف بآثاره، أو لأن معرفة الروح لا تحقق لهم أيّة فائدة علمية أو عمليّة.

أما سؤالهم عن الروح، فقد حدثتنا عنه الآية الكريمة:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وأما السؤال عن الساعة فقد تحدثت عنه عدة آيات:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ (النازعات: ٤٢ ـ ٤٦).

فليست مهمة النبي (ص) أن يتحدث إليهم عن تحديد وقتها، بل مهمته أن ينبِّه الناس إلى وجودها من أجل أن يستعدوا لها في عملهم. كما أنَّ تعيينها لا يخدم الفكرة التي يستهدفها الدين في واقع الناس، من التركيز على الإنضباط العملي من خلال الخوف من النتائج السيئة للأعمال الشريرة في يوم القيامة. ولهذا لم يعرفها لنبيه ولم يعرفها للآخرين من خلقه.

وقد نحسُّ ـ في أسلوب الآية الأخيرة ـ بعض العنف في الخطاب والتنديد بالسؤال، مما لم نحس به في الآيتين السابقتين، ولعل السبب في ذلك أنّ هذه الآية جاءت رداً على العناد والمكابرة، التي تمثلت في تكرار السؤال مع سبق الجواب الذي يحدد للسائلين إتجاه الخط وحدود المعرفة في هذا الموضوع، مما يقتضيهم السكوت أو السؤال من جديد عن السبب في تحديد هذا الخط، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل كرروا السؤال نفسه، مما يدل على أن المعرفة ليست هدفهم، بل المشاغبة والمكابرة.

توجيه الحوار إلى ما يبني الحياة

وقد نلتقي ببعض الأسئلة التي كانوا يثيرونها، لغايات محددة، فيجيبهم النبي (ص)

بغير ما سألوه، إرشاداً إلى أن ذلك ما يجب أن يسألوا عنه، كما أشرنا إليه في بداية الحديث.

فقد سألوه عن الأهلة، عن القمر كيف يولد صغيراً ثم يكبر ثم يرجع صغيراً ويغيب وهكذا... ولم تكن غايتهم الإستفادة من المعرفة الفلكية، مما يجعل الدخول في تفسير ذلك اقتحاماً لعملية لا تتسع لها أفكارهم من جهة، ولا تخدم حياتهم من جهة أخرى. ولهذا أعرض عن الجواب حول هذا الموضوع، لينتقل للحديث عن فوائد ذلك في الحياة، من حيث كونها تضبط مواقيت أعمالهم، وتحدد لهم وقت الحج بالخصوص؛ وهي تتميز عن الشهور الشمسية يكون تحديد التاريخ القمري في متناول كل الناس، لأنه لا يحتاج إلا إلى النظر والملاحظة، بينما يتوقف التاريخ الشمسي على الحساب الذي لا يعرفه إلا الحاسبون.

وقد عقَّب القرآن على ذلك بالدعوة إلى أن يواجه الإنسان القضايا من أبوابها، ولا يواجهها من ظهورها، بالأسلوب الكنائي الذي عبَّر فيه عن ذلك بالبيوت، وذلك هو قوله تعالى:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩).

وقد سألوا عن نوع ما ينفقون، وجاء الجواب ليحدد لهم الأشخاص الذين ينفقون عليهم، ويصرفون لهم النفقة للتنبيه أن الأولى والأجدر بهم السؤال عن ذلك، لأنه لا أهمية لما ينفق، بل الأهمية الكبرى لمن ينفق عليه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥).

ويجيب عن هذا الموضوع - في آية أخرى - بإهمال الحديث عن نوعية الأشياء التي يسألون عنها. والاكتفاء بكلمة واحدة هي كلمة العفو، التي تعني الفضل. وهو الذي

يفضل عن ضروريات الإنسان ومعاشه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ . . . ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وينطلق القرآن ليتحدث عما كان يفيض فيه المسلمون وغيرهم من حديث عن عدد أهل الكهف، ويثور الجدال بينهم، وربما يسألون النبي، أو يبدو لهم أن يسألوه عن ذلك. وقد يخيّل لنا ـ من الآية ـ إن النبي كان في معرض السؤال.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢).

ويريد القرآن الكريم من ذلك، أن يضع القضية في نطاقها الصحيح، من قضية المعرفة ومواردها التي ينبغي للناس أن يقصدوها، ليعلن لكل هؤلاء المجادلين ـ من خلال خطابه للنبي (ص) ـ أن القضية لا أهمية لها، ليبيّنها للرسول، حتى يبيّنها الرسول للآخرين، لأن العبرة ـ في قصة أهل الكهف ـ في مدلولها الديني حيث نواجه هؤلاء الرجال المؤمنين، الذين لم يستسلموا لضغط الكفر وأرادوا أن يسلموا بدينهم، ولم يكن لهم قوّة على المصادمة والمقاومة، فهربوا بدينهم إلى الكهف، فرعاهم الله سبحانه برعايته، وجعل لهم المخرج، وأكرمهم بكرامته، فجعل من حياتهم آية للآخرين.

ذلك ما يجب أن يعرفه المؤمنون من القصة، فالمعرفة ينبغي أن تكون لديهم سبيلاً للحياة الرسالية الكبيرة، لا مجرد وسيلة من وسائل إرضاء فضول اكتشاف المجهول، أيّ مجهول كان، وعلى هدى ذلك، لا يبقى لمعرفة عددهم أو خصائصهم الذاتية أيّ معنى، لأن ذلك كله ليس مشكلةً لنبحث لها عن الحل. لهذا أراد الله أن يُبقي الغموض حول هذه النقطة، ليرشدنا إلى أن الجهل بما لا فائدة من معرفته، لا ضرر منه في حساب الخير والشر والحسن والقبح... ثم لم يكتف بذلك، بل أرشد النبي إلى أن يبتعد عن الخوض في الجدل حول ذلك، وطلب أن لا يستفتي أحداً في ذلك، سواءٌ أهل الكتاب

أو غيرهم، ليوحي للآخرين بضرورة أن لا يسألوا عنه.

وهكذا تتضح لنا الفكرة الإسلامية في الحوار: أن لا يدخل الإنسان في أجواء الجدل، في أيّة فكرة تثار أمامه، لئلا يتحول إلى جهد ضائع وعبثٍ، بل يحاول الداعية أن يتحكم في الموقف، بإغلاق باب الحوار في ما لا يؤدي إلى نتيجة، وتوجيه الحوار إلى الفكرة التي تنفع العقيدة وتبني الحياة.

الحكمة المطلوبة

وهناك جانب كبير الأهمية في حركة الحوار، التي تحدَّث عنها القرآن الكريم، في إطار ما كان يوجه إلى الأنبياء من سؤال وما كانوا يجابهونه به من جواب.

وهو أن الموضوع الذي قد يثيره خصوم العقيدة في مجال الحوار، ربما يكون قريباً من حساسيات المجتمع، بحيث تولِّد إثارته جواً انفعالياً يعطِّل مهمة الحوار، ويمنع من الدخول في جدل حولها وحول طبيعة الموقف منها، وينتهي بالتالي إلى تجميد حركة الدعوة إلى الحياة، كنتيجةٍ طبيعية للأجواء الغوغائية التي قد تثيرها.

فقد يكون من الخير للدعاة أن يواجهوا الموقف بأسلوب ذكي يُغلق باب الحوار في الموضوع بلباقة، بحيث لا يخرجون عن الخط الفكري الذي يسيرون عليه، ولا يثيرون المشاعر المضادة في الوقت نفسه. وهذا ما نفهمه من الآية الكريمة التي تحدثت عن بعض الجوانب الحساسة التي أراد فرعون إثارتها أمام موسى، ليعبِّئ الجو ضده بإثارة الإنفعالات المضادّة.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥١ ـ ٥٢).

فقد نفهم من هذه الآية أنّ فرعون كان يحاول من خلال سؤال موسى أهل القرون الماضية، وهم أجداد معاصرية من الناس إستدراجه ـ نظراً لإنجرافهم الديني ـ للقول

بأنهم كانوا كفاراً أو أن مصيرهم النار أو غير ذلك من الكلمات التي تثير كرامة أبنائهم، وتجعلهم يثورون ضده، لإساءته إلى آبائهم. وربما كانت المحاولة شيئاً آخر، يصرف الموضوع إلى غير الجهة الأساسية التي انطلق الحديث منها في قضية الإيمان والكفر.

ولكن موسى فوّت عليه تلك الفرصة، بإغلاقه باب الحوار الذي أراد من الإثارة، أو الابتعاد عن الموضوع، وترك الأمر لله سبحانه، فهو أعلم بهم وبظروفهم، وليس لنا من أمره شيء لنفيض فيه أو نتحدث عنه.

ويواجه الدعاة إلى الإسلام عدة وضعيات مماثلة، عندما يحاول البعض أن يثير أمامهم بعض القضايا السياسية والاجتماعية أو الشخصية، التي تخلق جواً من الإثارة لدى الجمهور الذي يستمع إليها، أو يحاول أن يصرف الجو إلى قضايا جانبية قريبة من عواطف الناس ومشاعرهم، لإبعاد الداعية عن غرضه الأساسي، وصرف انتباه الناس عنه، أو يحاول الإفاضة في تفاصيل مصير الأشخاص الذين يدخلون الجنة، أو الذين يدخلون النار، في عمليات إحصائية تفصيلية، قد تربك الموقف، أو تعقّده.

وربما يكون من الحكمة في هذا الحال تجنب الحوار في مثل هذه القضايا، وإرجاع الأمر إلى الله سبحانه، باعتبار أنه مالك الأمر كله في يوم القيامة.. ثم إثارة جوانب رحمته الواسعة، من حيث علاقة ذلك بالنتائج الحاسمة لمستقبل الأشخاص، مع التركيز على القواعد العامة لقضية الثواب والعقاب، أو دخول الجنة أو النار، التي تجعل العقاب في مورده عدالة، كما تجعل من قضية العفو، في هذه الحالة، إحساناً ولطفاً ومغفرةً، ليكون ذلك كله حافزاً على تصحيح الموقف من جهة، وعلى الإرتباط بالله من جهة أخرى، لئلا يتحول الإيمان برحمة الله إلى مبرّر للتقصير ودافعٍ للمعصية.

وقد واجه النبي (ص) بعض القضايا الشرعية التي كان المسلمون وغيرهم يكثرون السؤال عنها، باعتبارها تتصل بحياتهم اليومية كعادات متأصلة الجذور فيهم كشرب

الخمر ولعب القمار، أو كمقدسات بلغت قداستها حداً يمنعهم من تجاوزها ويدفعهم إلى اعتبار ذلك خطيئة كبيرة، كالقتال في الأشهر الحرام «رجب وذي القعدة وذي الحجة ومحرّم».

وقد كان جواب النبي (ص) على ذلك، منسجماً مع الخط الإسلامي العريض الذي يتمثل في اعتبار المعرفة ـ في كل ما يمكن معرفته ـ حقاً طبيعياً مقدّساً للناس أجمعين. فإن من الحق للناس أن يسألوا عن أيّ شيء في العقيدة أو في التشريع، ومن واجب الرسالة أن تفتح لهم نوافذ المعرفة عن ذلك كله، لأن الرسالات جاءت من أجل أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلا بد لها من أن تنقلهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة.

المسلمون يسألون عن الخمر والميسر

فقد سألوا عن الخمر والميسر، وهما من العادات المتأصلة الجذور في حياة الناس آنذاك، مما يجعل من تحريمهما أو الاتجاه نحوه، مشكلةً اجتماعية صعبة. وكانوا يعتقدون ـ أو يخيّل لهم ـ أن التحريم لا يخضع لمصلحة الناس الحياتية، لأن شرب الخمر يخفف كثيراً من أثقال النفس وهمومها، ويبتعد بها عن أحزانها وواقعها السيء. وربما يجدون في أنفسهم بعض الحاجة إلى الهروب من الواقع المرير إلى عالم لا أثر فيه للمرارة أو للمشاكل، تماماً كما هو النوم في حياة الإنسان حيث تستريح فيه الأعصاب ويهدأ ـ معه ـ الفكر وتتجدد فيه القوى.

وحاول القرآن الكريم ـ في جوابه عن ذلك ـ أن لا يتنكر لهذه التصورات، ولا يتعسف في توجيه الحكم الشرعي إليهم؛ فبدأ بإثارة الجوانب السلبية مقابل الجوانب الإيجابية، ليفكروا فيها بهدوء، ليتحقق لهم التوازن في تصورهم للأشياء وحكمهم عليها، لأن ذلك هو السبيل القويم إلى سلامة المعرفة من الانحراف، تحت ضغط العادة أو المنفعة أو الشهوة. وذلك هو قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ

ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

فإنه يضع أمامهم تأثيراتها السلبية على الحياة الاجتماعية العامة والخاصة، وعلى الحياة الروحية التي يعيش فيها الناس مع الله في لحظة العبادة والتأمل؛ لأن الخمر تذهب بالعقل، وتجعل الإنسان يتصرف بفعل الغريزة التي تجمع الأحقاد وتفجرها بطريقة لا شعورية، بينما يساهم القمار في إثارة الحقد في نفس الخاسر تجاه الرابح، لأنه أخذ منه ماله دون مقابل. كما ـ يساهم ـ إدمان الخمر والقمار، في إبعاد الإنسان عن ذكر الله وعن الصلاة. وعلى هذا وجّه القرآن الكريم سؤالاً يقصد منه الاستنكار، وطلب الكف عن هاتين العادتين بقوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ كإيحاء خفي بأن العاقل هو الذي يبادر بنفسه ـ دون حاجة إلى تعليمات خارجية ـ إلى ترك ما يفسد عليه أمر حياته وقضية مصيره.

ثم حاول القرآن الكريم أن يوازن بين الإيجابيات وبين السلبيات، فيحضرهما في وعي الناس في البداية، ثم يرشدهم إلى الحقيقة الموضوعية، وهي زيادة نسبة الجوانب السلبية في ممارستهما على الجوانب الإيجابية. ويترك للعقل الواعي عملية استخلاص النتيجة التي ستكون إلى جانب التحريم، لأن العقل لا يقبل للإنسان أن يرتكب ما يضره بنسبة كبيرة، لتحصيل منفعة ليست بذاك المستوى من الأهمية.

أما كيف ذلك؟ فإننا قد نجد إلى جانب منفعة الخمر والقمار، مفاسد لا تمثل المنفعة القليلة ـ معها ـ شيئاً، فهناك المشاكل الصحية والاجتماعية التي قد تحدث، كنتيجة طبيعية لغياب العقل في بعض الحالات، مع بقاء الإنسان جزءاً من الحياة الاجتماعية في تصرفاته وحركاته، مما يسبب كثيراً من الجرائم والانحرافات العامة والخاصة. إذ ليس ـ في المجتمع ـ محاجر عقلية تحجر على المدمن حريته في حال سكره، فلا تدعه يمارس قيادة السيارة أو غيرها، أو يحمل السلاح، أو يعيش في بيته مع أطفاله، لِتُجنِّب المجتمع من نزوات السكير وانحرافاته، كما تفعل مع من يفقدون عقلهم بشكل تام في مدة قليلة أو كثيرة، هذا في الخمر.

وأمّا القمار، فقد نجد فيه ـ إلى جانب ما ذكرته الآية السابقة ـ انحرافاً اجتماعياً خطيراً، عندما يتحول الإنسان إلى كسب قوته عن طريق القمار، ويترك العمل فيفقد المجتمع بذلك جزءاً من طاقته الإنتاجية ـ كبيرة كانت أو صغيرة ـ ، ويدمر المقامر حياته وحياة أسرته، لأنها لا ترتكز على أساس متين وثابت، لاعتمادها على (الشطارة الذهنية) للمقامر أو على غباء ملاعبه.

وهكذا تنتهي عملية الموازنة بين الربح والخسارة إلى إيضاح مدى انخفاض نسبة الربح ، بإزاء نسبة الخسارة المرتفعة جداً، ليضع القرآن الناس أمام الحقيقة التي غفلوا عنها؛ تماماً، كما يغفل من يتذوق حلاوة السم عن خطره المميت، ثم يوحي إليهم بأن التشريع ـ في ما يتضمن من تحريم وتحليل ـ لا ينطلق من نقطة العبث والإلتذاذ بتقييد حرية الآخرين، بل إن انطلاقته تبدأ وتنتهي عند حدود مصلحة الإنسان الخاصة والعامة. فلا تحريم إلا عندما تكون المفسدة أقوى من المصلحة، ولا تحليل إلا عندما يكون العكس، سواءً في ذلك ما اعتاده الناس وما لم يعتادوه، لأن الحرية في التشريع الإلهي ليست مزاجية تخضع لانفعالات اللذة والألم، بل هي واقعية، تخضع للمصالح والمفاسد الحيوية للإنسان في حركة الحياة وقاعدتها الرئيسية.

وعلى ضوء ذلك لم يزد القرآن الكريم شيئاً على تقرير هذه الحقيقة الواقعية في الخمر والميسر، فلم يقل لهم ما يجب عليهم أن يفعلوه، بل ترك الأمر للإحساس الصافي ببداهة النتيجة التشريعية، التي تلتقي بالحكم الإسلامي بتحريم الخمر والقمار بشكل حاسم ونهائي. وذلك في قوله تعالى:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . ﴾ (البقرة: ٢١٩).

المسلمون يسألون عن القتال في الشهر الحرام

وقد سألوا عن القتال في الشهر الحرام، على أثر حادثة بين جماعة من المسلمين وجماعة من المشركين، اقتتلوا فيها فقتل المسلمون أحد المشركين، وأسروا اثنين منهم، فاستغلت قريش ذلك للتشهير بالنبي محمد (ص). وعظم الأمر على المسلمين الذين قاموا بهذا العمل، ظناً منهم أنهم قد هلكوا، لأنهم رأوا من رسول الله كراهة ذلك، مع تعنيف بقية المسلمين لهم؛ مما جعل القضية تأخذ مجالا في الأخذ والرد ـ كما يبدو ـ فكان سؤالهم للنبي (ص) من أجل تحديد الموقف، وبيان الأساس الصحيح للقضية وأطرافها. وكان الجواب القرآني في مستوى المعرفة الذي ينطلق منها الإسلام، ويدعو إليها. وذلك في قوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ . . . ﴾ (البقرة: ٢١٧).

ويبدو أن الأمر التبس على المؤمنين، أثر هذه الحادثة واستغلال قريش لها، فخيِّل إليهم أن الإسلام يتنكر لمبدأ حرمة الأشهر الحرام، وأنه يرفض استمرار المنع عن القتال فيها، من خلال المعركة التي دارت بينه وبين المشركين. وقد يميل إلى ترخيص ذلك، فالنبي لم يعاقب المسلمين الذين قتلوا المشرك وأسروا صاحبيه، مما يوحي بأن إنكاره ليس في مستوى الإلزام.

وكان سؤالهم من أجل معرفة وجه الحكم الصحيح في الأمر، ليجابهوا الحملة المضادة بعلم وإخلاص وقوّة.

وجاء الجواب حاسماً يؤكد المنع عن القتال في هذا الشهر، ويعتبره صداً عن سبيل الله وعن عبادته، وكفراً عملياً به وبالمسجد الحرام. ولكنه يعقِّب، بأن ما فعلته قريش أكبر من القتال، بإخراجها لأهل المسجد الحرام، لأنهم قالوا كلمة الإيمان، محاولة فتنتهم عن الدين. ثم يضيف لِيركِّز القاعدة التي تعتبر الفتنة عن الدين والوقوف في طريق

تقدّمه أكبر من القتل، لأن القتل عمل فردي ذو تأثيرات فردية في أغلب الأحيان، ولكن الفتنة عن الدين، تسيء إلى الجماعة، لأنها تدافع بطريقة أو بأخرى عن الخط المنحرف (خط الشرك والإلحاد) ضد الخط المستقيم (خط الإيمان والتوحيد) ومهاجمة أتباع الحق. ولهذا فإن المسلمين الذين قاموا بهذا الخطأ ـ لو كان ما صدر منهم خطأ ـ لا يُعتبرون ممن انحرفوا عن الخط الصحيح، لأن هدفهم كان تهديم العقبة الكبيرة التي تمنع الإسلام من الحركة والتقدم إلى الأمام. وبهذا كانت المصلحة في ما فعلوه، أقوى من المفسدة التي ارتكبوها وهي قيامهم بالإساءة إلى حرمة هذا الشهر.

ونحن نستوحي من الآية الكريمة، أنها لم تكن متوجهة لإعتراف بخطأ ما قام به هؤلاء المسلمين، بل كانت برأينا ـ خلافاً لما فهمه المفسرون ـ توضح المبرّر الشرعي لهذا العمل، وهو قطع دابر الكفر والكافرين، وتؤكد على الاستمرار فيه وتقرر شرعيته، كما تشير إليه آخر الآية الكريمة.

﴿. . . وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٧ ـ ٢١٨).

فمن الملاحظ أن الآية قارنت بين الممارسات العملية لفريق الكفر وفريق الإيمان، فالأولون يواجهون كلمة الله بالتمرد والعدوان، بينما يواجهها الآخرون بالخضوع والهجرة إليه والجهاد في سبيله. مما يوحي بأنها في مجال تكريم هؤلاء لما عملوه ورفع المنع عنه، وتوبيخ أولئك لما قاموا به من انحرافات وجرائم. وليس في التعبير بكلمة ﴿أكبر من القتل﴾ دليل على المساواة في بعض نتائج المسؤولية، وزيادة حصة الكافرين في ذلك، بل هي جارية على أسلوب المحاكاة لكلامهم في تحميل المسؤولية، في الانحراف عن حرمة الشهر، للنبي وللمسلمين. وليس في كلمة «يرجون رحمة الله» ما يدل على الاعتراف بالخطأ، لأن رجاء رحمة الله، لا يتمثل في حالة الخطأ فقط، بل يتمثل ـ في بعض الحالات ـ بانتظار ألطافه ونعمه وثوابه. فإننا ننتظر رحمة الله ـ بعد المعصية

بغفران ذنوبنا، كما ننتظرها ـ بعد الطاعة ـ برفع درجاتنا. ولعل في التركيز على وصفهم بالإيمان، والهجرة إلى الله والجهاد في سبيله، ما يؤكد الفكرة التي نستوحيها من الآية وأجوائها العامة.. والله العالم. ولعل قيمة هذا الجواب، أنه رد على تساؤلات المؤمنين ـ حتى تلك التي يلوح من أسلوبها الإنكار ـ وواجهها بهدوء الرسالة وواقعيتها وإيمانها بالمعرفة الممتدة في جميع جوانب التشريع، التي تجعل من المؤمنين دعاةً يفهمون ما يسمعون من كلام، وما يبشرون به من تعاليم ومبادىء، وليسوا دعاةً ببغائيين يتلقون التعليمات دون فهم وينقلونها دون وعي.

معطيات الأسلوب العملية

والآن قد نستطيع الخروج من هذا الأسلوب ببعض الإضاءات العملية في حركة الدعوة الإسلامية في الحياة.

١ ـ المعرفة بحكمة التشريع تقوي الإيمان

إعتبار مواجهة الأسئلة التي تثار من أيّ فريق كان، وفي أيّ مجال كان، بشكل إيجابي، حقاً طبيعياً من حقوق الناس على الداعية الذي يضع نفسه في مركز المسؤولية الرسالية. فليس له أن يتذمر أو يتهرب أو يشكو من كثرتها أو تعقيدها.. لأنه لا يتحرك في المجتمع كشخص يخضع لمزاجه ونزوته، ليتصرف ـ مع الناس ـ من هذه الزاوية، بل إن حركته تمثل الصفة الرسالية التي أرادها لنفسه، مما يفرض عليه أن يُخضع طبعه ومزاجه لحاجات الرسالة ومتطلباتها.

وقد عانى العمل الديني في عصور الانحطاط، ولا يزال، كثيراً من سلبية بعض علماء الدين الذين اعتبروا أن مهماتهم الأساسية، القيام بالشؤون الدينية المتعلقة بالأحوال الشخصية للناس من زواج وطلاق ومشاكل تتعلق بها، ورعاية لحاجاتهم في حالات الموت من صلاة وغيرها... إذ أنهم كانوا يواجهون الأسئلة باقتضاب، فلا تتسع صدورهم للإفاضة فيها، لا سيما إذا كانت علامات الاستفهام تتركز على فلسفة

التشريع وفوائده ومنطلقاته وأسراره، ولا يملكون إلا دفاعاً واحداً عن ذلك، وهو أن على الناس أن تتقبل أحكام الله دون اعتراض أو فهمٍ لحيثياتها انسجاماً مع قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ. . .﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وقوله تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

ولكنهم يغفلون أجواء الآية كونها تتوجه إلى المؤمنين بالخضوع والتسليم لأمر الله ونهيه والتقبل لأحكامه، حتى إذا كانت مخالفةً لرغباتهم ومزاجهم الذاتي أو مصالحهم الخاصة.

وليس فيها أيَّة إشارة، من قريب أو من بعيد، إلى موضوع السؤال عن معنى الحكم وفلسفته وفائدته، فضلاً عن المنع عنه، بل ربما نجد في تنوع الأسلوب القرآني إيحاءً بضرورة التوفر على ذلك، من أجل إقناع الناس أن التشريع الإسلامي يرتكز على قواعد متينة، من مصالح الإنسان الأساسية في الحياة، أو دفعهم إلى التعمق في ذلك كله، ليحصلوا على الرؤية الواضحة التي تتيح لهم المقارنة بين الإسلام وغيره، وهو ما لا يتحقق إلاَّ بالإحاطة بأسرار التشريع ومنافعه.

وقد لاحظنا هذا الاتجاه وهذا الإيحاء في كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت لبعض الأحكام الشرعية، كقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى

ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).

فإنّنا نلاحظ أن الآية ختمت ببيان الأساس التشريعي لهذا الحكم، وهو التباين بين المؤمنين والمشركين، في النظرة وبالتالي في السلوك وفي الهدف، مما ينعكس على الحياة الزوجية، التي يجب أن تخضع للمودة والرحمة، وقوامها وحدة التصور ووحدة الشعور والهدف، فالمؤمنون يسيرون في اتجاه دعوة الله إلى الجنة، التي تقتضي نمطاً في السلوك والتفكير، يختلف مع النمط في السلوك والتفكير الذي تقتضيه دعوة المشركين إلى النار. فكيف يمكن أن يتحقق الإخلاص للحياة الزوجية مع تباين الإلتزامات الروحية والفكرية والحياتية التي تفرضها العقيدة؟

وقد يجدر بنا أن نفهم من الآية الكريمة، أنها لم تجعل أساس النهي عن الزواج، تعسفياً، كما قد يتوهم بعض الناس، حيث جُعل الحكم ثابتاً حتى لو كان على خلاف ما يرغبة الناس ويعجبهم، بل حاولت أن تقود الإنسان إلى الموازنة بين الرغبة العاطفية، وبين المصلحة الواقعية للعقيدة والحياة، لينتهي في المحصلة إلى الاقتناع بأن الرغبة لا تمثل شيئاً أمام مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ. . .﴾ (النساء: ٣٤).

فإننا نلاحظ أنه لم يكتف بإعطاء حكم القوامة للرجال، بل أتبعها بالحيثيات التشريعية في جهتين: الأولى تفضيل الله بعضهم على بعض، في كثيرٍ من النواحي الجسدية والعقلية، الثاني: حمل الرجل مسؤولية الإنفاق على البيت الزوجي.

﴿ولاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢).

وفي هذه الآية تبرير لحرمة الزنا، بالعناصر الثلاثة التي ذكرها بعد التحريم، ليلتزم الإنسان التشريع من خلال إدراكه للمفاسد والمضار، التي تترتب على الزنا من الوجهة الاجتماعية والروحية.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠).

فقد اعتبر الأمر بغضّ البصر وحفظ الفرج، مرتكزاً على أساس الطهارة الروحية والجسدية للإنسان، كما توحيه كلمة (ذلكَ أزْكى لكُمْ) .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩).

وفي هذه الآية إرشاد إلى أن الأمر باتخاذ الزيّ المعيّن لعيال النبي ولنساء المؤمنين، هدفه إبعادهن عن الأذى الذي قد تتعرض له النساء من قبل الفسقة، كنتيجة لعدم معرفتهم بمركزهن وصفتهن. فقد ذكر الحكم، وذكر وجه الفائدة أو الحكمة فيه، لتشعر النساء بأن غايته المحافظة على كرامتهن وراحتهن. وقد رأينا في ما تقدم من حديث عن الخمر والميسر، بعض التأكيد على هذه النقطة المهمة في أسلوب الدعوة في الإسلام.

إننا نضع كل هذه الآيات وغيرها أمام مَنْ لا يريدون الخوض في فهمها، على أساس أن أحكام الله لا تخضع لفهم الناس و «إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة الأراء الباطلة»[1] كما ورد في الحديث الشريف عن أئمة أهل البيت (ع)، لنشير إلى أن ذلك لا يمنعنا من محاولة السعي للفهم من جهة، ومن الإقتراب من معرفة الفوائد والنتائج، إذا لم نفهم الحيثية الواقعية للتشريع من جهة أخرى، لتصبّ علامات الإستفهام في المعرفة التي تزيد الإنسان ثقة بشريعته، بدلاً من أن تبقى مبعث قلق وحيرة تتردد في الأعماق، لتهزّهاوتهددها بالانحراف.

ويمكننا إرجاع الكثير من أسباب التخلف الفكري الذي يعاني منه المسلمون ـ في وعيهم للإسلام ـ إلى هذا الأسلوب الجامد الذي يسير عليه الممثلون الرسميون للدين،

(١) البحار: ج٢، ص ٣٠٣ ، رواية ٣١ ، ب ٣٤.

عندما يغلقون على الإنسان المسلم باب المعرفة الدينية المفتوح واسعاً أمامه.

ومما يزيد الموضوع غرابة أن بعض هؤلاء يفترضون أن الإيمان قوةٌ فكرية إلهامية، لمنح المؤمن القدرة على إزالة كل الشبهات، وحل كل المعضلات، ومواجهة كل التحديات التي تواجه عقيدته؛ ولذا فإنهم لا يسمحون له أن يتحدث عن نوازع شكه ، ولا يعطونه الحرية كي يناقش الفكر والعقيدة والتعليمات، بحجة أن المؤمن لا ينبغي له أن يسأل عن هذا وعن ذاك، لأن هذه الأسئلة «هرطقة» و «كفر» و «زندقة»، مما يدفع المؤمن للهرب من السؤال، الذي يبقى متردداً في أعماقه، ويجره إلى مزيد من الحيرة والارتباك والتعقيد، أو إلى مزيد من الشك أو حتى إلى الكفر والإلحاد.

وهذا ما لا نراه في أساليب القرآن مع الكفار أو المؤمنين، أو في أساليب النبي محمد (ص) مع أتباعه من المؤمنين، فقد جاء في السيرة النبوية الشريفة إن رجلاً جاء إلى النبي، فقال له: لقد هلكت يا رسول الله. فعرف النبي مشكلته، فقال له: جاءك الخبيث، فقال لك: مَنْ خلقك؟ فقلت: الله فقال: مَن خلق الله؟ قال الرجل: إي والله يا رسول الله.

فقد عاش هذا الإنسان الحيرة المدمّرة إزاء هذا الخاطر، حتى خيِّل إليه أنه هلك وانتهى من ناحية إيمانية. وكان الموقف النبوي منسجماً مع خط الرسالة التي تعمل على تبديد الشك وإزالة الحيرة ومعالجة الحالة المعقدة، حتى قال له في نهاية المطاف - وهو يحدِّثه عن هذه المشاعر الخائفة - إن هذا محض الإيمان، ليحوّل الموقف من السلبية إلى الإيجابية، ومن الخوف والحيرة إلى الأمن والطمأنينة.

٢ - قيمة الفكر بنتائجه العملية

وهكذا نجد أن توجيه الأسلوب التربوي إلى المجالات العملية، في نطاق ما يريد الناس أن يحصلوا عليه من علم، وما يريدون إثارته من أسئلة بغرض التوعية الفكرية أمراً أساسياً، باعتبار أنّ القضايا النظرية المحضة من القضايا التي لا فائدة مباشرة

أو غير مباشرة منها للحياة، وكذلك بالنسبة إلى أمور كثيرة تدخل في باب الفضول الذي لا جدوى منه ولا منفعة، مما يجعل صرف الجهد فيه تضييعاً للعمر وإهداراً للطاقة، لأن قيمة الفكر إنما هي بمقدار ما يحقق من نتائج عملية تفيد الإنسان في حياته وبعد مماته، أو من نتائج نظرية تتعلق بالنتائج العملية.

إن مثل هذا الإتجاه التربوي الذي نستوحيه من الآيات الكريمة، التي صرفت الأسئلة عما لا ينفع إلى ما ينفع، للتدليل على مدى العلاقة بين المعرفة وبين الحياة، حتى لتعتبر المعرفة البعيدة عن الحياة شيئاً ميتاً، إن مثل هذا الاتجاه في التربية، يستطيع أن يقود المجتمع الإسلامي إلى الاهتمام بالجوانب العملية حتى في الفكر، ويخلصه مما خلفته عصور الانحطاط في وعيه وأسلوبه من تركيزٍ على الجوانب النظرية، حتى وصلت أوضاعه إلى درجة من التردي لم يجد معه سوى المشاكل اللفظية التي تغرق طاقاته الفكرية، وسيلة لملىء الفراغ، بحيث أصبحت التعقيدات اللفظية والتفسيرات المختلفة لها، فنّاً قائماً بذاته، وعلامة على الدقّة والعمق.. وانتهى الأمر بهم إلى القول: إن تسهيل التعبير عن الأفكار باللجوء إلى الأساليب الواضحة السهلة، يسيء إلى كرامة العلم ويقلل من قيمته. وسار البحث العلمي في القضايا الفقهية، في متاهات الفروض المستحيلة أو الصعبة التحقق، ومحاولة بحثها والتدقيق في الإحتمالات التي تطرحها. ويعتذرون عن ذلك بأن فرض المحال ليس بمحال، وأن ذلك يساعد على «تشريح الذهن» وتعميقه وتوسيعه، ولكنهم لا يلتفتون إلى كونهم يضيّعون على أنفسهم وعلى الناس فرصة البحث في القضايا العملية التي يُبتلى بها أكثر الناس، ويغفلون - في الوقت نفسه - عن الصفة العملية للفقه الإسلامي التي تفرض الاقتراب من الواقع العملي ومن الفروض المحتملة الوقوع فيه، لأن ذلك هو السبيل إلى حلّ المشاكل الحياتية للناس.

أمّا تشريح الذهن وتعميقه وتوسيعه، فيمكن أن يحصل الإنسان عليه من خلال العلوم الرياضية والفلسفية وغيرها.

٣ ـ ضرورة معرفة الأحكام العملية

كذلك ونجد في هذا الأسلوب توجيهاً للناس إلى الثقافة الشرعية العملية المتعلقة بفروع الدين، من قضايا العبادات والمعاملات وغيرها، حتّى يستطيع الإنسان المسلم أن يطمئن إلى حياته الخاصة وانسجامها مع الخط الإسلامي الصحيح، ويبقى ـ في نطاق ذلك ـ للإسلام دوره العملي في حياة الناس الفردية، حيث يشعر الإنسان بحركته وحضوره في حياته، وإن غاب عن حياة المجتمع ككل.

ويتمثل هذا التوجيه بأسلوبين:

الأول: التعليم المباشر في الحلقات والندوات والمدارس العامة والخاصة، والدعوة إلى التفقه بحضورها.

الثاني: التشجيع على إثارة السؤال عن الحكم الشرعي في كل قضية من قضايا الحياة، حتى يصبح الحكم الشرعي شغله الشاغل في الجزئيات وفي الكليات.

وقد تجسد هذا كله في القرآن الكريم في آياته التي عرض فيها للقضايا الجزئية والكلية للأحكام، سؤالاً وجواباً وتعليماً ابتدائياً مباشراً كما رأينا في ما تقدم من حديث عن أساليب القرآن الحكيمة في ترغيب الناس بالحكم الشرعي وحثهم على تحصيل القناعة لهم بفوائدها ومنافعها.

وإننا ـ إذ نشير إلى هذه النقطة ـ نحاول أن نتخلص من الاتجاه الشائع لدى العاملين للإسلام وغيرهم، من فقدان الإهتمام بتعليم الأحكام الشرعية واعتباره أسلوباً تقليدياً لا يصلح إلا للتقليديين.. وتوجيه الأهمية إلى المبادىء العامة للإسلام والمفاهيم الاجتماعية والسياسية وغيرها، مما يجعل أكثر العاملين أميين أو شبه أميين في معرفة الأحكام العملية، بعيداً عن الخطوط العامة.

إننا نشعر بخطورة هذا الاتجاه، لأنه سيفرّغ الساحة من المؤمنين الملتزمين بالخط العملي للإسلام في قضاياهم الجزئية الصغيرة، دون إيجاد البديل الذي يجمع بين الإلتزام الفكري بالخط الإسلامي الكبير للحياة، وبين التطبيق العملي للمبادىء في الحياة الفردية أو الاجتماعية.

إنّ حاجتنا إلى الفكر الإسلامي، في أصالته ونقائه وانفتاحه، لا تقل عن الحاجة إلى العمل الشرعي المتحرك في داخل الحياة والضمير، لأن الفكر يعطينا الامتداد الإسلامي في حركة الفكر، بينما يحقق لنا العمل الشرعي الامتداد الحركي للإسلام في مسيرة الحياة. فلكلٍّ منهما دوره ولكلٍّ منهما مجاله وفائدته؛ ومهما ضعف أحدهما، فإن وجود الآخر يعطيه قوّةً جديدة وشمولاً عظيماً.

ج - النبي يسأل ويجيب

قد نلتقي في أسلوب الحوار، بأسلوب جديد لا ينتظر فيه السائل جواب المسؤول، بل يتسلّم فيه السائل مهمة الإجابة، ليولّد سؤالاً جديداً وجواباً جديداً حتى تتضح الفكرة أمام الجمهور، باستنفاد كل علامات الاستفهام التي تطرحها الساحة وكل عناصر الإيحاء التي يتضمنها الموضوع كما نتمثل ذلك في قوله تعالى حول حديث النبي محمد(ص) مع مشركي قريش، حيث تطرح على النبي (ص) صيغة السؤال ثم تلقى إليه صيغة الجواب:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩).

فقد أراد الله للنبي أن يبادرهم بالسؤال، بصيغة الاستنكار فسألهم - في البداية - عمن هو أكبر شهادةً، لجهة ما يمثله من صفات العظمة والجلال ثم أمره أن يتولى الإجابة، للإيحاء بأن الجواب معروف لا يحتاج إلى انتظار أو تأمل، لأن المشركين لا ينكرون وجود الله خالق كل شيء، وإنما يشركون بعبادته غيره ليتقربوا إليه بذلك، لإعتقادهم أن الشريك قريبٌ إليه وأثيرٌ عنده. ثم يتابع السؤال عن الشركاء والآلهة، هل لهم وجود، وهل يشهد المشركون بوجودهم من معرفة عميقة بطبيعة الألوهية والوحدانية؟ ويأمر الله النبي أن يعلن موقفه، دون أن ينتظر إعلان موقفهم، بأنه لا يشهد بوجود

الشركاء وأنه يشهد - بدلاً من ذلك - بالوحدانية لله، ويتبرأ من كل إله غيره، ليؤكد لهم الحقيقة الحاسمة التي يريد لهم أن يؤمنوا بها ويعترفوا بوجودها. معرضاً إياهم لصدمةٍ داخلية تهز أعماقهم وضمائرهم في عملية توعيةٍ وإيمان.

محاكمة عادلة

وربما كانت قيمة هذا الأسلوب أنه يجعل الداعية في موقع الحاكم، الذي يوازن بين آراء الجماعات المضادة ، وأفكار الرسالة الجديدة ويطلب الشهود على هذا وذاك، ثم يأتي بالشاهد الأعظم وهو الله، الذي أوحى بالقرآن لينذرهم به، وليكون هو الدليل على صدق دعوى الإسلام وشهادته الأمر الذي ينكر عليهم هذه الدعوى، ويدعوهم للإستسلام لما يعرض عليهم من فكر، أو التأمل فيه أو مناقشته، ومهما كان ردّ الفعل إزاء ذلك كله، فإن نتيجة التأمل العميق والمناقشة الواسعة ستكون لصالح الدعوة فكراً وشريعةً، لما تملكه من قوّة وسعة وامتداد .

الفصل الخامس

- كيف ينتهي الحوار؟

- كيف نواجه نهايات الحوار في خطى الحاضر؟

كيف ينتهي الحوار؟

يحدِّثنا القرآن الكريم في أكثر من آية عن الجوّ النفسي الذي يهيمن على المحاور المؤمن المسلم، وتجسيده الأسمى شخصية النبي محمد (ص)، في نهاية الحوار. فقد لاحظنا أن النبي(ص) يبقى بعيداً عن حالة التشنج والتوتر العصبي، الذي يتحكم بمن يدعو فلا يستجيب له أحد، ويحاور بأكثر من صيغة فلا يتجاوب معه أطراف الحوار، بالرغم مما يقدمه من حجج وبراهين. ويبتعدون عنه دون مبررات، ويظل التحدي صارخاً في أقوالهم وأفعالهم.

أمّا تفسير ذلك، فهو أن النبي محمداً (ص) لم تكن قاعدة حواره وسائر مواقفه المشاعر والأحاسيس الذاتية، بل كانت قاعدته الرسالة، ولم تكن ذاته هي التي تتحرك، بل كانت رسالته أيضاً هي التي تفرض نفسها على الجو في بدايته ونهايته. وبهذا كانت المصلحة الرسالية هي ما يبغيه من اللمسات الأخيرة التي كان يضعها لنهايات الحوار، فنلاحظ أن كلّ لمسة منها تمثل جانباً من جوانب الموقف، إزاء النظرة المستقبلية للعمل والحوار الجديد الذي يأمل النبي أن يفتحه الآخرون معه في ما بعد.

وسنعرض لبعض النماذج القرآنية في هذا المجال.

١ ـ الإيحاء بقوة الموقف

قال تعالى وهو يحدِّثنا عن موقف النبي، وهو يرد على المكذبين والمعاندين الذين كانوا ينسبون إليه الضلال والافتراء على الله ، ولا يوافقون على الدخول معه في حوار عاقل هادىء لإثبات خطئهم في ذلك، بل كانوا يتهربون من الحوار تارة ويقطعونه في بعض مراحله أخرى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: ٣٥). ص٢٢٠

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي. . . ﴾ (سبأ: ٥٠). ص٢٢٠

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١). ص٢٢٠

ففي هذه الآيات نلمح أن نسبة الكافرين إليه بالافتراء والضلال وتكذيبه في رسالته، كانت بعد حوار طويل أثار فيه النبي كل الأدلة والبراهين على صحة دعوته وسلامة رسالته، كما نجد ذلك في أكثر من آية قرآنية، ولكنهم لم يعطوا ذلك أذنًا صاغية تعي وتفكر بل أصروا على المضي في إلقاء التهم الظالمة بحقه، بغرض إثارته واستدراجه إلى مقابلتهم شتماً بشتم وقذفاً بقذف، لإخراجه بذلك عما يميزه من قوة تتمثل في هذا الهدوء الرسالي الوديع الذي يجسّد الروحانية والقوّة في آن معاً. فلم يزده ذلك إلا ثباتاً في موقفه، واكتفى بالحد الذي تقف عنده القضية. فإذا كان هناك افتراءٌ، فهو الذي يتحمل جريمته فقط، ولكنه يؤكد أنهم أجرموا ـ بشركهم وكفرهم ـ بحق أنفسهم وبحق الأمة والحياة، عندما يعلن براءته مما يجرمون. أمّا الضلال فلا يصيب إلا صاحبه الذي يتحمل مسؤولية ضلاله أمّا مسؤولية الآخرين فمحصورة في محاورته، ليُقنعوا أو يقتنعوا بما قال.

ثم يقول للمكذبين الذين لم يستمعوا إليه بوعي وإيمان: ماذا أفعل لكم بعد كل ما قلت ودعوت وبيّنت؟ من أجل أن تهتدوا وتُرشدوا وتسيروا في الإتجاه السليم. لذلك فإن على كل منا أن يتحمل مسؤولية عمله. كما يتحمل كل منا مسؤولية رفضه لما يطرحه الآخر، ولنقف جميعاً أمام الله ليعرِّفنا من هو المحق ومن هو المبطل.

ولعل في هذا الأسلوب ما يوحي بقوّة موقف الرسول، عند تأكيده للآخرين بطريقةٍ يتحمل فيها المسؤولية بقوّة واطمئنان، مما يوجب التفكير العميق في صدقه وجدّيته في الدعوة كما يحملهم على التفكير في ما يسيرون عليه من خطأ وانحراف.

٢ ـ كلمة الفصل

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود: ٩٣).

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: ٢٥).

إننا نجد في هذه الآيات بعض ملامح الآيات السابقة، ولكنها تضيف إليها أشياء جديدة. ففي الآية الأولى، يطرح القرآن قصة اللّغو الذي كان الكافرون يثيرونه أمام المسلمين ليجرّوهم إلى معارك جانبية ـ كما يبدو ـ ويذكر أن موقف المسلمين الدعاة كان موقفاً إسلامياً يستجيب لدعوة الله أن يعرضوا عن اللغو، وأن يخاطبوا الجاهلين بقولهم سلام عليكم أو سلاماً، لأن الجدال لا يجدي مع الجاهل الذي لا يتوخى الفهم بل المشاغبة، ولهذا اكتفى بكلمة الفصل التي جعلت لكل واحد منا عمله. فلا داعي للتوتر والصراع العنيف.

أما في الآية الثانية: فينطلق التهديد قوياً هادئاً، فهو يقول لهم: استمروا على عملكم، فإنني لن أترك عملي ومعارضتكم، وسوف تعلمون نتائج ذلك كله عند الله..

وفي الآية الثالثة، إيحاءٌ بمسؤولية الإنسان عن عمله الفردي، وأنّ عليه أن يقدم حسابه عن نفسه لا عن الآخرين، لأنه مسؤول عن عمله، لا عن عمل الآخرين.

٣ ـ إشهار الشهادة

قال تعالى: ﴿. . . فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

إنه يختم الحوار هنا، بعد أن قطعوه، بإشهادهم على أنه ـ وأصحابه ـ مسلمون بعقيدتهم وعملهم وخططهم في الحياة، ليشعرهم بالثقة التي تعمر قلبه بصدق دعوته ورسالته، ولتكون تلك الشهادة عنصراً إيحائياً يثير في أعماقهم الإحساس بانسجامه مع الخط الصريح الصحيح الذي يسير عليه..

وهكذا نجد، أنه يغلق باب الحوار، ويبرر انسحابه بأسلوب رائع لا يسيء فيه إلى خصومه، بل يقودهم معه إلى موقع المسؤولية، ليتحركوا في إطارها، وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال. وتبقى الرسالة بانتظار القادمين الذين يأتون إليها والراجعين والمتراجعين، فلعلهم يعودون إليها من جديد ويتركون ما هم فيه من ضلال وانحراف. ويبقى الرسول بإنتظار أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً، بعد أن خرجوا منه أو حاربوه أفواجاً.

كيف نواجه نهايات

الحوار في خطى الحاضر

وعلى ضوء هذا، نشعر بأن من واجب الدعاة إلى الله أن لا يقطعوا الطريق على الآخرين الذين يريدون أن يرجعوا أو الذين يؤمل رجوعهم، فلا يستسلموا للتشنجات النفسية والتوترات العصبية، يطلقون فيها التهم بلا حساب ، بل يحاولون ـ أولاً ـ حسم الموقف معهم بتجميد الحوار ومن ثم إيقاف الحديث على قاعدة المسؤولية ليرتكز على أساس متين، لتصليح الخاتمة بداية لحوار جديد في المستقبل.

ونحب أن نشير، في هذا المجال، إلى بعض مَنْ يملكون اختصاصاً في الفقه والتشريع، لا يملكوه في التاريخ الإسلامي أو الفلسفة الإسلامية أو في بعض قضايا العقيدة والسياسة والاجتماع، فبدلاً من أن يدفعهم ذلك إلى التواضع لمن يملك هذه المعرفة أو ذلك الاختصاص، يتخذون من قداسة المركز الذي يمثلونه في الحياة الإسلامية، طريقاً إلى الدعوة لتقديس الخطأ الذي يقعون فيه فكرياً وعملياً، ويفرضون على الناس إرهاباً فكرياً يحظر عليهم مناقشتهم أو مجادلتهم أو تخطيئهم في ذلك كله. ثم يلجؤون إلى رمي مَنْ يفعل ذلك بالنعوت القاسية، كالجهل والزندقة والانحراف، مما

يوجب انسحابهم عنهم في المواقف الجديدة التي تفرزها الأحداث وتقود إليها التطورات.

إن من مهمة الدعاة أن يشدوا الناس إليهم بالأسلوب الحكيم الذي يجسد القوّة بدون قسوة ويوحي باللين من غير ضعف، ليظلوا الملجأ الذي يقصده التائهون في دياجير الضلال، والمعاندون الذين يتوخون الرجوع إلى الحق. فلعل النجاح يكون حليف الدعاة في المواقف الجديدة، التي لم ينجحوا فيها قديماً.

إن هذه الآيات تستطيع أن تلقي الضوء على الأساليب الحكيمة التي يريد الله للدعاة أن يستخدموها في طريقة إنهاء الحوار مع خصوم الفكر والعقيدة، لتبقى الرسالة في موقف الدليل الذي يغري الحائرين باللجوء إليه والسير في هداه.

وليس لأحد أن يرمي هذه الأساليب بالضعف والإنهزامية، كما يحلو لبعض الناس أن ينعتها، في ما يرونه فيها من تحمّل مسؤولية الضلال والافتراء على ذات الرسول والداعية، فكأنه - في ما يقولون - يسجل على نفسه إمكانية الضلال والافتراء. وهذا مستحيل في حقّه.

ليس لأحد أن يرمي هذه الأساليب بتلك النعوت، لأن قضية الضعف والإنهزامية خاضعة لطبيعة الموقف الذي تتحرك فيه .

فإذا كانت القضية حرباً وقتالاً وثأراً للنفس أو دفاعاً عن الحياة، فإن الضعف يتمثل في كل موقف يفقد فيه الإنسان عنصر المجابهة والرد بالمثل، وما إلى ذلك من الطرق التي تفرض العنف وتتطلبه.

أمّا إذا كانت القضية رسالة ودعوة لهداية الآخرين إلى الطريق المستقيم، فإن الضعف يتجسد في كل ما يفقد الإنسان عنصر المبادرة في توسيع مجالات العمل الرسالي، في أكبر مساحة من الأرض وأكبر عدد من الناس. بينما تكون القوّة بالأخذ بالمبادرة في ما يحقق الوصول إلى الهدف.

إن قضية القوّة والضعف من القضايا النسبية التي تختلف باختلاف مواردها ومجالاتها في السلم والحرب والفكر والعمل، فليس لنا أن نخلط بين المجالات، لئلا نضيع في متاهات الفروض الحائرة التي تتشابك فيها الأحكام والحيثيات وتتعقد، فلا يهتدي الإنسان إلى معرفتها مهما بذل من جهد فكري وعملي. ذلك كله هو ما نستوحيه من هذه الآيات الكريمة، في ما نستوحي من مواقف أو نستفيد من أفكار.

الفصل السادس

- الحوار القصصي في القرآن الكريم

- مع الأنبياء في حوار الرسالة

- نماذج بشرية في حوار الرسالة

الحوار القصصي في القرآن الكريم

لقد استخدم القرآن الكريم، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره أكثر من أسلوب رسالي لإقناعه بالفكرة الحق التي ترتبط بالله، وبالطريق الحق الذي يصل به إلى الله، في أجواء رائعة تمتزج فيها العقيدة بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة، لئلا تعيش العقيدة جفاف الفكر أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة.

وكان القص من بين الأساليب التي استخدمها القرآن في هذا السبيل، سواءً في ذلك، القصة التاريخية التي تتناول تاريخ الأنبياء السابقين والأمم السابقة، أو القصة التي تذهب مذهب المثل في عرضها لبعض الصور الاجتماعية المتحركة في واقع الحياة، أو القصة القصيرة الخاطفة التي تشير إلى موقف خاص أو نموذج بشري معيّن.

ولم تكن القصة، في أغراضها وأهدافها، تسعى لعرض التاريخ لمجرّد العرض، من أجل إعطاء صورة عن الواقع فحسب، كي تخضع فنياً لقوانين القص في عرض تفاصيل المواقف والأحداث.

بل كانت القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآني العريض، وهو الدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى الإيمان بالله والإسلام له، وإخراجهم من الظلمات الحالكة التي يتخبط فيها واقعهم الفاسد المرتبك، إلى النور المنطلق من قلب الرسالة في آفاق الله ورحابه.

لذا سعت القصة القرآنية إلى تحقيق هذه الأغراض، في كل ما عرضه القرآن من تاريخ وصوَره من واقع، حتى أن القصة التاريخية الواحدة تكررت في أكثر من سورة، لعلاقتها بالفكرة التي تتحرك السورة في إطارها، وحاجة الفكرة إلى بعض جوانب القصة.

من هنا فإن الأسلوب القرآني يعتمد التنويع في العرض؛ فقد يقدِّم في بعض الأحيان، عرضاً تفصيلياً يتناول أغلب خصائص القصة، أو عرضاً إجماليا لها يختصر في آية أو آيتين أو أكثر.

وقد يتجه إلى تناول القصة من بدايتها، أو من آخرها، تبعاً للجانب الذي يراد إثارته، أو الفكرة التي يُقصد معالجتها، أو الموقف الذي يهدف إلى تركيزه أو التركيز عليه.

القصة في اتجاه وحدة الرسالات

من بين أهداف القرآن الكريم التي أرادها من القصة، التركيز على وحدة الرسالات، ووحدة الأساليب التي يتبعها الرسل في الدعوة إلى الله، ووحدة الروحية التي يعيشونها في الدعوة، وفي مواجهة المشاكل والصعوبات التي تعترض طريقهم، أو في مقابل تحديات أعداء الله، كدليل على الخط الواحد الذي أراد الله لرسالاته أن تسير عليه، وعلى المشاكل الواحدة التي يواجهها الدعاة في كل زمان ومكان، على الرغم من اختلاف الظروف المحيطة بكل واحد منهم، وعلى وحدة الدوافع التي تحكم الكافرين والمعاندين والمنحرفين وارتباطها بالنوازع النفسية والعوامل الذاتية، لا بمشكلة فكرية

توجههم إلى إعتراض حركة الرسالة في الحياة.

وكان تاريخ الأنبياء السابقين في كل ما أثاروه من قضايا، وما واجههم من صعوبات وما حققوه من نتائج، عنصراً هاماً وحياً في تحقيق ذاك الهدف.

لذا أفاض القرآن في الحديث عن تجاربهم وأوضاعهم العامة والخاصة، ليجد فيها النبي والعاملون معه والسائرون على طريقه الملتزمون بخطاه، الصورة الحية للّقاء بين ماضي الرسالات وحاضرها، مما يجعل تجاربهم جاهزةً للتطبيق العملي في حياتنا الرسالية، مع مراعاة الخصائص المتمايزة للظروف في نطاق الزمان والمكان، وليعطي العاملين درساً عملياً في كيفية الوقوف مع الرسالات، مهما كانت الظروف شديدة وقاسية، دون الوقوع تحت وطأة الإستسلام لليأس والهزيمة، وليعرفهم كيف انتصر الله للأنبياء في نهاية المطاف، وكيف استطاعت دعواتهم أن تثبت أقدامهم في الحياة، بالرغم من كل الصعوبات والتحديات والعقبات.

ومن أهداف القرآن الكريم أيضاً، أن يقدم للإنسان قضايا الحياة على صورة نماذج، يشعر معها بالوضوح الذي يجسد الفكرة، ويجعلها مثلاً حياً أمامه، فكانت القصة من أكثر الأساليب قدرة على تحقيق هذا الهدف، بما تتيحه للفكرة، من عرضٍ حيٍ في إطار حركة الأشخاص بدلاً من تجريدها.

طريقتان للقصة في القرآن

يمكن التحدث عن طريقتين للقص في القرآن:

١ ـ طريقة عرض الأحداث بشكل تقريري، تنتقل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة، حتى تبلغ نهايتها.

٢ ـ طريقة الحوار، الذي يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة، دوره بأسلوب واضح، يثير من خلاله بعض القضايا إزاء الآخر الذي يقوم بدوره بالتعبير بكل أمانة ووضوح.

أما قيمة الطريقة الأولى، فتتمثل في ملاحقتها للقضايا الصغيرة في التاريخ، ووقوف الراوي أو القاص موقف المرشد الذي يقود المتلقين إلى النقاط الأساسية، بأسلوب يقرب من التلقين الذي يراد منه ملىء مساحات الفراغ بشكل دقيق.

وأما قيمة طريقة الحوار، فهي في محاولتها تبسيط وإيضاح الفكرة في جميع جوانبها بحيث لا يبقى فيها جانب خفيّ ، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها.

وهناك نقطة أخرى، تميز طريقة الحوار، وهي أنه يُجسد المشهد بشكل حي ومتحرك، حيث يعيش القارىء من موقف إلى موقف، ومن جوٍّ إلى جوّ الأحداث الماضية، من خلال حركة أبطالها الذين يشعر بهم ـ وهو مندمج في القصة ـ كما لو كان حاضراً معهم. ليس فقط على مستوى الكلمات التي يقولونها بل على مستوى الجو الذي يخيِّم على الموقف، ومعاني الكلمات الخفية، تماماً كما لو كان البطل يتحدث إليه مباشرة.

ومن الطبيعي أننا لا نستطيع الحصول على ذلك كله، في عرض القصة بأسلوب التقرير، وإن كانت قد تعطينا معرفة تفصيلية بالموقف.

وربما كان هذا هو السبب في تركيز القرآن الكريم على الحوار القصصي، من أجل تجسيد الصورة الحقيقية المتحركة للتاريخ الرسالي، الذي يريد له أن يرتبط بالحاضر، في وحدة رسالية رائعة، أو للقضايا الحيوية التي يريد القرآن الكريم إثارتها في حياة الناس وتعميقها في نفوسهم. وإننا ـ هنا ـ في محاولةٍ لاستعراض الحوار القصصي، أو القصة التي تشير إلى الحوار ، في تاريخ الرسالات وهي تتحرك في اتجاه الدعوة إلى الله، وفي القضايا الحيوية وهي تتجسد في حركة الواقع العملي، للإستفادة من ذلك الأسلوب في الدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في حركة الإسلام المستقبلية.

مع الأنبياء في حوار الرسالة

نوح وقومه

لقد تحدث القرآن الكريم عن نوح وقومه في أكثر من سورة، فقد جاء الحديث عنه في سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء وسورة نوح.

وسنتحدث عن قصته على ضوء المنهج القرآني، الذي يستفيض في القصة من جميع جوانبها، بل اقتصر على الجوانب المرتبطة بالأهداف العامة للرسالة.

وبما أننا ـ في بحثنا هذا ـ لسنا في صدد تحليل موضوع القصة في القرآن، بل نحن في صدد تلمس جانب الحوار الدائر فيها، بغرض وضع أيدينا على الصورة التي يريد تجسيدها والمعاني التي يريد إثارتها، لذلك اقتصرنا على جانب الحوار في عرض القصة فحسب.

إننا هنا نود أن نعيش أحاسيس ومشاعر نوح، النبي من خلال كلماته التي يطلقها في مجال الدعوة، ومواقفه في ساحة الصراع، من خلال أساليبه في إقناع الآخرين بفكره في إطار من المحبة والعاطفة لا يبتعد عن حركة الفكر.

ونلاحظ في هذا الجو أن صورة الكافرين الذين يدخلون في عملية الحوار مع نوح، لا تحمل فكراً يجابه الفكر، ومحبة تلتقي بالمحبة، بل هي صورة لعقلية ضيقة ترفض

التفكير بكلمات الرسول، وتفكر بشخصه، وتأبى أن تعيش في أجواء الدعوة، وتستغرق في الأجواء الذاتية والطبقية لأتباعها. وبهذا يكون تحديد الموقف من الدعوة مرتبطاً بشخصية الداعية وموقفها الإجتماعي ونوعية أتباعها ومستواهم المادي والطبقي، دون أن تأخذ الفكرة، أيَّ حساب لله، سواء في ذلك معطياتها الروحية والإنسانية في الإطار المستقبلي لحياة الأمة.

وننتقل، مع أجواء الحوار القرآني ـ في الفصل الأول من قصة نوح ـ إلى ذلك التاريخ، حتى كأننا نعانيه دون أيِّ حاجز زمني.

مبررات رفض الكافرين للإيمان

ولنقرأ ذلك كله في سورة هود.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود: ٢٥ ـ ٢٧).

إنه يدعوهم إلى الله، وينذرهم بالعذاب بمحبة عبَّر عنها بالخوف عليهم، تماماً كمن يحس بالهلع إذا انطلق مَنْ يحب في طريق يؤدي به إلى الهلاك.

إنه يفتح باب الحوار، من أجل أن يقودهم إلى الإيمان، ويأخذ بهم إلى الطريق المستقيم، ويلّح عليهم في مواكبة الفكرة ومناقشتها. ولكنهم يتركون قصة الرسالة ليركزوا على قضية الإنتماء، فهم لا يفكرون بالمصير من خلال ما تطرحه الرسالة عليهم، بل يفكرون به من خلال الوضع الإجتماعي والطبقي الذي يدعوهم الى التحرك في نطاقه .

وقد أشارت الآية إلى الخط الفكري الذي كانوا يسيرون عليه، ويحددون على ضوئه

موقفهم من الرسالة. فالموضوع الأساسي لديهم، هو نوح ورسالته. فما الذي يميزه عنهم ـ وهو بشر مثلهم ـ ليتبوأ هذا المركز الخطير وإذا ما طرحوا قضية نوح جانباً، فما الذي يغريهم بالإنتماء إليه، والإندفاع مع أتباعه ـ الذين هم أراذل القوم ـ فلا يشرّف مَنْ يحترم شرفه وطبقته أن يكون معهم في صف واحد؟

إن القضية تتمحور حول المستوى الاجتماعي الذي يتطلبونه في الرسول والأتباع، لقبول دعوته. ثم يطرح هؤلاء مبرراً جديداً للرفض، وهو أن نوحاً وأتباعه يفتقدون إلى أيَّة ميزة وأيّ فضل، يجعلهم في مركز الدعوة إلى السير في الخطى الجديدة التي يطرحونها.

وفي نهاية المطاف، كانت هذه المبررات سبباً للنتيجة الطبيعية التي ختمت بها الآية كلمتهم، «بل نظنكم كاذبين» لأن مقياس الصدق والكذب متعلق بها، لا بالعقل والمحاكمة الفكرية للدعوة وأصحابها.

الانفتاح على الحقيقة

وبدأ نوح ـ النبي ـ الحوار من المنطلق الذي انطلقوا فيه والأفكار التي أثاروها لتصحيح المفهوم الخاطىء الذي حال بينهم وبين الانفتاح على قضايا الرسالة ومفاهيمها في الحياة.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٢٨ ـ ٣١).

إنَّ ما يثيره أمامهم أن قضية النبوة والرسالة لا تعيش ضمن الإطار الذي وضعوها

فيه، بل تعيش في نطاق البينة التي تشهد لها، والحجة التي تؤكدها، وليس عليهم إلا أن ينفتحوا على ذلك، ليعرفوا ما فيها من صدق وكذب. أمّا موضوع البشريّة، فإن نوح يؤكده تماماً، حين يجرد مركز الرسالة من كل صفة ترتفع بالرسول عن صفة البشريّة، فهو لا يملك السيطرة على خزائن الأرض، ليغري الناس بذلك فيسيرون معه طمعاً في خزائنه، ولا العلم بالغيب، ليتبعه الناس من خلال قراءته للمستقبل أو الاطلاع على خفايا الناس وأسرارهم، أو الارتفاع إلى مستوى الشخصية الملائكية التي تجعله شخصاً سماوياً يخاف الناس منه ويخضعون له... بل هو رسول الله، آتاه الرسالة رحمة منه، وزوّده بالأدلة عليها، فما عليهم إلا الإنفتاح عليها بعقولهم وأفكارهم، دون وجود ما يلزمهم باتباعها قسراً إذا ما اختاروا طريق العمى، وأعرضوا عن النظر إليها بقلوب واعية مفتوحة.

ثم يحاول أن يفهمهم أن هروبهم من دعوته، إذا كان نتيجة خوفهم من خسارة مادية يفرضها عليهم لمصلحته الشخصية، فإن عليهم أن يطمئنوا إلى أن الأنبياء لا يطلبون أجراً من أحد، وأن أجرهم على الله في الدنيا والآخرة. ثم تحدث عن أتباعه الفقراء البسطاء الذين يملكون موقفاً متدنياً في الهرم الطبقي، الذي يقيس الناس بمقاييس المال والجاه والنسب والقوّة، ليعلن لهم أنه لا يمكن أن يطرد هؤلاء المؤمنين، فإنهم سيلاقون الله ويقدمون له نتائج أعمالهم، وسيجدون عند الله المقام الكبير والشأن العظيم، لأن الله لا يزدري الإنسان لشكله أو لماله أو لمركزه الاجتماعي، بل لقلبه ولعمله. فإذا كان الله يعلم الخير في أنفسهم، فإنه سيجزيهم خيراً على نياتهم وأعمالهم.

ثم يثير أمامهم قضية القوة والضعف. فمن ذا الذي ينصره من الله إن طردهم؟ هل يستطيعون هم توفير الحماية له، إذا ما أراد الله تعذيبه على إبعاد هؤلاء المؤمنين الذين هم أولياء الله وجنده؟ إنه يطلب منهم الإستيقاظ من جهلهم وغفلتهم، وتذكر واقعهم ومركزهم، وما يملكونه من قوّة، وما يتخبطون فيه من ضلال.

إنه يثير أمامهم ذلك كله بمحبة وانفتاح، فما ردهم وموقفهم؟ هل هو الحوار في مقابل الحوار، أم العناد والمكابرة والإستهانة بالوعد بالعذاب؟

إنهم ليسوا في مستوى الحوار، لأنهم لا يملكون الكلمة القويّة التي تستند إلى إيمان واعٍ ومنفتح، ولا الحجة البالغة التي يقاومون بها حجته، فلم يبق إلا العناد والتحدي ونفاد الصبر.

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (هود: ٣٢).

وقد هددوه بالرجم إذا ما استمر في دعوته هذه كما جاء في قوله تعالى في سورة أخرى.

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ (الشعراء: ١١٦).

فماذا كان جواب نوح؟.

إنه لم يؤكد لهم العذاب ولم يحاول أن يزهو أمامهم بقدرة لا يملكها، بل أراد أن يحافظ على شخصيته كرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولم ينه دعوته بأفضل مما بدأها، فهو قد أعلن لهم - في البداية - أنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، ولا يزال خوفه حاضراً، لا سيما وقد تمردوا من غير حجة ولا برهان، ولهذا كان ردّ فعله هادئاً هدوء روح الرسالة.

قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ (هود: ٣٣).

فالله هو الذي يملك أمر العذاب وأنتم لا تملكون المقاومة ولستم بمعجزين على أيّ حال

... وتبقى شخصية الرسول، الذي لا يملك أمراً إلا بالله، حاضرة فيه في حواره مع قومه بكل محبة ورحمة.

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ

تُرْجَعُونَ﴾ (هود: ٣٤).

ثم يتدخل التوجيه الإلهي الحاسم، ليوحي إليه بأسلوب الرد على فكرة الافتراء والكذب التي ينسبونها إليه، ليعلن أنه يتحمل مسؤولية كل ما يقول وما يدعو إليه، ولكنه لا يتحمل مسؤولية عنادهم وكفرهم وتمرّدهم، مغلقاً بذلك الباب على كل جدال لا يرجى نتيجة من ورائه، لأنهم ليسوا في مستواه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: ٣٥).

إن الفصل الأول من فصول القصة ـ الحوار يجسّد لنا ـ بوضوح ـ الفرق بين أسلوب الرسل في الدعوة، وبين أسلوب الكفار في الرد، ويثير أمامنا ما يجب أن يتحلى به الدعاة في كل زمان ومكان، من روح هادئة واثقة تقابل التحدي بعيداً عن الحقد، بل ترده بالحجة القويّة في إطار من المحبة والحنان، لتترك للآخرين مجال التراجع من خلال المحبة، إذا لم يتراجعوا من خلال الفكر، لأن المحبة قد تجلب القلب إلى الحقيقة، في الوقت الذي يبتعد فيه الفكر عن مواجهة الحق بوضوح.

وتعطينا ـ في الوقت ذاته ـ المثل الحيّ على أن الرسالات تنطلق من قاعدة الانفتاح على الحقيقة بكل رحابتها وسعتها، في الوقت الذي يقف فيه خصومها في المسارب الضيقة الملتوية التي تضيق بسالكيها قبل أن تضيق بالآخرين.

ويبدأ الفصل الثاني في الوحي الذي أوحى به الله إلى نوح.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (هود: ٣٦). ص٢٣٨

تقرير نوح بعد استنفاد الحوار.

وتقف بنا سورة نوح أمام الحالة النفسية التي كان يعيشها نوح ـ النبي بعد أن

استنفد كل وسائل الحوار، ووصل إلى حافة اليأس، فوقف بين يدي الله وقفة النبي المسؤول، الذي يقدم - لربه - حساب المسؤولية في تقرير حيّ متحرك، يضع فيه كل التجارب وكل المشاعر وكل السنين الطويلة، التي كانت تتسارع في حركة الرسالة، من أجل أن تلتقط بعض المؤمنين هنا وهناك، الذين يرتفعون إلى مستواها في وعي وصفاء.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح: ٥ ـ ٢٨).

ونقف مع هذا التقرير الرائع الذي قدمه نوح - النبي - إلى ربه، واضعاً فيه كل محاولاته، في ما قام به من حوار، وما أوضحه من بيان للرسالة، ودعا إليه من إيمان بالله، ومشيراً فيه إلى ردود الفعل التي كانت من قومه ضده، قولاً وتصرفاً، وداعياً إلى

الله بأن يستبدل هذا الخلق من الناس بغيرهم، لأنه استنفد معهم كل التجارب، ولم يبق هناك مجال لتجربة جديدة أو أمل جديد؛ بل ربما كان في وجودهم ما يسبب الخطر على المستقبل، لأن الأجواء التي يعيشون فيها موبوءة لا تنتج إلا جماعة مثلهم في كل شيء. وبقي ـ مع ذلك كله ـ ينتظر أملاً من الله أملاً غير محتسب.. ومفاجأة غير منتظرة، لأن اليأس لا يدخل في الحساب إذا كان الموقف مرتبطاً بالله. وتستوقفنا في هذا المجال النقاط التالية:

١ ـ النبي لا يترك مجالاً للعذر

إن نوح ـ النبي كان لا يترك فرصة إلا وينتهزها لتذكيرهم بالله، ولا يدع أسلوباً إلاّ ويلجأ إليه لتعريفهم به، حتى أنه كان يقدم لهم ـ في كل مرّة ـ الفرصة للرجوع بالتوبة التي يبدأ فيها الإنسان من جديد، تاركاً وراءه كل ظلمات ماضيه؛ ولكنهم كانوا يرفضون ذلك كله، ويتبعون القوى المترفة التي تقف أمام كل رسالة، تضيء للأمة دربها الطويل لتخرجها من الظلمات إلى النور، لأن هذه القوى لا تعيش إلا في الظلام ومن أجل بقاء سيطرة الظلام.

وهكذا فمن حق الرسالة على الرسول، ومن واجب الداعية تجاه الدعوة، أن لا يترك مجالاً للعذر، لأن روح الرسالة، مثل روح الجندية، تجعل الإنسان قوّة لا تملك نفسها، لأنها ملك للرسالة بكلّ طاقاتها وأوقاتها، تتحرك وتقف حيث تأمر الرسالة بالوقوف والحركة، وليس لها أيّة حُرِّية في ممارسة قضاياها الشخصيّة بعيداً عن موقع الرسالة.

٢ ـ الوحي ينهي المهمة لا اليأس

إن اليأس لم يدخل قلب نوح، بل كان الوحي الإلهي هو الذي أنهى مهمته الرسالية، عندما أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، بعد أن ذكر نوح لربه فشل كل التجارب التي قام بها في هدايتهم، وطلب من الله النصر عليهم.

٣ ـ الإنفعال ليس ذاتياً

إن دعاء نوح عليهم لم يكن من خلال الانفعال الذاتي، الذي يدفع إليه ضيق الصدر وخيبة الأمل، بل على أساس موقع الرسالة التي أقامت الحجة على الكافرين، فلم يبق هناك مجال لحجة أو مكان لعذر، فأصبح من مصلحة الإنسان الذي يرتبط بحركة الرسالة ونموها أن يفسح المجال لجو جديد يتنفس فيه الناس روح الإيمان وروحانيته.

.. فكان الدعاء عليهم، باعتبار أنهم يشكلون القوّة الضاغطة لمجتمع الكفر الذي لا يلد إلا مجتمعاً مثله بما يملكه من القوى المادية.

٤ ـ الرسالات تحدّ من الامتيازات الظالمة

إن الرسالات الإلهية لا تعمل لحماية الامتيازات الطبقية للمترفين، ـ بل على العكس من ذلك ـ تسعى إلى الحدّ من امتيازاتهم الظالمة، ورفع مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع ولذا كان الفقراء الذين هم (أراذل المجتمع) ـ حسب تعبير الكافرين ـ هم أتباع الرسالة وجنودها المخلصون المقربون من الله ورسله، لأنهم وجدوا فيها خلاصهم في الدنيا قبل الآخرة.

ونلاحظ من خلال ذلك كيف كان التاريخ الديني، دليلاً على ردّ الفكرة الظالمة التي يقول أصحابها: إن الأديان السماوية جاءت كي تكون مخدراً روحياً، توظفه الطبقات المستغِلّة في تخدير الطبقات المستغَلّة. ولذا فإن الظاهرة الدينية تعتبر ـ من وجهة نظرهم ـ وجهاً بارزاً للمصالح المشتركة بين رجال الدين وبين رجال الظلم والاستغلال.

مقابلة السخرية بمثلها

وبدأت ـ مع إعلان الله له بانتهاء مهمته الرسالية ـ خطة العذاب، وذلك بأن يصنع الفلك دون أن يفسح له مجال التدخل في شأنهم مع الله، فقد نزل القضاء ولا راد لقضاء الله.

وبدؤوا السخرية منه، لأنه يصنع الفلك في أرض لا ماء فيها. وكان رد الفعل هو أن يبادل السخرية بسخرية، لأنهم لا يعلمون إلى أين ينتهي أمرهم، فليس أمامهم إلا الطوفان الذي يغرق كل شيء إلا المؤمنين.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (هود: ٣٨ ـ ٣٩).

محنة نوح بابنه

وكان الطوفان، وركب نوح ـ ومن معه ـ السفينة؛ وهي تجري بهم في موج كالجبال، يتصاعد ويتصاعد حتى الأعالي في عنف وقوّة، فيكتسح كلّ شيء ويتساقط أمامه كل شيء: المدن والقرى والناس والحيوان...

ويتعرض نوح ـ النبي ـ لمحنة قاسية. فهذا هو ولده يعاند ويبقى مع القوم الكافرين، الذين كانت امرأة نوح منهم ومعهم، فربما كان ولدها خاضعاً لتأثيرهم. ويصوّر لنا القرآن الكريم حوار الأب والإبن، الذي تختلط فيه مشاعر الأبوّة بمشاعر الرسول.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٢ ـ ٤٣).

وانتهى الطوفان، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

العلاقة بالأهل يحكمها الإيمان

وبقي السؤال يلحّ على نوح والحسرة تأكل قلبه على ولده. إن الله وعده أن ينقذ أهله

عندما دعاه إلى أن يحمل فيها من كل زوجين وأهله - إلا من سبق عليه القول - ومَن آمن، (ولم ينتبه إلى كلمة إلا من سبق عليه القول)، فأقبل إلى ربه بالنداء.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (هود: ٤٥).

وكان الجواب حاسماً، يلغي علاقة الكافرين بالرسول وعلاقته بهم، حتى لو كانوا من لحمه ودمه.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦).

إنه الجواب القويّ الذي يحدد لنوح علاقته بأهله، فيلغي كل علاقة لا يحكمها الإيمان، ويمتد ذلك حتى يصل إلى ما يشبه الإنذار.

وينسجم نوح - مع أجواء الرسالة - فيستعيذ بالله من أن يكون قد عرض في قلبه أيُّ فكر لا يلتقي مع حقيقة العبودية، بل كل ما هناك أنه أراد أن يعرف ويفهم طبيعة الوعد في إطار الواقع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧).

وينتهي هذا الدور من قصة نوح - النبي - بالنداء الإلهي الذي يمنح فيه نوح ومن معه بركاته وألطافه.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: ٤٨).

تلك هي قصة نوح - النبي التي بدأت بالحوار مع قومه ومع ولده ومع ربه، وانتهت في حوار مع ربّه، يختتم فيه مهمته باستيضاح بعض القضايا الغامضة التي كانت تلحّ عليه. ويحصل في نهاية المطاف على السلام والبركة، يمنحها الله له ولمن معه من المؤمنين.

القصة في معطياتها للحاضر والمستقبل

وفي ختام هذه القصة نلتقي بعدة جوانب موحية، نستفيدها من الفصل الأخير منها، للحاضر والمستقبل.

١ ـ محاربة الآخر بالسلاح نفسه

إن بإمكان الداعية أن يستخدم أسلوب السخرية كردّ فعل لسخرية خصومه، إذا ما استنفذ الوسائل الرسالية معهم دون جدوى، إذ أنه من غير الطبيعي أن يسكت أو يرد بالكلمة الطيّبة في موقع تتحول الكلمة الطيبة فيه إلى مجال للسخرية والاستهزاء.

إن أساليب السخرية التي يستخدمها خصوم الرسالات، جزءٌ من وسائل حرب الأعصاب التي يراد منها تدمير المؤمنين تدميراً معنوياً، بما توحيه من قابلية الفكرة وأصحابها للسخرية ولاعتبارها موضعاً للتندر والاستهزاء، مما يمنع الآخرين من الانتماء إلى الفكرة خوفاً من التعرض لذلك، ويُضعف الروح المعنوية لدى أصحابها. ولهذا فإنها لم تنشأ بشكل عفوي، بل جاءت نتيجة لخطة مدروسة، فلا بد من مواجهتها بخطة مثلها أو أفضل منها، حيث يحشد فيها الدعاة كل ما لديهم من الموهبة الشخصية في فن السخرية والتندر بأفكار الآخرين وشخصياتهم، كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس والعقيدة... حتى ينتهي الأمر إلى تحطيمهم نفسياً ومعنوياً، بالسلاح نفسه الذي يحاربون به. وهذا ما استهدفه القرآن من توجيه نوح ـ النبي إلى السير مع قومه في هذا الاتجاه علمياً.

٢ ـ صلاح الوالد وفساد الولد

إنه ليس من المفروض في أولاد الأنبياء أن يكونوا صالحين، وإن كان من الأفضل أن يكونوا كذلك. فليس معنى أن يكون الإنسان صالحاً، أن يكون أولاده صالحين، على أساس أنَّ عدم صلاحهم يضرب الحكم بصلاحه، لأن الولد خاضع ـ في صلاحه وفساده ـ لتأثير البيئة العامة وهو المجتمع، كما هو خاضع لتأثير البيئة الخاصة ـ وهي

البيت ـ فعلى الأب أن يبذل جهده، فإذا نجح في ذلك، حصل على ما يريد، وإلاّ فقد أدى واجبه.

إن القضية ـ بكل اختصار ـ تتحدد بالمسؤولية في إطارها الشرعي، فإن مهمة الرسول، وكل داعية غيره، تتلخص في دعوة كل الناس ـ ومنهم الأقربون بالدرجة الأولى ـ وبذل كل جهد في هذا السبيل، بالفعل وبالحكمة، وبالترهيب والترغيب، بنفسه أو بالاستعانة بغيره.. فإذا استنفد كل جهده فقد قام بمسؤوليته، سواءٌ قُبلت دعوته او رُفضت من الأقربين أو من الأبعدين، دون أن ينقص أي من الحالين من مكانته .

٣ ـ مع الرسالة دون العاطفة

إن على صاحب الرسالة أن لا ينجرف مع عاطفته إزاء أهله، إذا ما استحبوا العمى على الهدى، بل عليه أن يبقى مع رسالته، لتكون البوصلة التي تحدد مسار عاطفته، كما تحدد مسار حياته. فقد يكون للإنسان الحق في مجاراة مشاعره في العلاقات التي تربطه بالآخرين، ما دامت عاطفته لا تقترب من عقيدته والتزاماته؛ فإذا اقتربت العاطفة منهما، وقفت العاطفة أو تأخرت، لتتقدم العقيدة والمبادىء في طريق الحياة الطويل.

قال تعالى:

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

تلك هي قصة نوح ـ النبي في حواره مع قومه، بكل معطياتها ونتائجها العملية في الاتجاه المستقبلي للدعوة إلى الله وإذا كنا قد خرجنا عن الدائرة التي وضعناها للحديث في بعض ما عالجناه منها، فلأن الدخول في أجواء الحواركان يقتضي ذلك من وجهة عامة.

هود... وعاد

وهذه قصة أخرى ينقلها لنا القرآن الكريم، في ما ينقله من تاريخ الأنبياء مع أممهم، وهي قصة هود ـ النبي مع قومه عاد.

وقد تحدث القرآن في مناسبات عدّة عن هذه القصة في أكثر من سورة: من «الأعراف»، إلى «هود»، إلى «المؤمنون»، فـ«الشعراء»، فـ«الاحقاف»، فـ«الذاريات»، فـ«القمر»، فـ«الفجر».. وقد تنوع أسلوب القرآن الكريم في الحديث عنها بين الإجمال والتفصيل، وبين طريقة الحوار وطريقة الحكاية.

ونحن هنا في مجال بحث القصة في إطار الحوار، لنتعرف على الخصائص المميزة لأسلوب هذا النبي مع قومه، باعتبار أن قومه يختلفون في بعض أوضاعهم عن قوم نوح وغيرهم لنستطيع الخروج ببعض النتائج المهمة في تنوّع أساليب الدعوة في حياتنا المعاصرة، تبعاً لاختلاف حالات المجتمعات التي تتحرك فيها الدعوة إلى الله.

وسندير البحث ـ على ضوء ذلك ـ في هذه القصة، من خلال السور التي دارت في أجواء الحوار بين هود وقومه.

قال تعالى:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥ ـ ٦٩).

مواجهة بين أسلوبين

إن أسلوب الكافرين في مواجهة الدعوة ـ في البداية ـ تمثل في اتهامه بالسفاهة والكذب. أما أسلوب النبي، فقد تمثل بالرد على التهمة بهدوء الرسالة، ودعوتهم إلى التفكير العميق بما يثيره أمامهم من قضايا وشرائع، ومحاولة التحبب إليهم من خلال مخاطبتهم بلهجة الناصح الأمين. ثم التساؤل الهادىء البريء، عن وجه العجب في أن يكون الرسول منهم، وعن أساس رفضه لذلك، إذا كان لرفضهم أساساً معقولاً. ثم التوجه ـ بكل محبة وقوّة ـ لتذكيرهم بنعم الله عليهم، من قوة جسدية استطاعوا بها أن يجوبوا الصخر بالواد، وأن يحققوا لأنفسهم امتيازاً على الآخرين في شؤون القوة والسيطرة على البلاد والعباد؛ فماذا كان ردّ فعلهم، وهل استجابوا للدعوة إلى التفكير الذي يقود إلى الحوار، والمناقشة، والاستفهام؟ لا شيء إلا العناد والمكابرة، ورفض التحرك نحو التغيير، واتهامه بالاساءة إلى عقيدة الآباء، ومواجهته بالرد المتشنج المتوتر الذي يستعجل العذاب الذي لا يرونه قادراً على تنفيذه، أو جاداً في الوعيد به، مما جعل القضية تتخذ طابع المواجهة الحادّة تحدياً.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ٧٠).

وكان الردّ قوياً صاعقاً، يحمل في حناياه السخرية اللاذعة، مما يعتقدون فهم لا يملكون أي قوة قادرة على المواجهة، فكيف بقوّة الله؟ بل هي مجرد كلمات وأسماء لا تحمل في داخلها أيّ معنى وأيّ قيمة.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٧١).

أما في سورة هود، فنرى الصورة بشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً.

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: ٥١ ـ ٥٢).

إنه يلمس مكمن الإحساس فيهم، عندما يمنيهم بالماء الذي كانوا يتطلعون إليه في أرضهم الصحراوية، وبزيادة القوّة التي كانت مبعث زهوهم وغرورهم، طالباً منهم أن يتوبوا إلى الله الذي يملك ذلك كله، ولا يعرضوا عنه وهم غارقون بالجريمة، متلبسون بالتمرد والمعصية.

فما هو الجواب؟

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود: ٥٣ ـ ٥٧).

إنهم ينكرون حجته من دون أساس، ويرفضون دعوته لاستضعافهم له ولقوله، ويرمونه بالمسّ في عقله بسبب مهاجمته لآلهتهم مطلقين مجموعة من النعوت غير

المسؤولة التي لا يؤمن بها حتى أصحابها. وقد أغلق الردّ - في بدايته - الحوار بإعلان البراءة من شركائهم بشهادة الله وشهادتهم، ليكون ذلك حداً فاصلاً بينه وبينهم في نهاية المطاف. ثم واجه موقف استضعافه واللامبالاة به، بموقف القوة الذي يستهين بأي قوة يمثلونها أمام قوّة الله القادر على استخلاف غيرهم بعد إهلاكهم، دون أن يستطيعوا عمل أي شيء حياله. ثم يتحداهم بأن يكيدوه ويهاجموه جميعاً ولا يُنظرونه، ويوحي إليهم من خلال، أسلوب المواجهة القوّية، أنهم لن يستطيعوا للوصول إليه سبيلاً.

وهكذا نجد في هذا الأسلوب ما يسترعي الإنتباه و شجب الدرس من قِبَل العاملين في سبيل الله، يستطيعون من خلال تنويع الأساليب التي يستعملونها، على إيقاع معرفتهم للمجتمعات التي يعملون فيها ويهدفون إلى هدايتها إلى الطريق إلى الله.

المقارنة بين قوم نوح وبين قوم عاد

إننا نلاحظ هنا - ونحن نتابع قصة نوح وقومه، وهود وقومه - عدة أمور.

١ - إن الأفكار التي كانت تحكم ذهنية قوم نوح، هي الأفكار التي تحكم ذهنية قوم هود، حول شخصية النبي، ورفض فكرة بشريته، ومواجهته بتهمة الكذب والافتراء، ونسبة الجنون أو ما يشبه الجنون إليه، وتقديس عقيدة الآباء وأخلاقهم، واستبعاد فكرة البعث.

ولعل السبب في ذلك هو تقارب زمانهم، كما يشير إليه القرآن الكريم في بعض الآيات:

﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصۜۜطَةً...﴾ (الأعراف: ٦٩).

٢ - إن الرسالات كانت تصطدم بالفئات المترفة التي تحاربها شعوراً منها بالخطر

والخوف على امتيازاتها، لأن الرسالات السماوية لا تمنح أي إنسان، مهما كان، امتيازاً خارج نطاق العمل والكفاءة . ونعرف ذلك من خلال وصف القرآن الكريم لهم بالترف، والتركيز على هذه الصفة في مجال استعراض الواقع .

٣ - إن خصوم الرسالات لم يستطيعوا تبرير فكرة رفضهم لها تبريراً معقولاً على أساس المنطق، بل كان رفضهم يعيش في إطار صعوبة الخروج من الواقع المألوف لديهم أو الإنسجام مع حركات التغيير.

٤ - إن النبي هنا - في قصة هود - يقف كما وقف في قصة نوح، ليواجه الناس بالكلمة الهادئة الرصينة، والأسلوب الحكيم المرن محاولاً فتح قلوبهم على الحقيقة، ويوجه أفكارهم إلى الإيمان بأكثر من طريقة، دون أن يكون هناك أيّ مجال للإنفعال، أو أيّة ثغرة تسببها المواقف المتشنجة مهما كان لونها، لأنه لا ينطلق من موقف ذاتي تحكمه مشاعر وانفعالات الذات ونقاط ضعفها، بل ينطلق من قاعدةٍ فكرية رسالية، تحتكم إلى الرسالة في كل ما تأخذ وتدع.

تلك هي الجوانب المشتركة بين الموقفين: نوح وقومه، وهود وقومه.

أما النقطة التي تميز هؤلاء عن أولئك، فهي ما يملكه قوم هود من قوة، الأمر الذي يجعل أسلوبهم في المعارضة والمكابرة يأخذ طابع الضغط على هود - النبي.

ونلاحظ أن النبي لم يخضع لذلك، بل حاول أن يتحداهم في قوتهم هذه، من حيث ارتباطها بالله القوي القادر القاهر، فهو الذي وهبهم إياها، وهو الذي يستطيع أن يأخذها منهم. فهم لا يملكون مع الله لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة.

ولم يقتصر على ذلك، بل حاول أن يقف أمامهم موقف القوي الذي يستمد قوته من الله، ولذا فهو يخاطبهم من هذا الموقع، بما يذكره الله على لسانه.

﴿. . . فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ (هود: ٥٥).

وهكذا نجد أن الأسلوب بإختلاف طبيعة الموقف؛ فكان مزيجاً من اللين الذي يفتح القلوب على الحق، ومن العنف الذي يطامِن من حدّة العنف لدى الخصم..

تلك هي الصورة التي تطالعنا بها قصة هود في حواره مع قومه حول قضية الإيمان والعقيدة، في ما قرأناه من آيات تجسّد لنا أكثر ما استطعنا أن نتبينه من خصائص ومميزات.

صالح وثمود

وهذه قصة من قصص النبوّات، لا تختلف عن سابقتها ظروفاً، وطريقة حوار وقضايا إثارتها شخصية النبي وأساليبه، وفي المناخ الذي كان يعيشه أولئك الأنبياء من سيطرة المترفين المتكبرين، الذين يزهون بقوتهم وثرواتهم وقصورهم التي يبنونها في السهول وبيوتهم التي ينحتونها في الجبال.

ولكن الفارق بين هذه القصة، وقصة هود، أنَّ صالحاً جاء إلى قومه بآية بيّنة من ربّه، وهي الناقة التي تسقيهم من لبنها دون أن يجف ضرعها مهما كان عددهم كبيراً؛ ولذا كان الماء قسمة بينها وبينهم، فلها شرب يوم ولهم شرب يومٍ معلوم.. وقد شكلت تحدياً لعنادهم وكبريائهم، إذ واجهوه بمؤامرة دبروها لقتلها انتهت بنزول العذاب.

ولسنا ـ هنا ـ في صدد تحليل ذلك كله، لخروجه عن موضوعنا الأساسي، بل كل ما نريده التركيز على نقطتين بارزتين للحوار في هذه القصة.

النقطة الأولى: محاولة المستكبرين إثارة شك المستضعفين بالرسالة، من خلال طرح سؤال ساذج، ظاهره طلب الحقيقة وباطنه إرادة التضليل، للإيحاء إليهم بأن عليهم إعادة النظر في قناعاتهم، على أساس أن القضية تشمل الأخذ والرد، ولا ترقى إلى مستوى الوضوح الكامل، ليكتشفوا أنها لا تمثل الحقيقة اليقينية.

ولكن المستضعفين وقفوا بقوّة لتأكيد إيمانهم بأسلوب قوي، جعل أولئك يكشفون هويتهم بالكفر والعناد والتحدي العنيف.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦).

أسلوب ماكر وخبيث

ولا بد لنا من التوقف قليلاً أمام هذه النقطة، لنتأمل ـ جيداً ـ في هذا الأسلوب الذي قد نواجهه في ما نواجه ـ من أساليب الكفر والضلال ـ عندما يتوجهون إلينا بطريقة التحبب والتودد، وكأنهم يقولون لنا: هل أنتم جادّون أم مازحون في إعلانكم الاعتقاد بما تعتقدون به أو بما تثيرونه من قضايا؟ ويضيفون بعد ذلك: إننا لا نعتقد هذا، لأنكم ـ حسب رأينا ـ في مستوى من الوعي والعلم يجعلكم في موقع ثقافي يرفض تقبل هذا، فكيف بالإيمان به؟!!

إنه الأسلوب الخبيث الذي يحاول أن يجعل من قضية الإيمان والعقيدة، قضية تسيء إلى كرامة الإنسان، لإمتهانها قدراته العقلية والفكرية.

وقد يضعف الكثيرون أمام هذا الأسلوب ممن يحاولون دائماً أن يشكلوا ثقتهم بأنفسهم، من خلال رأي الآخرين بهم أو مدحهم لهم، فيسقطون ـ في النهاية ـ من حيث لا يشعرون، وينهزمون من حيث لا يعلمون.

ولا نمانع من استخدام هذا الأسلوب مع الكثير من المضلّلين من خصومنا في العقيدة، لأنه ينسجم مع واقع الأمور إذا ما مارسناه، نظراً للأساس غير المعقول الذي ارتكز عليه هؤلاء في كفرهم وشركهم وضلالهم. ولعلنا نجد في القرآن الكريم كثيراً من الإشارة إلى هذا الأسلوب في حديثه مع المشركين والكافرين، عندما يطلب منهم الرجوع إلى عقولهم، ليكتشفوا أن عقائدهم لا تتناسب مع العقل الواعي والفكر العميق.

النقطة الثانية: محاولة الكافرين إثارة جانب الكرامة الاجتماعية في نفس صالح ـ النبي، والإيحاء إليه بأن هذه الدعوة أفقدته مركزه لديهم وثقتهم به واعتمادهم عليه، ليكون ذلك حافزاً له على التراجع عنها.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود: ٦٢).

ولكنه يواجههم بمنطق الرسالة، لوضوح الموقف لديه من جهة، واعتبار الرسالة رحمةً من الله له من جهة أخرى. فهي تعوِّضه عن كل شيء يفقده من تقديرهم، مما لا يرقى إلى مستوى القيمة الحقيقية أمام تقدير الله. ثم التركيز ـ من جانبه ـ على أنهم لا يستطيعون أن يُقدّموا له أيّ عون أو نصر في مواجهة عقاب الله، لو أراد عقابه وعذابه في حال انحرافه عن الخط وسيره حسب ما يريدون أو يقترحون.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (هود: ٦٣).

استغلال نقاط الضعف

وقد نحتاج إلى الوقوف هنا، كما وقفنا عند النقطة السابقة، لنجد في الأسلوب الذي اتبعه قوم صالح مع نبيهم، نموذجاً لأكثر الأساليب خطورة على العاملين الذين يعيشون الضعف تجاه الكرامة الشخصية التي تحددها قِيَم المجتمع ومقاييسه.

فقد يتعرض العاملون لمثل هذا الأسلوب، الذي يوحي لهم بأن التزامهم بخط الدعوة إلى الله يفقدهم الثقة الاجتماعية، بما يثيره من حساسية إزاء ما يقدسه المجتمع وما يحترمه من تقاليد وقضايا، وبما يلتصق بهم من نعوت وألقاب لا تُشرِّف حاملها كما في كلمات الرجعية والتأخر والخيانة مقابل التقدمية والتطور والوطنية والإخلاص.

وقد يشعر الإنسان بالإنسحاق أمام ذلك ، عندما يكون محصوراً في إطار ذاته بعيداً عن رسالاته، مما يجعل إرتباطه برسالته يتحدد من خلال ارتباطها بذاته وبمركزه

الاجتماعي، فيذوب مع الكلمات تماماً كما يذوب الملح في الماء بكل سذاجة وهدوء.

إن على الداعية ـ كما تريد الآيات الكريمة أن توحي ـ أن ينفتح على رسالته، ليدرك الخطأ في إخضاع الثقة لمقاييس الباطل واعتباراته، بدلاً من موازين الحق وقيمه، وليؤمن بأن الإنسان الرسالي هو من يشعر بأن ثقة الرساليين هي القيمة التي تملأ النفس. أما غير الرساليين، فإنهم لا يمثلون شيئاً في ميزان الثقة لدى أصحاب الرسالات، لأن الموقف المنتظر منهم أن يستخدموا في مواجهة العاملين كل الأساليب الضاغطة والمدّمرة التي تحطم ثقتهم بأنفسهم وثقة الآخرين بهم.

إبراهيم وقومه

وهذا نبيٌّ آخر عظيم الأهمية عند الله تعالى، كما يتضح من الصفات الكثيرة التي يسبغها عليه في آياته، بحيث يقف في مركز القمّة بين الأنبياء، كما في الآية الكريمة التي تجعل منه خليلاً للرحمن، بكل ما يمثله ذلك من قيم ومعان كبيرة ﴿. . . وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥).

وقد كثر الحديث عنه، حتى شمل عشرين سورة تناولت جوانب مختلفة من حياته، بأساليب حوار متنوعة في حواره مع نفسه ومع ربّه ومع قومه ومع طاغية زمانه (النمرود)، ومع الملائكة الذين جاؤوا إليه في قصة لوط، وفي قصة تبشيره بمولود له بعد اليأس.

وسنجد أننا سننفتح في هذه القصة على أساليب عديدة من الحوار، في مجال الدعوة إلى الله سبحانه، أو في مجال التعبير عن بعض القضايا المهمّة التي تطال الإيمان، وسنكتشف في شخصية إبراهيم ـ النبي الإنسان الذي يعيش في كل لحظات حياته ومظاهرها، الشعور بالله، ويحسُّ ـ في الوقت نفسه ـ بالواجب يتقدّم العاطفة، حتى في أشدّ الحالات التي تتحكم العاطفة بها.

حوار مع الذات

تقدم الحديث حول إبراهيم، في قصة الحوار، في مواقف ثلاثة: حواره مع نفسه في رحلته الفكرية إلى الله، وحواره مع ربّه في الانفتاح على الطرق التي تجعل الإيمان نابعاً من الحس، كما هو منطلق من الفكر، وحواره مع قومه، عندما قام بتكسير الأصنام، ليجعل ذلك فاتحة حوار معهم، يواجههم فيه بالحجة القاطعة التي تُظهر لهم خطأ عقيدتهم وسلوكهم في الحياة.

وقد رأينا في ذلك كله، أسلوباً عملياً يمكن للداعية أن ينفتح عليه في طريق الدعوة إلى الله، فقد نجد - في مرحلتنا - أن بإمكاننا أن نستفيد من حواره مع نفسه في تهييء الأجواء، كالندوات الثقافية والمحاضرات الفكرية، وغيرها من المجالات التي يقف فيها الداعية مع الجماهير، ليطلع على ما يدور في أفكارهم من قضايا، وما يتبنونه من مفاهيم، وقناعات، ليبدأ مناقشتها بالإيحاء لهم أنها تمثل إحدى مراحل نموّه وتطوّره الفكري، وذلك ليتجنب أي نوع من أنواع الإساءة إلى مس الكرامة فيهم، وليشعرهم بأنه في صدد عرض قناعاته السابقة التي اهتزت بفعل الأفكار الجديدة التي حصلت له، والمواقف الصحيحة التي لم يكن قد اكتشفها بعد. وبهذا فإنه يتجنب الدخول معهم مباشرة في جدل ومناقشة لما يعتقدون ولما يفكرون.

إنهم - على ضوء هذا الأسلوب - يستطيعون اكتشاف خطأهم دون مقاومة نفسية، تماماً، كمن يقرأ كتاباً أو قصة تتعلق بالآخرين، فينسجم معها كما ينسجم مع قصص الآخرين، ليجد أنه في نهاية المطاف - استطاع أن يكتشف نفسه ويعرف خطأ موقفه من دون سابق إنذار.

وقد يفيدنا إستخدام هذا الأسلوب في الكتابات التي نريد من خلالها عرض الأفكار التي تثار مع أو ضد العقيدة، فبدلاً من أسلوب الوعظ الذي يخاطب الآخرين مباشرة، يمكننا استخدام الحوار الذاتي وأسلوب المناجاة الذي يخاطب فيه الإنسان نفسه.

يمكننا بذلك أن نشق الطريق لتشكيل أدب الدعوة الإسلامية، على ضوء التجارب الأدبية القرآنية شكلاً ومضموناً، من أجل أن تتفاعل الأسس الفنية للأدب مع الأسس الواقعية العملية للدعوة إلى الله.

بين الفكر والإيمان

وقد نجد في حوار إبراهيم مع ربّه نموذجاً رسالياً رائعاً لأسلوب العمل. فقد طلب ـ من ربه ـ أن يريه معجزة إحياء الموتى على الطبيعة كي يطمئن قلبه.

ومن هذا نستوحي أسلوباً عملياً جديداً في مواجهة ردود فعل الآخرين على ما نقدمه إليهم من أفكار، وذلك بأن نضع في حسابنا الحقيقة التالية، وهي أن الأفكار التي نقدمها للآخرين في إثبات قضايا العقيدة، قد تقنعهم فكرياً، ولكنها لا توصلهم إلى مرحلة الإيمان الروحي العميق الذي يلتقي فيه العقل والقلب، فيتحوّل إلى طمأنينة عارمةٍ وسلامٍ روحيٍ عظيم.

ولهذا، فإن علينا أن لا نستنكر عليهم هذا الطلب، تماماً كما لم ينكر الله على نبيه طلب رؤية المعجزة، من أجل الحصول على الطمأنينة القلبية بعد حصول الإيمان الفكري.

ومن البديهي، أننا لا نستطيع تقديم المعجزة للآخرين كما قدمها الله لنبيِّه، ولكننا نستطيع تقديم الأفكار الواضحة القريبة من حياتهم، حتى يحسوا أن قضية الإيمان تتحرك معهم في كل مايعملونه أو يقيمونه من علاقات.

وقد نعرف من هذا كله، أن على الداعية أن يكون في حركة دائمة في مواجهة الواقع ليفهمه كمادة خام من مواد العمل التي يحتاجها، مما يدعونا إلى أن نبعث الحركة في التوجيه، والوعي في المعرفة، لتخرج الدعوة من الجمود الفكري الذي يعرضّها غالباً إلى أن تصبح قطع أثرية جامدة في متاحف الأفكار.

وربما يكون من شروط هذا الاتجاه، الذي نستوحيه من هذا الموقف، أن لا نكتفي بما عندنا من الأفكار والتعاليم الجاهزة التي تركها لنا الأقدمون، حتى تحوّلت إلى «أدلة رسمية» لا تحمل من حرارة المعرفة شيئاً، إلى درجة أن مَنْ يعيش في إطارها يشعر وهو يتلوها أنه يتلو محفوظاً لا حياة فيها عن ظهر قلب.

ولعل ما يشجعنا على استنتاج ذلك أن الأسلوب القرآني انطلق إلى الحياة بكل ما فيها، من ظواهر صغيرة أو كبيرة، سواءً منها الظواهر الكونية أو الظواهر الحياتية الفردية والاجتماعية، ليجسد الدليل على وجود الله وعلى القيم الإنسانية الكبيرة.

إن مثل هذا الأسلوب الذي أخذ في تجربته حيزاً كبيراً، يوحي لنا أن هناك أساليب كثيرة محتملة الإكتشاف على الطريق، في حياتنا التي تتجدد أحوالها وظواهرها ومعطياتها في كل يوم، لأن الحقيقة - وإن كانت واحدة - إلا أن أساليب الوصول إليها غير محصورة في زمان أو في مكان أو أشخاص. كما ورد في الكلمة المأثورة: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. فإذا كان الأقدمون قد اكتشفوا بعض الحقائق، فإنهم أبقوا منها الكثير لنكتشفه ونتعلمه، لنعلّمه للآخرين.

انتهاز الفرص لفتح الحوار

أما الأسلوب الثالث الذي اتبعه إبراهيم - النبي في حواره مع قومه، عندما قام بتكسير الأصنام، فقد نحتاجه في بعض الحالات التي نشعر فيها، بوجود ثغرات كبيرة أو صغيرة، غفل عنها أصحابها في المجتمع المنحرف؛ فإن من الطبيعي أن نفتح المعركة من خلال تلك الثغرات التي تفسح لنا مجال الدخول في الحوار وصولاً إلى الهدف الذي نريد، مع مواجهتهم المباشرة بالخطأ الكبير في عقيدتهم أو في سلوكهم ، ودفعهم إلى اتخاذ أحد موقفين: إمّا موقف الاعتراف بالحقيقة مع اكتشاف الخطأ، وإمّا موقف العناد والمكابرة بشكل علني الذي يفقدهم إحترام أنفسهم وإحترام الآخرين لهم،

الأمر الذي يجردهم من قدرتهم التأثيرية على الآخرين في الإتجاه والضال والمنحرف.

ولا بد لنا، عند اتباع هذا الأسلوب، من الانفتاح على أفكار الآخرين وممارساتهم، لنكتشف نقاط الضعف ونقاط القوة، لنستفيد منها في معركة الحوار من أجل العقيدة.

تلك هي بعض الجوانب العملية التي نستفيدها، من حوار إبراهيم مع نفسه ومع ربه ومع قومه.

وهناك أساليب أخرى، استخدامها إبراهيم في الحوار مع قومه، ولكن القرآن الكريم لم يذكر فيها جميعاً ما قاله قومه له، بل اكتفى بذكر موقفهم ومحاجّتهم له ولعل السبب في ذلك هو أن وجهة نظرهم معروفة من خلال الجواب، أو من وضوح فكرة الشرك بوجهٍ عام، الذي تعرّض له القرآن الكريم في قصة إبراهيم وغيرها من قصص الأنبياء مع المشركين، الذي عرضناه في فصل الحوار (مع المشركين).

مجابهة حملات التخويف والانهزامية

ولنقف مع هذه الآيات الكريمة، التي توضح لنا بعضاً من فصول هذا الحوار:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢).

فإننا نشعر ـ ونحن نقرأ هذه الآيات ـ أن المشركين قد واجهوه بأسلوب التخويف من قوة أصنامهم، أو شركائهم. وأرادوا منه أن يكفّ عن تحدي الأصنام والشركاء وعقيدتهم بشكل عام، بحجة الخوف عليه من انتقام هؤلاء الآلهة، الذين يعتقدون بقدرتهم

على الإساءة لمن يتحداهم، كما ظهر من قوم نوح عند ما قالوا له:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ . . . ﴾ (هود: ٥٤).

وقد أمسك إبراهيم هذه الحجة، ليردّها عليهم بطريقة أقوى؛ فهو يوضح لهم أوّلاً إن ارتباطه بالله لم ينشأ من حالة ضغط نفسية، تطلب الأمن من خلال الإيمان، بل كانت حاصلةً من الهداية الإلهية التي فتحت قلبه وفكره على نور الإيمان، فانطلق يُلبِّي نداء النور الذي انفتح به على الله.

ثم بدأ معهم حكاية الخوف والأمن؛ فهو يعلن لهم في البداية أنه لا يخاف شركاءهم مهما كانت القوّة التي يملكونها أو يزعمونها لهم، لأن الله خالق كل شيء، وهو الذي يملك قوّة كل شيء. فلا يملك أيّ شيء ضراً ولا نفعاً إلا بالله، وبمشيئته التي لا يعلمها أحد.

ثم يوازن بين خوفه من الشركاء الذين يريدون منه أن يحذرهم فلا يتعرض لهم بسوء، وبين الخوف من الله الذي يريد أن يثيره في نفوسهم، لإشراكهم به ما لم ينزل به سلطاناً. وينتهي إلى النتيجة الحاسمة ـ بعد أن أثار أمامهم استفهاماً إنكارياً فيمن هو أحق بالأمن ـ وهي أن بإمكان الإنسان أن يحمي نفسَه من الشركاء بقوّته المستمدة من قوة الله، أو بقوّة الله التي يعتمد عليها في حالة عجزه عن المقاومة، فيحسّ بالأمن نتيجة ذلك. ولكنهم ـ هم المشركون، كيف يستطيعون الشعور بالأمن، أمام غضب الله وسطوته، الذي لا يثبت أمامه شيء مهما كانت قوته ومهما كانت عظمته؟

ولهذا كان الأمن نصيب المؤمنين الذين آمنوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، لأن الشعور بالأمن جاء نتيجة ارتكازه على قوة ذات أساس متين.

وإذا كانت فكرة هذا الحوار، تدور في نطاق الشرك والتوحيد بين فريقي المؤمنين والمشركين، فإن بإمكاننا الاستفادة منها في نطاق واقع قوى الإيمان وقوى الكفر والضلال، عندما تتوجه الدعوات الانهزامية لتثني المؤمنين في دعوتهم إلى الإيمان،

بحجة الخوف عليهم من قوى الكفر والضلال التي تملك كل عناصر القوّة المادية، في حين لا يملك المؤمنون من عناصر القوة شيئاً، مما يؤدي الى اهتزاز موقف المؤمنين، وإضعاف معنوياتهم وشل حركتهم بالتالي عن العمل.

وقد لا يقتصر استخدام هذا الأسلوب على الكافرين والضالين، بل قد يشترك فيه ضعفاء المؤمنين، ممن تحطمت أعصابهم وانهارت معنوياتهم تحت ضغط مظاهر القوى الطاغية للكفر والضلال، فأحبوا السلامة لأنفسهم، وآثروا السير في ركاب الانحراف مع الشعور بالأمن على الاستمرار مع الحق في ظل الإحساس بالخطر.

إننا قد نحتاج إلى الأسلوب الذي مارسه إبراهيم ـ النبي في حواره مع قومه، عندما أثاروا معه مشكلة الأمن والخوف، ليعيد المؤمنين إلى إيمانهم العميق الذي يرتبط بالشعور بقوة الله أمام كل قوة أخرى، وليجعلهم يواجهون قوى الانهزام بما واجه به إبراهيم قومه في معركة الصمود والثبات، ليكونوا في مستوى المؤمنين الذي تحدث القرآن عنهم في آية أخرى.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥).

حواره مع أبيه

وننتقل مع إبراهيم إلى مواجهةٍ أخرى وحوار جديد مع أبيه، الذي كان كافراً[(١)].

---

(١) يختلف المفسرون حول الشخص الذي دعاه إبراهيم أباً له . هل هو أبوه الحقيقي، أو عمه الذي رباه بعد وفاة أبيه؟ ويحاول الذين ينكرون أبوّته لإبراهيم التعلق بالفكرة التي تقول : إن آباء الأنبياء لا بد أن يكونوا مؤمنين، وإن مَنْ ينتسب إليهم إبراهيم ،من آباء، كلهم مؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ . ونحن قد نتحفظ حول هذا الرأي، ولكننا لا نجد ضرورة في تحقيق ذلك، لأنه لا يتصل بموضوعنا من قريب أو من بعيد.

كقومه ـ ورأى إبراهيم أنَّ من أولى مهماته في الدعوة إلى الله أن يبدأ بدعوة أبيه، لأن بقاء أبيه على الكفر يخلق نقطة ضعف في موقفه، وقد يسبب له مصاعب داخلية تعطل خطواته، أو تجلب له مشاكل غير منتظرة.

وقد كان الحوار يواجه صعوبة في بدايته، لأنه حوار الابن لأبيه، في مجتمع يعطي للأبوة قيمة كبيرة ترقى إلى درجة القداسة، وتلزم الأبناء بالخضوع المطلق لآبائهم. ولهذا كان إبراهيم حَذِراً في أسلوبه، فلم يلجأ إلى استخدام أيِّ عنصر من عناصر الإثارة التي تتناول الذات بالتجريح والتبكيت، بل حاول ـ على العكس من ذلك ـ أن يشحن أسلوبه في الحوار بالعاطفة بحيث يشعر من يقرأه أن في الموقف ما يعبِّر عن حالة توسل إلى أبيه، هي حالة مَنْ يخاطب إنساناً عزيزاً معرّضاً للسقوط أو للهلاك، يتحدث معه بكل هلَعٍ ومحبّة لإنقاذه، لذا نجد في الحوار، بساطة الفكرة ووضوحها، في إطار الجو الحميم الذي يسود الموقف:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤١ ـ ٤٨).

إننا نلاحظ ـ في أسلوب إبراهيم ـ أنه حاول تبرير دعوته لأبيه، بما جاءه من العلم لم يأتِ أبيه، ولذا فلا مانع ـ من وجهة اجتماعية ـ أن يدعو الابن أباه مع حفظ مقام الأبوّة، كما عبِّر عن شعوره العاطفي تجاه ضلال أبيه وخوفه من أن يمسه عذاب الله.

وقد كان ردّ أبيه رداً ينطلق من الشعور بالسلطة الأبوية التي تسمح للأب بالضغط على الابن، ليسير على خطى أبيه، وتهدده بالقوّة والطرد والهجران إن خالف ذلك. فلا حوار في علاقتهما، إنما أمر وطاعة. فللأب أن يعلن عن رغبته، وللإبن أن يُنفِّذ دون تردد أو تفكير. إنها الشريعة السائدة آنذاك، التي تجعل من علاقة الآباء بأبنائهم علاقةً تشبه العبوديّة.

ولم يتراجع إبراهيم عن إثارة الجو العاطفي في موقفه من أبيه، حيث استطاع أن يوفق بين الرسالة والعاطفة، فجعل العاطفة والإحساس بالمسؤولية تجاه أبيه طريقاً للرسالة، لأن ذلك يحوِّل الموقف إلى موقف إنقاذ. فكان رد فعله تجاه إنكار أبيه التوجه إليه بالسلام، والوعد بالدعاء له بالمغفرة، بأن يوفقه لأسبابها من الهداية إلى الإيمان، والإعلان له ولقومه ـ باعتبار أن أباه يمثل فريق الكفر ـ بأنه سيعتزلهم وما يعبدون من دون الله بعد أن قام بواجبه تجاههم.

وجاء هذا الوعد من إبراهيم لأبيه بالإستغفار، نتيجة شعوره بالأمل في أن يتراجع أبوه عن موقفه ويرجع إلى الله، وليس نتيجة الشعور بأن القرابة تمثل امتيازاً يميِّز أباه عن غيره. ولذا أعلن البراءة منه بعد وضوح موقفه تماماً، وظهور عداوته لله، ويأسه من إيمانه. ونحن في مجال الدعوة، نستطيع الاستفادة من هذا الأسلوب في مواجهة عداوة الأشخاص الذين نرتبط بهم ببعض الروابط العاطفية من نَسَب وغيره، حيث يمكننا شحن الحوار بالمشاعر العاطفية، التي تسهِّل المهمّة بما تثيره لديهم من أحاسيس عاطفية من جهة، ومن إنسجام مع الأجواء الحميمة للحوار من جهة أخرى، دون الإنجراف مع العاطفة لمصلحة الكفر والضلال، لأن الأسلوب العاطفي في مثل هذا الأمر لا يشكك استجابة لحالةٍ نفسية عفويّة، بل يرتكز على تخطيطٍ يعتبر العاطفة جزءاً منه، ويخضع لما تخضع له الخطة من مرونة ووعي وثبات.

وعلى ضوء هذا، نجد أن من واجبنا إعطاء الأسلوب بعض القوّة في حالات أخرى، تقتضي منا أن نواجه الآخرين بشدّة، إذا ما أرادوا استغلال الجانب العاطفي لأغراض في غير صالح الدعوة إلى الله، تماماً كما كان عليه الأسلوب الآخر لإبراهيم الذي كنا

قد أشرنا إليه، ليظل الأسلوب منسجماً مع خط الحكمة الذي يريد الله للدعوة في سبيله أن تسير عليه. وقد نشعر ـ في نهاية المطاف ـ بالحاجة إلى خلق الأجواء الروحية في بعض حالات الحوار، في ربط المتحاورين بفضل الله ونعمه، أو في ابتهال خاشع يمارسه الداعية للتأثير النفسي على الآخرين، عندما يشغلهم عما هم فيه بروعة المناجاة وخشوع الابتهال.

حواره مع ولده

كان إسماعيل هبةً من الله لإبراهيم ، على دعوة دعا بها ربه، قال فيها كما جاء القرآن .

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١).

وعاش مع أبيه، يشاركه في كل أعماله ومسؤولياته ويتقبل ـ مع أبيه ـ عهد الله إليهما في بناء البيت، على أساس طاهر متين، كما حدثنا الله سبحانه في سورة البقرة:

﴿ . . . وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩).

وهكذا نجد أنه كان رفيقاً له في مهماته الرسالية وفي ابتهالاته الروحية، كما كان رفيقاً له في حياته العامة، كابنٍ بارٍّ يرافق أباه ويعاونه في أمور الحياة.

البلاء المبين

وكان البلاء، أمام الرسول ـ الأب والابن ـ الصالح، تجربةً من أشدِّ المواقف صعوبة في حياة الإنسان، تمثلت في موقف يهز كل ما في أعماق الإنسان من مشاعر وقناعات، وجعلها في قبضة التجربة.

فقد رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده، وكانت هذه الرؤيا بمثابة وحي صادر من الله إليه، أن يقوم بذلك. فقد كان المنام أحد وسائل الوحي في حياة الأنبياء السابقين.

فماذا كان رد فعل إبراهيم ـ الأب، الذي يواجه دور إبراهيم ـ الرسول، في مسؤولية صعبة ومهمّة شاقة، تتحدى فيه جانب العاطفة، لترفع من مستوى الرسالة؟.

هل اختلف موقف شخصية الأب عن شخصية الرسول؟.

هل حدث صراع بين الشخصيتين داخل إبراهيم، بعد أن عاش القلق المدمّر وانتهى بانتصار شخصية الرسول على شخصية الأب؟

إن القرآن لم يحدِّثنا عن شيء من هذا القبيل، وربما يكون الغالب أن ذلك لم يحصل أبداً، لأن للأنبياء شخصية واحدة تندمج فيها كل الجوانب الأخرى، لتلتقي على محبة الله ورضاه. وهذا ما تعبِّر عنه الآية الكريمة التي تحدثت عن شخصية إبراهيم:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١).

فليس هناك إلا الإسلام لله بكل شيء، بنفسه وحياته وماله وولده. فإذا كانت إرادة الله أن يذبح ولده، فليتقبل إرادته بروح مسلمة، كما يتقبل إرادته ويخضع لها في الواجبات الأخرى التي لا ترتبط بعاطفته.

وجاء الأب ـ الرسول إلى ابنه الذي أسلم وجهه لله، ينقل إليه الأمر الإلهي وهو يتمنى في قرارة نفسه، من خلال جوّ الحوار أن يستجيب لأمر الله.

﴿ . . . قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ . . . ﴾ (الصافات: ١٠٢).

فماذا كان رد الفعل لدى ولده؟

هل طلب مهلة للتفكير، أو تردد في الموضوع قليلاً؟

إنه نفس رد الفعل الذي واجهه الأب، عندما تلقى الأمر الإلهي. إنها إرادة الله، فلنتقبل إرادة الله بكل خضوع وبكل صبر وإيمان.

﴿ . . . قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وبدأ إبراهيم وإسماعيل عملية التنفيذ، في روح تتقبل المهمّة، كما تتقبل أية مهمة أخرى من نوع آخر. إنها روح الإسلام المطلق لله.

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ (الصافات: ١٠٣).

وانتهت المهمة عند هذا الحدّ، فلم يكن المنام ـ الوحي، يفرض استكمال الذبح، بل كان يصور عملية البدء بالذبح. وهكذا كان وجاء النداء من الله لإبراهيم، أن يرفع يده عن إسماعيل.

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٤ ـ ١١٠).

التسليم الكامل

إن قيمة الحوار القصير الذي دار بين إبراهيم وبين إسماعيل، هي أنه يمثّل لنا الحالة النفسية التي استقبل فيها إبراهيم أمر ربّه، واستقبل فيها إسماعيل طلب أبيه:

في أن يذبح الأب ولده، وأن يقدم الابن نفسه، ليساعد أباه على تنفيذ أمر الله.

وقد رأينا أنها تجسد لنا الهدوء الرسالي، الذي يتقبل فيه الرسل إرادة الله في خضوع ورضا واستسلام، كنموذج فريد من الانسجام في موقف الإنسان ـ الرسول والإنسان ـ المؤمن، بين ما يؤمن به من عقيدة، وما يقوم به من عمل، ليدلل على أن الرسل لا يتحدثون عن التضحية في سبيل الله، من خلال التفكير النظري، بل يندفعون فيه في إطار من التجربة الرسالية الرائدة. ولعلّ أيّ تقرير آخر عن هذه الحالة، لا يستطيع أن يقدّم لنا الصورة الكاملة كما استطاع أن يعبِّر عنها القرآن الكريم في آية أخرى.

تنوع الأساليب

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤).

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الجو كان محكوماً للحوار الفردي مع أبيه، ولكن الحال يختلف حينما يتحدث إلى أبيه، بين قومه. فإن الأسلوب ـ في الحوار ـ يدخل في جوّ آخر، يعنف حيناً ويرق حيناً آخر حسب الخطة الموضوعة للعمل، كما نجد ذلك في الآيات الكريمة.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٧).

وقد خاطبهم في آية أخرى بقوله:

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات: ٨٦).

فإننا نلاحظ - هنا - أن الأسلوب كان عنيفاً حاسماً، قوامه مواجهة القوة بقوة موازية في مستوى المرحلة، بينما نجده - في آية أخرى - يواجههم بموقف لا أثر للعنف فيه، كما لا يظهر فيه أيّ مظهر من مظاهر الضعف، بل نشعر أنه محاولة ذكية رائعة تنقل الموقف بشكل مفاجىء من الحوار الذي يدور حول الأصنام، إلى الجو الذي يقف فيه إبراهيم خاشعاً أمام الله، ليعدّد نعمه عليه، وليوحي بارتباط مصير الإنسان بكلمته، ثم ينتقل رأساً إلى الدعاء الخاشع مقدماً طلباته أمام الله بكل خضوع. ذلك كي يعاينوا بشكل حي المواقف الروحية التي يخلقها الإيمان في حياة الإنسان، ويشعروا بروعتها وعظمتها.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٦٩ ـ ٨٩). ص٢٦٩

نستطيع الاستفادة من هذا الأسلوب في دعوة الأشخاص، الذين نرتبط بهم ببعض الروابط العاطفية. فقد استطاع هذا الحوار القرآني القصير أن يعرض أمامنا، صورة عن مواجهة مواقف كهذه بكل وضوح وعمق وتجسيد. نشاهد من خلاله الموقف على الطبيعة، فنعيش معه كل الأجواء التي تحيط بالكلمات دون أن ندخل في معاني الكلمات.

وقد نلتفت - ونحن نتابع المشهد - في الحركة السريعة التي يتصاعد فيها الإيمان ويتعاظم، كمثل الطوفان الذي يكتسح أمامه كل معاني القلق والحيرة إلى وجود ما يميِّز موقف نوح في قصة ولده، مقارنة بموقف إبراهيم، حيث نرى بعض الفروق والمميزات التي يتميز فيها الأنبياء بإيمانهم وملكاتهم الروحية، وإن كان لكل واحدٍ منهم منزلته وقيمته الكبيرة عند الله، كما في قوله تعالى:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. . . ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

أمّا حصيلتنا النهائية من ذلك كله، فهي الإستفادة من عرض هذا المشهد كنموذج حيٍّ من نماذج القمّة، التي يمكن للتربية الإسلامية أن تنطلق منها في تخفيف الانسجام العملي بين المبدأ وبين الموقف، لينشأ جيل الرسالات على معايشة نماذج التاريخ الديني الحي الرائد، إلى جانب الأفكار والتعاليم الدينية الرائدة، لتكون الفكرة قريبةً من الواقع في وعي المؤمنين لها؛ لا مجرد أفكار تعيش في إطار المثال.

حواره مع النمرود

وقد واجه إبراهيم - النبي في حياته طاغيةً من أكثر الطغاة تمرداً، إذ بلغ به الطغيان تخيُّل نفسه الإله الذي يجب على الناس أن يعبدوه من دون الله. ولم يحدِّثنا القرآن عن اسمه، ولكن تاريخ القصص الديني للأنبياء يعطيه إسم النمرود. ولا يهمنا ذلك في قليل أو كثير، لأن القيمة تتمثَّل بالنماذج الحيَّة، في ما تمثِّل من مواقف حاسمة وتجارب رائدة.

وقد وقف إبراهيم - معه - في قصة الحوار، موقفاً حاسماً قوياً، حاول أن يثير فيه قضية الألوهية أو إرتباطها بالقدرة المطلقة التي لا يملكها هذا الطاغية، فطرح فكرة الحياة والموت، وأن الله - رب إبراهيم - هو الذي يحيي ويميت. ووجد هذا الطاغية الفرصة سانحة لاستغلال سذاجة أتباعه للرد بأسلوب التمويه والتلاعب على الألفاظ، فأجاب إبراهيم بأنه يحيي ويميت، لأنه يستطيع أن يهب المحكوم عليه بالموت الحياة،

ويستطيع أن يعدمه فيقضي عليه بالموت؛ فيكون بذلك مالكاً لأمر الحياة والموت. ومالكاً لصفة الإله الذي يحيي ويميت.

ولم يترك إبراهيم له فرصة الزهو بطغيانه وتمرّده، بل تحداه بالظواهر الكونية الثابتة التي خلقها الله، وطلب منه تغييرها إذا كان إلهاً حقاً، وقدّم له كمثل الشمس التي خلقها الله لتشرق من جهة المشرق، وطلب منه أن يحوّل طلوعها إلى جهة المغرب. فبهت الذي كفر، ولم يملك جواباً على هذه الحجة المفاجئة. وهذه هي قصة الحوار، كما صورها القرآن الكريم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

تعطيل خطة التضليل

أما ما يمكن أن نستلهمه من إبراهيم ـ النبي في هذا الحوار، فهو مواجهة مَنْ يحاولون تمويه الحقائق، سواءٌ ما يتعلق فيها بشؤون العقيدة أو ما يتصل بأمور الحياة على البسطاء من الناس بأساليب ساذجة تخدعهم، وذلك بتعطيل خطة التمويه والتضليل التي يستخدمونها، بالانتقال إلى التحديات الواضحة التي لا تخفى على أحد ولا تنطلي ـ بالنتيجة ـ على أحد.

ولا بد لنا ـ في سبيل الوصول إلى ذلك من معرفة الأساليب المضلِّلة التي يخضع لها البسطاء من الناس، والأساليب الصارخة التي تستطيع تحديها دون أن يملك الآخرون القدرة على ردّها أو مقاومتها على الأقل. وهذا ما يفرض على العاملين ملاحقة الواقع والقوانين التي تحكمه وتوجه خطواته، بكل وعي ودقّة وشمول وانفتاح.

الرصيد الرسالي

وهكذا نصل إلى نهاية المطاف في حديثٍ عن الحوار في قصة إبراهيم - النبي، دون أن نعمل على إستيعاب كل القضايا المطروحة في حياته، لأن غرضنا- من هذا البحث - عرض النماذج المرتبطة بالدعوة إلى الله، لا استيعابها فقط ولكننا استطعنا أن نخرج من هذا الحوار المتنوع المتحرك، بحصيلةٍ كبيرة حول أسلوب الدعوة إلى الله، والجوانب الحيوية للعمل. ولا يفوتنا - ونحن نختم الحديث - أن نشير إلى شخصية إبراهيم الرائعة المرتبطة بالله، بشكلٍ يجسد الشعور بهذه الرابطة، فتراه يثيرها في القضايا الصغيرة والكبيرة، حتى ليحس من يقرأ مسيرته بأن الله معه في كل شيء، في طعامه وشرابه، في حياته وموته، في مرضه وعافيته، في دنياه وآخرته، لإحساسه بالحاجة الماسّة إلى الاستعانة بالله في كل شيء، لا سيما عندما يتحرك في الأعمال الرسالية التي تحتاج إلى بذلٍ وجهدٍ وتضيحةٍ واستشهاد.

ولعل هذه الروح، هي التي جعلت إبراهيم يقتحم كل المواقف التي واجهته في حياته بقوّة واطمئنان، دون أن يعرف الخوف قليلاً او كثيراً سبيلاً إلى قلبه.

وهذا ما نحصل عليه من رصيد رسالي عملي في تربية الشخصية الإسلامية، التي تنطلق مواقفها الصعبة في العمل الإسلامي في الرسالة والحياة، من موقع إسلامها لله في القول والعمل والحياة.

الحوار في قصة موسى

لقد كانت قصة موسى (ع)، في القرآن الكريم، من أكثر القصص القرآنية تكراراً، فقد ذكرت في أكثر من ثلاثين موضعاً. ولعل قيمتها في هذه الحياة المتحركة أبداً، في شخصية موسى القويّة التي دخلت إلى الحياة في ظروف صعبة، منذ ولادته، وفي المجتمع المقهور المستعبد في ذلك الوقت، وفي الحياة القلقة التي درج فيها في أول خطواته، مما جعله يختزن ذلك كله في كيانه، ليواجه الحياة من موقع القوة التي ما إن يجرها الصراع بعيداً، حتى ترجع إلى الله سبحانه في موقف إنابة وابتهال.

الموقف العصيب

ومرّت حياة موسى بمواقف صعبة جداً، قبل أن يرسله الله نبياً إلى فرعون، وحفلت بالكثير من الأحداث والمواقف، التى تركت أثراً في شخصيته، وجعلتها تهتز قليلاً في شعور خفيٍّ بالقلق حيال قوة الطغيان والكفر، المتمثلة في فرعون وسيطرته على حياة أمته.

ولهذا وقف ـ أمام تكليفه بالرسالة ـ في الموقف الخائف الذي يتقبل الرسالة بإيمان،

ولكنه يريد أن يستجمع - في نفسه وفي خطواته - عناصر جديدة من القوة، التي يستمدها من ألطاف الله من جهة، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخرى. ولعلنا نتلمس هذا الموقف العصيب الذي وقفه موسى، وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه، في الحوار التالي بينه وبين الله في الآيات الكريمة التالية:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه: ٢٤ ـ ٣٥).

إننا نلاحظ - هنا - أنّه لم يرفض التكليف، ولكنه كان يشك في قدرته على إبلاغ الدعوة بالمستوى المطلوب، لأنها تحتاج إلى فكر يتسع لكل ما حوله، ووعي يرصد مفاجآت المستقبل، وإلى لسان فصيح يعبر عن الفكرة بوضوح ويتحدث عنها بأسلوب مَرِنٍ، يحسب لكل الأجواء المحيطة به حسابات دقيقة، تجعل الكلمة تتجه إلى هدفها بهدوء، وذكاء وثقة، بعيداً عن إثارة الحساسيات، التي قد تحرف الموقف عن هدفه. ونجده - في آية أخرى - يعرض أمام الله بعض الأمور التي قد تعيقه عن القيام بالمهمة المطلوبة، وهو قتله لأحدهم سابقاً، في ما حدثنا الله عنه بقوله تعالى:

﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء: ١٤).

ولهذا كانت طلباته إستجابة للمتطلبات الموقف في أن يشرح له صدره، وييسر له أمره، ويحل له عقدةً من لسانه حتى يستطيع أن يفهمهم ما يريد، ثم يدعو ربه ليستزيد من عامل القوّة، فيطلب من الله أن يشرك أخاه هارون معه فيكون وزيراً له، حتى يتحركا بالدعوة من موقع قوّة.

وجاءه النداء من الله - سبحانه - كما جاء في الآية الكريمة:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٣٦).

ونواجه - في الفصل الثاني - موسى وهارون معاً عند تكليف هارون لمساندة أخيه في مهمته، في موقف حوار ومناجاة مع الله سبحانه، وهما يعبِّران أمامه عن شعورهما بصعوبة المهمّة الموكولة إليهما.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (طه: ٤٢ ـ ٤٨).

الاعتماد على القوة المطلقة

وكان التكليف حاسماً، فقد طغى فرعون، ولا بد له من رسول يبلِّغه كلمات الله ورسالاته، ليهزّ طغيانه بالكلمة القويّة الهادية، من موقع المحبة التي تهز أعماقه، ثم بالقوّة الإلهية القادرة على تحطيم قوّته.

وكان الخط الذي رسمه الله لأسلوبهما في الدعوة، هو استخدام الكلمة في إطار المحبة بالأسلوب الهادئ والقول اللين، والهدف من ذلك أن تفتح الرسالة قلبه على دعوة الحق، فتذكِّره بالله من خلال نعم الله وآياته، وتخوفه من عذاب الله.

وقال موسى وهارون، إنهما يخافان من طغيان فرعون عليهما، وهو الذي يملك كل الحول والقوة الماديين، في الوقت الذي لا يملكان فيه أيّ شيء منها.

ولكن الله يطلب منهما أن لا يخافا، لأنهما يعتمدان على القوّة المطلقة، قوّة الله الذي يخلق القوّة لدى الأقوياء، ويملك أمرها كما يملك أمرهم. فهو معهما يسمع ما يقولان وما يقال لهما، ويرى ما يصنعان وما يصنع بهما. فكل شيء يحدث هو برعاية الله وبعينه..

ثم يعلّمهما ماذا يقولان.

إن عليهما ـ في البداية ـ أن يعرِّفاه صفتهما الرسالية، ليعرف الصفة التي يحاورانه بها، ويقدّما له طلباً، يفتح الصراع ويوضح طبيعته، وهو أن يرفع عن بني إسرائيل الذين كانوا مضطهدين من قبل الاضطهاد والعذاب، ويرسلهم معهما لينطلقوا في حياة حُرّة جديدة، بعيدة عن ضغطه وطغيانه. ثم يقدمان له المعجزة التي تثبت له الصفة الرسالية التي يحملانها، ويخوفانه من عذاب الله إذا أراد أن يسلك طريق التكذيب والإعراض عن كلمات الله.

وتنتهي مهمة التكليف بالرسالة، وما دار فيها من حوار بين موسى وهارون من جهة والله سبحانه من جهة أخرى، ليبدأ تنفيذ أوامر الله، فقد واجه موسى وهارون فرعون بالدعوة، بصفتهما الرسالية التي تعطيهما صلاحية التكلم معه باسم الله. وبدأ الحوارٍ بينهما وبين فرعون على الشكل التالي :

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه: ٤٩ ـ ٥٥).

فقد تجاهل فرعون ـ في البداية ـ معرفة رب موسى وهارون، الذي يحملان رسالته، وحاول أن يثير السؤال أمامهما عنه، للإيحاء لقومه بأن القضية لا تعدو أن تكون متعلقة بشخص منافسٍ له غير معروف. وكان جواب موسى كلمةً جامعة، تضع السائل في موقع الجهل الشامل بكل شيء، فكيف يطرح هذا السؤال، وهو يعيش في هذا الكون الذي تشهد كل موجوداته، من أصغر ذرة إلى أكبر شيء فيه، على وجود الله الذي أعطاها صفة الوجود، ثم نظمها وهداها إلى تحقيق الأهداف التي أرادها في الكون، بما أودعه فيها من القوانين الطبيعية التي تتحرك بحساب وتقف بحساب، من غير أن

تنحرف عما أريد لها، ولو بمقدار شعرة؟

فكيف يمكن لإنسان أن يجهل ذلك كله أو يتجاهله، في الوقت الذي يستطيع أن يكتشفه في الأرض التي يمشي عليها وفي السماء التي ينزل منها الماء فيحيل الأرض المجدبة خصباً وحياة وثمرات من كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، وفي كل شيء موجود؟ إن مَثَل المتجاهل لهذا الإله العظيم، مَثَل من يتجاهل أصل وجوده.

وبدأ فرعون إثارة سؤال آخر، يريد به صرف الأنظار عن الجواب الذي لم يستطع رده بشيء يذكر، وتوجيه الانتباه نحو قضية جانبية، تخلق جواً من الإثارة التي تعكر الأجواء ضد الرسالة والرسول، وهو موضوع القرون الأولى التي كانت تسير في غير خط الإيمان. وكان جواب موسى، أنَّ علمها عند الله، فهو يعلم ما عملت ويحفظه في كتاب يواجههم به يوم القيامة.

ثم أعاد الحديث عن الله، وخلقه للأرض التي مهدها وسلك فيها السبل التي تجعلها صالحة للحياة، وخلق السماء التي تهب الحياة للأرض بما تنزله من ماء يبعث الخصب الذي تنتفع به الناس والأنعام. ثم لخص الدورة التي يقطعها الإنسان على هذه الأرض، منذ لحظة وجوده إلى خروجه منها ليقف بين يدي الله.

وهذه لفتة بارعة من موسى ـ النبي يواجه بها فرعون، تتحدى هروبه من الإفاضة في الحديث عن الله، خشيه أن يؤثر موسى على مَنْ حوله ممن يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة، إذ لم يسبق لأحدٍ أن واجه فرعون بمثل ما واجهه به موسى من دعوة وحوار.

أما حصيلتنا من ذلك، في أسلوبنا العملي، فهو عدّة أمور:

١ ـ الدعوة بين الرسالية والاعتبارات الذاتية

وتتمثّل في أن يقف الداعية من نداء المسؤولية موقف الاستجابة، مهما كانت حالته النفسية من خوف أو قلق، فلا يجعل من ذلك مبرراً للاعتذار والهروب، بل عليه أن يفكر في الموضوع كما فكر موسى في البداية وأن يلجأ إلى الله في ابتهال وخضوع،

يستعرض فيه طاقاته التي يخشى على الرسالة من ضعفها واهتزازها، فيطلب من الله أن يقوّي فيه تلك الطاقات للحصول على ثقةٍ روحية مستمرة من الشعور بالمدد المستمر من ربّه. ثم يلتفت ـ من جهة أخرى ـ ليطلب أن يشرك معه الإنسان الذي يمكنه أن يقدم للرسالة طاقةً مساعدة تضاف إلى قوّة الرسول.

ولعلنا نستفيد من هذه الآيات الفكرةالتالية: وهي أن على الداعية أن لا تتملكه النزعة الفردية والذاتية، وتمنعه من الاستعانة بغيره في عمله، أو قبول مثل هذا العرض من الآخرين، لأن ذلك يفقده زهو الاستقلال بالمهمّة، ويخلق انطباعاً بقصوره عن الاضطلاع بالمسؤوليات العملية في نظر الآخرين.

أمّا السبب في ذلك، فهو أن القضية ـ في العمل الرسالي ـ ليست قضية خاصة، لتدخل في نطاق الحسابات الشخصية، بل القضية قضية الفكرة التي يؤمن بها الداعية، والدعوة التي يحمل مسؤوليتها، مما يجعل قضية النجاح والفشل قضية الأمة. ولذا فإن عليه أن يضع ذلك في حساباته عندما يريد الانطلاق في العمل، فيدرس كل العناصر التي تساهم في الوصول بالخطة إلى أهدافها الكبيرة، سواءٌ في ذلك الأشخاص الذين يتعاون معهم، أو الوسائل التي يتبعها في سبيل الوصول إلى ذلك. وربما كان موقف موسى، في حواره مع ربّه وطلبه إشراك هارون معه، يمثل القمة في وعي المسؤولية بعمق وإخلاص، حيث لم يجد أيّة غضاضة في أن يقدّم لله عرض إشراك أخيه في المسؤولية، لأنه يتمتع بصفات لا يجدها في نفسه مما تحتاج الرسالة إليه.

إنه الدرس القرآني العظيم لأولئك الذين يفكرون بالعمل الرسالي من زاوية الأنانيات الشخصية والاعتبارات الذاتية، التي تمنع الإنسان من التعاون مع أيّ إنسان كان أو الإستعانة به في مجال العمل، كي لا يعطوا للآخرين انطباعاً بكونهم في حاجة إلى غيرهم.

٢ ـ الشعور بحضور الله

إن الله يريد من الداعية أن يشعر دائماً ـ في أيّ موقف من مواقفه ـ أن الله معه،

يسمعه ويراه، ويرى تحديات خصومه وأعمالهم. فإن ذلك يجدد في نفسه الإحساس بالقوة في كل المواقف التي يتعرض فيها لنوازع الضعف حيال تحديات الخصوم وتهويلاتهم.

إنه - في ظل هذا الشعور - لا يحس بالوحدة، ولا يستسلم لأية حالة من حالات الانسحاق إزاء قوّة الآخرين.

٣ - نقطتا ارتكاز لخط الدعوة

وكل ذلك يكمن في أن ينطلق - في أسلوبه - من الطريقة التي تفتح قلوب الآخرين وأفكارهم على كلمة الله. فيفتش عن الكلمة المشبعة بالوضوح والقوة والحنان، وعن الأسلوب الهادىء الذي يوحي بالثقة، ويدعو إلى التفكير، ويبتعد - ما أمكنه ذلك - عن الكلمة المعقدة القاسية، وعن الأسلوب المتشنّج الذي يوحي بالقلق، ويدفع إلى التحدي. أما السبب في ذلك، فهو أن الخط الرسالي ينطلق من حقيقتين واقعيتين:

الأولى: إن على العاملين أن لا يتركوا أمام الآخرين أيّ حاجز فكري أو نفسي، يحول بينهم وبين وعي الرسالة وفهمها وتقبلّها والانفتاح عليها، بحيث لا يبقى لهم أيّةُ حجة للإنكار أو للإعتذار من ناحية البلاغ، ليأتي إنكارهم - إذا ما حدث بعد إقامة الحجة عليهم - نتيجة العناد والمكابرة على ضوء قول الله تعالى:

﴿ . . . لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

الثانية: الإيمان العميق بأن الإنسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله، فإنه يظل قادراً على تحسس الحق ومعاني الخير، بسبب الدوافع الخيّرة الكامنة في فطرته التي فطره الله عليها، وهي فطرة قابلة للإستيقاظ من حال الرقود على صوت خيرٍ وكلمة حلوة، تنفتح عليها الروح في حالات الهدوء والتأمل. ولذا فإن علينا أن نتحدث إلى كل إنسان - مهما كانت درجة انحرافه - بالكلمة الحلوة والصوت الخيِّر المملوء بالمحبة، فربما تلاقيان الجو الروحي القابلة للهداية بذلك.

وربما كان هذا هو السرّ في التوجيه الإلهي لموسى وهارون، أن يتحدثا بالقول اللّين مع فرعون، أملاً في أن يتذكر بتذكيره بمعاني الخير، وفي أن يخشى بتخويفه من المصير المظلم الذي يستقبله عند الله إذا استمر في طريقه المنحرف في أجواء الضلال.

٤ ـ الحفاظ على هدف الحوار

وذلك بأن يعي الداعية كل الأساليب التي يحاول الخصوم استخدامها في سبيل إبعاد الحوار عن هدفه الأساسي وفكرته الأصيلة ، فيرجعهم إلى الفكرة من جديد، بأسلوب حكيم يتميز باللباقة والذكاء كما فعل موسى (ع)، في ما أشرنا إليه من حديث عند استعراضنا لحواره مع فرعون، في هذا الفصل وفي بعض الفصول السابقة.

حوار السحرة مع فرعون

ونلتقي ـ في قصة موسى ـ بحوار السحرة مع فرعون، فقد جاء بهم ليتحدى المعجزة الإلهية، التي وعد موسى بها دليلاً على صدق رسالته، ومنّى فرعون السحرة بالوعود المعسولة على عملهم ونجاحهم، فجاؤوا وألقوا ما عندهم من سحرٍ عظيم، وجاء موسى أيضاً، وألقى عصاه فإذا هي أفعى تلقف ما يأفكون. فما كان منهم إلا أن آمنوا بموسى لأنهم وجدوا أن ذلك ليس في مستوى السحر، بل هو شيء فوق ذلك كله، مما لم يألفوه ولم يعرفوا له مثيلاً في كل ما شاهدوه من أساليب السحر. فعرفوا أن ذلك من الله سبحانه، لا من موسى، مما يجعل دعوته في مستوى دعوات الأنبياء الذين يتميزون بقدرات غير عادية، في ما يقومون به من معاجز، وفي ما يقدمونه من آيات. فانفتحوا على الإيمان بكل قوّة، وبكل ابتهال وخشوع. وهال هذا الأمر فرعون واعتبر ذلك مؤامرة مدبّرة في الخفاء ضدّه، ورفض أن يصدّق أن القضية قضية إيمان صادق، ينبعث من مواجهتهم للحجة الواضحة والبرهان القوي، تماماً ككثير من الطغاة الذين لا يريدون أن يصدقوا أن الكثير من الاستجابات الشعبية لقوى التغيير، ناتجة عن الإحساس العميق بالحاجة إلى التغيير والخروج من واقع الظلم والطغيان؛ فيندفعون إلى التفتيش عن أسباب ظاهرة التمرّد عليهم وعلى حكمهم في مؤامرات شخصية، يحركها أعداؤهم

التقليديون وغير التقليديين. وبدأت حرب الأعصاب، بالتهديد بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل والصلب، ليتراجعوا، فلم يتراجعوا وواجهوه بالإيمان القويّ الصامد الذي لا يتزلزل ولا ينهار ولا يتراجع أمام كل أساليب التهويل والتهديد.

وكان موقفهم من أسمى المواقف التي تجسّد الثبات على العقيدة أمام قوى الكفر والطغيان حتى الموت.

ولنقف وقفة تأمل مع هذه الآيات الكريمة، التي تجسد لنا الصورة من خلال حوار السحرة مع فرعون منذ الاستجابة لندائه بدافع الرغبة في المنفعة المادية والقرب منه، إلى نهاية الموقف الذي انتهى بالاستجابة لنداء موسى (ع) .

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ (١١٥) قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾

(الأعراف: ١١٣ ـ ١٢٦). ص٢٨١

الصراع الدامي

وينقل لنا القرآن الكريم الحوار في صورة ثانية، تشتمل على بعض العناصر التي أغفلتها هذه الآيات، تبعاً لمتطلبات الجو الذي يفرض الاستشهاد بقصة السحرة مع فرعون، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه: ٧٠ ـ ٧٦).

إن فرعون ينكر عليهم أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم؛ كأنَّ عملية الإيمان تحتاج إلى الإذن الفرعوني، كما يحتاج إليها أيّ عمل آخر، يتعلق بقضايا الحياة.

وذاك هو ديدن الطغاة في كل زمان ومكان، فهم يريدون أن يملكوا على الناس عقولهم وأفكارهم، بحيث لا يفكرون إلا بما يقدمونه لهم، ولا يؤمنون إلا بما يدعونهم إليه من عقيدة. فالتفكير ممنوع، والإيمان محرّم بدون الإذن الرسمي من قِبَل السلطة، التي تملك العقول كما تملك الأجسام والأعمال.

ثم يحاول أن يخفف على نفسه وقع الصدمة وحرج الموقف، لأن ما حدث يشكل نقطة ضعف في سلطانه، باعتبار أن المتمردين من أتباعه المقربين، فيحاول أن يصور لنفسه وللآخرين أن القضية ـ منذ البداية ـ لم تكن تمرداً عميقاً يصدر عن قناعةٍ بالدعوة الجديدة، ورفضٍ للسلطة القديمة، بكل ما تمثله من أفكار، بل كانت مؤامرة سابقة مدبّرة من قِبَل موسى وهؤلاء السحرة، باعتباره أستاذهم الكبير الذي علمهم السحر، وأرادهم أن يقوموا بهذه التمثيلية، لإظهاره في موقف المنتصر في مقابل فرعون الذي يقف في موقف المهزوم.

ولم يُفلح تهديده في جعلهم يتراجعون عن موقفهم، بل وقفوا موقف اللامبالاة أمام صرخات التشنج التي يطلقها فرعون، ليقولوا له بكل قوّة: إننا لن نؤثرك على ما شاهدناه من البيّنات على الحق، فافعل ما تريد. فليس أمامك إلا أن تقضي علينا، ولن

يشقينا ذلك، بل يسعدنا لأننا سنحصل على سعادة الفوز بالشهادة في سبيل الله، بالوقوف مع كلمته وقفة إيمان كبير ، وأنت على أي حال إنسان زائل لا تملك إلا القليل، فلست ضمانةً لأحد حتى لنفسك. أما الله فهو الخالد الباقي والضمانة الدائمة، لأنه مالك كل شيء حتى أنت، فهو خير لنا وأبقى من كل شيء في الحياة.

إنه الموقف الرائع، والنموذج العظيم للإيمان الصامد أمام الكفر الطاغي، في أروع صورة للصراع الدامي، بين قوى الكفر والطغيان، وبين قوى الحق والإيمان.

أما نحن فنشعر بالحاجة الكبيرة إلى أن نتمثل هذا الموقف، أمام تهاويل الطغاة وتهديداتهم، وحجرهم على حرية الفكر الإسلامي الذين لا يريدون لنا أن نتحرك فيه إلا بمقدار صالح للإستغلال، حيث يكون مجرد واجهة تحمي ما خلفها من انحرافات وأخطاء، بما تضفيه على تلك الإنحرافات من قداسة الحق وحصانة الإيمان.

إن هذه النماذج العظيمة في تاريخ الرسالات، تطرح أمامنا الشعار القرآني في تجسيد عملي رائع:

﴿. . . وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى: ٣٦).

حوار موسى مع قومه

حدَّثنا القرآن الكريم عن مواقف عديدة للحوار بين موسى وقومه، حول قضايا عدة، تمثلت فيها حالات من فقدان الانضباط والانسجام مع دعوته من قبل قومه. فقد كان دورهم في بعض المواقف دور الفضولي، الذي يكثر من الأسئلة بلا حاجة، مما جعلها أساساً للتضييق عليهم من التكليف الذي لو سكتوا عنه، وانسجموا مع طبيعته، لاكتفى الله منهم بالأقل، ولم يكلفهم بالأكثر؛ كما ورد في بعض الأحاديث المأثورة عن النبي محمد (ص): «أَنَّ بَنِي إِسْرائِيلَ، لَوْ اعْتَرضُوا بَقَرةً فَذَبَحوها لأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ شَدَدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ».

وتلتقينا ـ في هذا الموقف ـ بعض الآيات الكريمة التي تتحدث عن أمر الله لهم بذبح البقرة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٦٧ ـ ٧١).

فقد صدر الأمر لهم بذبح البقرة؛ ولكنهم لم يأخذوا الموضوع بجدية، في البداية، واعتبروه ـ أو هكذا أرادوا تصوره ـ مزاحاً من موسى أو سخرية بهم، مع ما في ذلك من إساءة لمقام النبي، ولمقام النبوّة، لأنهم لم يجدوا علاقةً بين ما سألوا عنه من فصل الخصومة ومعرفة القاتل، وبين الأمر بذبح البقرة. حتى إذا ما رأوا الأمر جدّياً، حاولوا التلاعب بالموضوع، أو هكذا يخيل إلينا من أسلوبهم في السؤال.

وواجه موسى الموقف بأعصاب باردة، تجيب عن السؤال بإضافة قيود تشريعية على الواجب المفروض، حتى وصل في علوه إلى مستوى كلّفهم مالاً كثيراً.

وقد يكون من حقنا أن نفهم هذا الأسلوب، كطريقة تربوية عملية حازمة، حاولت أن تغلق الباب على أساليب التلاعب بالأوامر الإلهية الملقاة على قوم موسى، بالدخول معهم في ملاحقة تفاصيل الواجب الذي أخذت شروطه بالتصاعد التدريجي، بشكل مطرد مع تصاعد الأسئلة، مما جعل قضيته تبدو أمراً طبيعياً لا تكلّف فيه ولا صعوبة، ليفهموا ـ بشكل صامت ـ أن الفضول الجاد أو الهازل يكلف صاحبه كثيراً من الجهد والخسارة، لا سيما إذا ما كان الفضول منطلقاً من اللعب والعبث بمواقع المسؤولية التي لا مجال للفضول فيها، كونها تعبِّر عن إرادتها وحدودها بشكل محدّد واضح لا أثر للغموض فيه.

السؤال في ما اشتبه أمره

أمّا العبرة من هذا الموقف ـ الحوار، فهي أنّ على العاملين تناول التعليمات الموجهة إليهم من المسؤولين بكل بساطة، على أساس مفاهيمها البسيطة الواضحة دون أن يتكلفوا لها قيوداً إضافية. فما دامت القضية قد صدرت لهم مطلقة بلا قيد، فليتقبلوها كذلك. فإذا كان هناك تقصير في البيان أو إغفال لبعض الجوانب المرتبطة بالمسؤولية، كان ذلك من واجبات المسؤول الأول، لا من واجباتهم؛ وإن لهم كل العذر في ترك ما لم يبيّن لهم، على أساس القاعدة العقلية المعروفة «قبح العقاب بلا بيان».

إننا لا نمانع من محاولة العاملين التعرّف على ما التبس عليهم من جوانب المسؤولية، مما يحتمل أكثر من وجه أو تختلف النظرة إليه، لطارئ يلقي ظلاً من الغموض على الموضوع، وإثارتهم لعلامات الاستفهام حول ذلك كله، كي تصبح الواجبات الملقاة على عاتقهم واضحة الحدود، بينة المعالم في بدايات الطريق أو في نهاياته. إننا لا نمانع من ذلك، بل نجده مرتبطاً بشعور الإخلاص للعمل وللمسؤولية بشكل عام، لئلا يضيع العاملون في ضباب الإحتمالات المتعددة والوجوه المتضاربة. ولكن هذا ينحصر في ما اشتبه علينا أمره أو اختلف علينا وجهه، حتى وقفنا فيه موقف الحيرة، أو ما يشبه الحيرة، مما يجعلنا معرضين للخطورة من ناحية تشريعية.

ولعل ما ألمحنا إليه، هو ما تشير إليه القصة المعروفة عن النبي محمد (ص) التي أشرنا إليها آنفاً، ونذكرها ـ هنا ـ بتفاصيلها.

روي أن رسول الله (ص) خطب في أصحابه فقال: «إِنَّ الله كَتَبَ عَلَيكُمُ الحَجَ ـ فَقَامَ عُكَاشَةُ بن محصن ـ ويُرْوى سراَقَةُ بِنْ مَالِكْ ـ فَقَالَ: في كُلِّ عَامٍ يا رَسُول الله؟! فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حتَى أَعَادَ مَرَّتَينْ أَوْ ثَلاثاً، فَقَالَ: وَيْحَكَ وَمَا يُؤْمِنْكَ أَنْ أَقُولَ نَعَمْ وَالله، لُو قُلتُ نَعَمْ لَوَجَبَت. وَلَوْ وَجَبَت ما اسْتَطَعْتمْ. وَلَوْ تَركَتُمْ لَكَفْرتُم فَاترَكُونِي ما تركتكم، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِكثْرةِ سُؤَالِهِمْ واخْتِلافِهِم عِلى أَنْبِيائهم. فَإذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا

اسْتَطَعْتُمْ؛ وَإِذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فَاجْتَنِبُوه»(١).

فقد يكون في هذا الحديث إشارة من النبي محمد (ص) إلى ما كان من بني إسرائيل، في موضوع ذبح البقرة، وإشارة إلى المسلمين أن يتقبلوا الأوامر والنواهي المطلقة من دون اعتراض أو فضول، لئلا تضيق عليهم الأمور من غير ضرورة.

وقد واجهه قومه بأساليب أخرى، كانت مثالاً لعتوهم واستكبارهم وجهلهم وطفولتهم الفكرية، كما جاء في الآية الكريمة التي وقف ـ فيها ـ موسى معهم، يحاورهم ويحاورونه:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠).

ما معنى هذا الطلب من هؤلاء، الذين جاهد موسى من أجل أن يحررهم من فرعون، على أساس رسالة الله وكلمة التوحيد، ليكونوا القاعدة القويّة لحركة الرسالة الممتدة نحو تحرير المجتمع كله. فنحن نعلم أن جهاد موسى لم يندفع من موقع عائلي أو قومي، بل ارتكز من الموقع الرسالي الذي يجد في المستضعفين قوّةً صالحة للتحرك وتحمل في داخلهاإستعداداً للمشاركة في الثورة وبناء المستقبل الجديد، ويجد ـ إلى جانب ذلك ـ في بني إسرائيل ـ آنذاك ـ جماعة قريبة الصلة بالإيمان، وبما يمثله من قيم، لأنهم يشكّلون الطرف المضطهد المعارض للعقلية الفرعونية وما تمثله من انحراف.

ومن هنا نعرف مأساة موسى مع قومه، ومدى ما كان يحسه من خيبة الأمل، بعد الصراع العنيف الذي خاضه ضد فرعون، والمواقف القاسية التي واجهها، من ملاحقة

---

(١) البحار جزء ٢٢ ص ٣١ باب ٣٧.

القوم الكافرين له، وخوضه البحر ببني إسرائيل في معجزة إلهية عظيمة، فأيّ طلب هذا الطلب؟ فأين الرسالة، وأين التوحيد؟ وماذا عن إله موسى الذي كانت الدعوة إلى توحيده سبباً في كل ما حدث؟ ألم تكن تلك المعاجز والخوارق التي شاهدوها كافية في تركيز هذا الإيمان، كما آمن السحرة في موقف التضحية الرائعة من أجل إعلاء كلمة الله، والانسجام مع رسالته؟

ليس هناك تفسير لهذا الطلب إلا الطفولة الفكرية، التي تجعلهم يفكرون بعقلية أطفال يطلبون من آبائهم أن يشتروا لهم لعبة مثل لعبة أقرانهم. فربما لم يشاهد قوم موسى من قبل الأصنام الحجرية في بلادهم ، حتى إذا ما شاهدوها شوقتهم لأن يكون لديهم إله يلمسونه ويرونه في لعبة عبادية حالمة.

ولم يفقد موسى هدوء الرسول، فقد كانت الرسالة هي التي تحدد له مشاعره، لا مزاجه الشخصي؛ فكان جوابه مزيجاً من عنف الحكم على عَبَدة الأصنام بالهلاك والضلال وبطلان العقيدة والعبادة، ومن العقاب المرير لقومه، والتذكير بفضل الله عليهم، الذي أخرجهم من ظلمة الإضطهاد والعبودية إلى نورالطمأنينة والحرية؛ والإعلان لهم بأن قضية الإله ليست موضوعاً يمارس فيه الإنسان دوره في الاختيار والتغيير والتبديل، بل هو الحقيقة التي تهز أعماق الإنسان وتنير حياته، لتفرض نفسها في وعيه ووعي الكون كله.

طفولة فكرية

ولعلنا نجد في بعض المجتمعات الإسلامية ما يشابه هذه الطفولة الفكرية، ولكن في مجال آخر. فقد يكتشف بعض الناس، من الحاكمين أو المحكومين، «تقليعةً» جديدة من «تقاليع» الكفر والضلال، أو شكلاً معيناً من أشكال الحياة، أو تفكيراً خاصاً من أنماط التفكير المطروحة في الساحة الفكرية من تيارات الشرق والغرب؛ فيواجهه ـ كما يواجه الإنسان الأشياء الجديدة في حياته ـ بالإعجاب والدهشة والتمني الطفولي باقتناء مثله أو احتذائه، لا لشيء إلاّ للشعور بالغيرة، أو حبّ التقليد والمحاكاة ومشاركة الآخرين

أوضاعهم وأفعالهم. مما يسبب وقوعهم في كثير من الأخطاء والإنحرافات والإرتباكات في حياتهم العامة والخاصة، عندما تتحول إلى قطع منفصلة، ترتبط كل قطعة منها بفكرة تختلف في جذورها ومعطياتها وأشكالها عن فكرة أخرى، فيتحول الإنسان إلى مسخٍ مشوّه، وتضييع الشخصية، لتتوزع بين عدة شخصيات متنوعة في الشكل والجوهر، كما نشاهد في واقع المجتمعات الإسلامية التي تفكر على أساس إسلامي في بعض جوانب الحياة، وتفكر على قاعدة غير إسلامية في جانب آخر، فتختلف ممارساتها العملية في السلوك الإجتماعي، عن ممارساتها في السلوك الإقتصادي، أو السياسي أو غير ذلك.. إنها العقلية المماثلة لعقلية بني إسرائيل، التي تجعلهم يتوجهون إلى قادتهم بأسلوب التمني أو الضغط، كي يجعلوا لهم خطاً يشابه خط الآخرين، وسلوكاً يماشي طريقتهم في السلوك. كما رأينا ـ في الآيات المتقدمة ـ كيف يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة. ولكن المنطق الرسالي الذي يفرض خطأ ذلك التفكير، هو الذي يفرض خطأ تفكيرنا الجديد، لأن القضية واحدة في جذورها، وإن اختلفت في شكلها، فإن الحقيقة واحدة لا تخضع للرغبات والنوازع الذاتية، بل تخضع للظروف الواقعية الموضوعية التي شاركت في وجودها، فهي التي تقرر أمر بقائها أو زوالها.

ونرى موسى مع قومه في مشهد آخر يؤكد هذه الطفولة، وذلك بإعلانهم رفض الإيمان حتى يروا الله جهرة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥ ـ ٥٦).

وقد يظهر لنا من الآيات الأخرى ومن غيرها، أن هذا الأمر كان موضع حوار بين موسى وبينهم، دون أن يحقق فيه أي نتيجة حاسمة ترجعهم عن غيهم وضلالهم. فلم يكن منه إلا أن رفع أمره إلى الله، في محاولة للإنسجام مع ما سألوه من رؤيتهم لله. وقد تكون هذه المناجاة على مسمع منهم، أو من بعض ممثليهم الذين اختارهم موسى ليكونوا معه في موعده مع الله، فقد بدا موسى ـ النبي في موقف السائل الذي يطلب ما

طلبوه من رؤية الله في سؤال يوحي بالسذاجة، مما يدل على أن سؤاله لم يكن عفوياً، إنما ينطلق من قناعته بجدّية السؤال؛ هكذا كانت خطته مدروسة لوضعهم وجهاً لوجه امام التجربة التي تصعقهم، وتثبت لهم إستحالة رؤية الله بإستحالة الثبات أمام نوره؛ او ايّ شيء من مظاهر عظمته التي عبّر عنها القرآن بالتجلّي الذي لا يمكن أن يكون معناه ظهور الله بشخصه، لإستحالته ذاتياً، بإستحالة الجسميّة له، كما نلاحظ ذلك في الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

ويؤكد هذا الرأي ـ الذي ينسبه صاحب مجمع البيان إلى الجمهور، ثم يتبناه ـ أن موسى (ع) قال لما أخذتهم الرجفة: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فأضاف الموضوع إلى السفهاء مما يوحي بأن سؤال الرؤية لم يكن له، بل لقومه كجزءٍ من عملية استكمال الحوار معهم عن طريق آخر، بعد أن عجز عن إقناعهم بالفكرة بشكل مباشر. وهذا ما نستقربه، على أساس ظواهر الآيات من جهة، وبعض الأحاديث من جهة، خلافاً لكثير من المفسرين الذين لم يواجهوا الظواهر القرآنية بالفهم السليم، فلم يوفقوا بين ما انتهوا إليه من تفسير وبين ما تفيده تلك الظواهر.

وعلى كلٍّ، فلسنا في مجال تحقيق الفكرة بشكلٍ مفصل، بل نحن ـ هنا ـ للإشارة إلى الأسلوب الذي اتبعه موسى في حواره معهم، عندما واجهوه بهذا العرض الطفولي، الذي لا معنى له من ناحية فكرية دينية، بالنسبة لمن يفهم طبيعة الوحدانية ومستلزماتها من خلال البرهان والوجدان. مما يجعل من قضية مواجهة الحوار بالحوار أسلوباً فاشلاً، لذا استعمل النبي الأسلوب العملي الذي واجه فيه العرض بالحقيقة الصاعقة، التي لا تدع مجالاً لقول ولا تترك موضعاً لتمرّد.

ولهذا نجد موسى يبتهل ـ في أسلوب إيحائي ـ معلناً التوبة لله عن هذا الطلب،

باعتباره ذنباً يدعو القائمين به إلى التوبة وإلى الإيمان من جديد، ليدعو هؤلاء إلى إتخاذ الموقف نفسه، باعتبارهم أصحاب الطلب الذي طرحوه كشرط للإيمان.

ويحدِّثنا القرآن الكريم في آيات أخرى عن انحراف خطيرآخر، في سلوك قوم موسى، خلال غياب عنهم لميقات ربّه، فقد عبدوا العجل وتمردوا على أوامر أخيه هارون الذي خلفه عليهم؛ وهو انحراف واجهة موسى عند عودته لرؤيتهم فلم يستطيعوا تبريره بطريقة معقولة، عندما حاورهم:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٩٠). ص٢٩٠

فقد رأينا أنهم لم يستطيعوا الدفاع عن موقفهم، تماماً كالطفل الذي يلعب بالنار فيحرق يديه، ثم يكتشف خطأه بعد فوات الأوان.

وقد نفهم من موقف موسى من أخيه وجوابه له، أن القوم لا ينظرون إلى هارون نظرتهم إلى موسى، وهو يملك نفس قوة موسى التأثيرية عليهم. لذا لم يستطع التأثير عليهم، عندما حاول أن يصرفهم عما كانوا فيه.

ونواجه ـ في نهاية المطاف ـ كيفية إدارة الحوار المرير معهم، عندما كان يدعوهم إلى جهاد الطغاة ودخول الأرض المقدّسة التي كانت تحت سيطرتهم، فيتقاعسون ويرفضون اتِّباعه بغلظة وفظاظة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ

﴿الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٠ ـ ٢٥).

موسى يرفع الأمر إلى الله

إنهم - هنا - يرفضون الجهاد والقتال، ويستسلمون إلى حب السلامة، تاركين موسى وحده في الميدان، ليكون القائد الذي يتفرق عنه جنوده في قلب المعركة، مما يدل على أنهم لم يبلغوا مستوى الايمان الذي كان يحلم به، بعد الجهد الذي بذله في إنقاذهم من سيطرة فرعون وظلمه.

وما كان من موسى إلا أن رفع الأمر إلى الله كمن يقدم إليه تقريراً أخيراً، يعرض فيه نفاد تجاربه معهم دون نتيجة وفائدة.

وتلك هي قصة الأنبياء، الذين يعملون بكل ما لديهم من جهد وطاقة مع خصوم الدعوة من جهة، ومع أتباعهم من جهة أخرى دون كلل أو ملل أو يأس، حتى إذا ما شعروا أن مهمتهم قاربت الإنتهاء، رجعوا إلى الله ليشهدوه على ذلك، راجين منه، في دعاء خاشع، أن يفرق بينهم وبين القوم الفاسقين.

وذلك هو الدرس الذي يستفيده العاملون في سبيل الله عملياً، عندماتواجههم حالات التمرد واليأس، وهو أن يستريحوا إلى تجاربهم التي قاموا بها، ولا يندموا عليها، وأن يرضوا على جهودهم الشاقة، من موقع الواجب والمسؤولية، ويرتاحوا لذلك كله، لأنهم كانوا ينفذون إرادة الله ويبلغون رسالته.. ولم يبق لهم إلا أن يقفوا بين يديه ليعرضوا

مشاكلهم ومتاعبهم في إبتهال وإخلاص ـ وهو العالم بذلك كله ـ لتنتهي مهمتهم أو لتتجدد لهم مهمة أخرى، في موقع آخر، للدعوة والعمل والجهاد.

حواره مع العبد الصالح

ونقف ـ في نهاية المطاف ـ من قصة موسى (ع)، في القضايا التي واجهته أمام حواره مع العبد الصالح، في قصة رائدة، أراد الله لموسى فيها أن ينفتح على توجيه جديد، يحتاجه العاملون من أصحاب الرسالات في ما يواجهونه من مفاجآت وأحداث.

وخلاصته: أن وراء الأشياء الظاهرة التي يلتقي بها في حياته، أموراً غيبيّة خفيّة، قد تبدِّل الصورة وتغيِّر النظرة، وتجعل الإنسان يخرج بنتيجة مختلفة كل الإختلاف عما كوّنه من آراء واستنتاجات.

وقد أراد الله لموسى (ع) أن يواجه هذا الموضوع، وينفتح عليه من خلال تجربة حيّة، مع أحد عباد الله الصالحين المغمورين الذين آتاهم الله رشداً من لدنه، وعلمهم علماً مما عنده. ولعل قيمة هذه التجربة أنها تتصل بقضايا تدخل في نطاق إختصاص موسى ـ النبي ـ أو الذي أعده الله ليكون نبياً، وهي القضايا المتصلة ببعض الجوانب التشريعية التي قد يكون حكمها على الظواهر العادية شيئاً، مختلفاً عنه في حالة الإطلاع على الجوانب الخفية من الموضوع، سواء في ذلك، الحكم العام الذي لا يختص بظرف دون ظرف، أو بحالة دون أخرى، أو الحكم الخاص الذي يخضع لحالة خاصة بسبب بعض المصالح .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف: ٦٠ ـ ٨٢).

لا نريد أن نفيض في هذه القصة، كما أفاض المؤلفون في قصص الأنبياء، لنثير قصة اسم الشخص الذي صاحبه موسى ليتعلم منه، هل هو الخضر أم هو غيره، أو المنطقة التي اتخذ الحوت سبيله فيها في البحر، بعد أن كان مشوياً ـ كما قيل ـ فذلك مما لا علاقة له بحديثنا عن قضايا الحوار في القرآن الكريم.

ـ أمّاما يلفت نظرنا في هذه القصة، فعدة نقاط:

١ ـ الأدب الرسالي

ويكمن في الأسلوب الوديع الذي يعبِّر عن روح التواضع للعلم والعلماء، دون نظر إلى طبيعة المركز الإجتماعي أو الديني الذي يقف فيه العالِم والمتعلم. فنحن نجد الأدب الرسالي في هذه الكلمات الهادئة المتعطشة للعلم، التي خاطب بها موسى هذا العبد الصالح «هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْدا».

٢ ـ الروح العملية

ما يلفتنا في القصة هو الأسلوب الواقعي الذي يعبِّر عن الروح العملية التي يعيشها العالم تجاه المتعلمين، بعيداً عن أيّة مجاملة تفرضها الأوضاع الإجتماعية، أو أيّ أسلوب من أساليب اللف والدوران التي تحاول خداع الآخرين، لتجعل منهم أرقاماً تضاف إلى أرقام الأتباع الذين يشاركون في تضخيم شخصية الأستاذ، النظر دون النطر إلى استفادتهم منه أو قابليتهم للتعلم والإنتفاع بعلمه.

فقد كان هذا العبد الصالح يختلف عن الآخرين في طبيعة معرفته للواقع؛ فهم يلتقون بالجانب الظاهر منه، في حين أنه يعتبر نفسه مطلعاً على الجوانب التي تختفي وراء الصور المألوفة للأشياء؛ لذا فالآخرون يرفضون أو لا يتحملون طريقته في العمل وأسلوبه في معالجة الأمور، ولا يتقبلون بالتالي طريقته في نهاية المطاف. وبذلك تفقد الصحبة فائدتها، وتتحول إلى مزيد من المجادلات والمخاصمات التي لن تكون في مصلحة أحد، ولا في مصلحة الحقيقة على أيّ حال.

وعلى ضوء هذا. أوضح له طبيعة سلوكه الذي يتعارض مع المألوف، وأعلن له ـ مقدّماً ـ أنه، أي موسى، لا يستطيع معه صبراً، لأن الإنسان لا يملك الصبر على ما لم يحط بمعرفته. فلم يكن من موسى إلا أن وعده بالصبر والطاعة المطلقة... وكانت تعليمات العبد الصالح إلى موسى أن لا يسأله عن كل شيء يشاهده، ويثير استغرابه، ويرسم علامات الإستفهام في ذهنه، مهما بدا مثيراً أو غيباً، وينتظر حتى يبدأه ـ هو ـ بالحديث عنه وعن كل شيء شاهده ورآه.

وبهذا كانت العلاقة المتبادلة بينهما علاقة صحبة، ترتكز على السعي إلى المعرفة في إطار من الإنضباط والواقعية.

٣ ـ الانضباط في خط المسؤولية

إن الأمور التي قام بها هذا العبد الصالح، كانت تتحدى صبر موسى بخروجها عن الخط الشرعي، كما في قضية قتل الغلام وخرق السفينة، لما في الأول من إعتداء على الحياة بدون ذنب، ولما في الثاني من اعتداء على الأموال وتعريض الآخرين للخطر دون حق، وبما أظهرته من إهمال لمبدأ استغلال الطاقة التي يملكها الإنسان، في حماية نفسه من الجوع، لاسيما مع مَنْ لا يعيشون القيم في حياتهم العامّة. ولهذا كانت احتجاجات موسى تتلاحق وتشتد في كل حالة من هذه الحالات، حتى كانت الحالة الأخيرة التي سبقها التعهد الأخير بالصبر من قِبَل موسى، وإعطاء صاحبه الحرية في أن يفارقه، إذا استمر في إثارة السؤال وفي نفاد الصبر.

وهكذا كان، ولم يستطع موسى الصبر في الحالة الأخيرة، وبدأ العبد الصالح ـ بعد أن نفّذ تهديده بالفراق ـ يشرح لموسى كل شيء ويوضح له طبيعة الأعمال التي أثارت إستنكاره، وكيف كانت مرتبطة بأمر الله لا برأيه الشخصي. وليس من شأن هذا البحث الدخول في تقييم هذه الأعمال، من حيث إنسجامها مع الخطوط المألوفة للشريعة، أو اختلافها عنها، وخضوعها لحالة إستثنائية اقتضتها طبيعة تلك الحالات الخاصة. فإن لذلك بحثاً آخر لا مجال له الآن.

بل كل ما نريده، الاستفادة من جو الحوار الذي عشناه في تقرير فكرتين أساسيتين، تدخلان في نطاق عمل الداعية إلى الله والعامل في سبيل رسالته.

١ ـ إن على الداعية أن يعيش الإنضباط والصبر والصمت في الحياة العملية في ممارسته المسؤولية، إذا كانت الجهة التي يتبعها أو يتعاون معها في مستوى الثقة

الفكرية والدينية والعملية التي تبرر له أمر الإعتماد عليها والسير معها، فلا يسارع إلى الإعتراض في ما يوجه إليه من أوامر، وفي ما يشاهده من أعمال تخالف ما هو مألوف لديه، لأن ذلك قد يوجب الإرتباك في العمل، والخلل في انضباط الصفوف، بل يؤخر ذلك إلى الظرف المناسب والمكان المناسب، حيث يكون من الممكن ـ من وجهة عملية ـ القيام بما يريده من إثارة السؤال والجواب.

٢ ـ إنّ على المؤمنين أن يتقبلوا بالصبر والتسليم ما يُلقى إليهم من أحكام الله، مما لا يتفق مع ما يألفونه من الأفكار، لأن الله سبحانه أعلم بجهات الصلاح والفساد. فإذا حدثت لديهم شبهة في أيّ أمر من ذلك، فليتّهموا أفكارهم ـ في البداية ـ وليحاولوا البحث ـ بعد ذلك ـ عن طبيعة الحكم وحيثيته، ليصلوا إليه في نهاية المطاف.

لوط وقومه

الغريزة المنحرفة

وهذا نبي من الأنبياء الذين أرسلهم الله، فجعل نبوّتهم محدودة بمجتمعٍ محدود، لتحقيق غاية معيّنة. فقد كان الهدف الأساسي لرسالة لوط، معالجة الشذوذ الجنسي المذكر (اللواط) الذي كان ينتشر في ذلك المجتمع، ويسيء إلى الحياة الطبيعية التي أرادها الله للإنسان في طعامه وشرابه ولذاته الجسديّة الأخرى، بما في ذلك (لذة الجنس)؛ لأن اللذة لا تخضع للمزاج الذاتي الذي يعيشه الإنسان، بل تنفتح على حاجة الغريزة للإشباع، إلى جانب حاجة النوع للبقاء والتناسل. فإذا امتدت الغريزة امتداداً منحرفاً أو اتجهت في الاتجاه الشاذ، ـ كونها ناتجة عن عقدة نفسية ـ حوّلت الغريزة عن أغراضها كحاجة طبيعية إلى ممارسة اللذة لأجل اللذة، حيث يصبح التفكير الإنساني، محصوراً في إطار إبداع اللذة بألوان متنوعة شاذة، مما يجعل الإنسان عبداً لشهواته وغرائزه، التي يحركها الخيال المنحرف الذي يطوف في مجاهل اللذات، ليقف في الطريق المسدود من أية جهة كانت.

وهذا ما جعل الأديان ـ بصورة عامة ـ تتجه إلى تحريم الشذوذ الجنسي بجميع أنواعه، المذكر والمؤنث، انسجاماً مع الخط الذي تريد للإنسان أن يسير عليه في تنظيم غرائزه، باعتبارها حاجة طبيعية تتحرك ـ عفوياً ـ في الإطار الطبيعي في خطة تنظيمية موجّهة.

وربما نجد هذا الاهتمام واضحاً، في معالجة القرآن الكريم لقصة لوط، التي كررها في أحد عشر سورة منه، مؤكداً فيها على فظاعة هذا العمل وبشاعته، باعتباره انحرافاً في إشباع الغريزة وتجاوزاً بها عن الحدّ الطبيعي الذي يريد الله أن تقف عنده، وفاحشة مبتدعة، وعملاً خبيثاً و«منكراً».

نلتقي ـ في ذروة ذلك كله ـ، بإرسال الله لوطاً إلى هؤلاء القوم الذين ابتدعوا هذا العمل، بدليل قوله لهم﴿ . . . مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠). فإن الله لا يرسل رسولاً خاصاً، لمعالجة قضية خاصة، ما لم تكن تلك القضية في أعلى درجات الأهمية في الحياة الأخلاقية والاجتماعية العامة.

وقد نشعر ـ ونحن نتابع هذه القصة القرآنية بكل ما يتخللها من حوارٍ مرير ـ أن لوطاً، قد استنفد جهده في سبيل ردعهم بالتذكير والترغيب والترهيب، دون أن يحصل على نتيجة، لتحوّل العادة عندهم إلى إدمان مرضي لا يطيقون الابتعاد عنه.

ولم يقتصر الأمر عند قوم لوط على رفض التجاوب مع دعوته، بل كانوا يهاجمهونه في عقر داره ليعتدوا على ضيوفه ـ إذا ما كان لديه ضيوف ـ ولم يكن في المقابل يملك أيّ قدر من القوة يقاومهم بها، لا كفرد ولا كجزء من عائلة أو جماعة يستند إليها. وكانوا يشعرون بعجزه عن ردّهم.

الأسلوب النبوي

ولم يكن أسلوبه يختلف عن أسلوب الأنبياء، في هدوء الكلمة وقوّتها. فقد كان يلين معهم ـ في مجال الدعوة ـ حتى ليعرض عليهم بناته ليزوجهم منهن، باعتبارهن أطهر

لهم، فيرفضون ذلك، بكل صلف وكبرياء، لأنهم لا يتجاوبون نفسياً مع الوضع الطبيعي للعلاقات الزوجية، مما جعلهم يتركون زوجاتهم لذلك، كما يظهر في حوار لوط معهم.

ولكنه يشتد ويعنف ويوبّخ عندما يتحدث عن هذا العمل كما رأينا في ما عرضناه من صفات تحدَّث عنها القرآن، مما كان يذكره لوط لقومه. ثم يعلن لهم ـ في نهاية المطاف ـ أنه، لعملهم من القالين (المبغضين)، على غرار أسلوب الأنبياء في إنهاء الحوار بإعلان الرفض المطلق، لئلا يبقى لأحد شك أو ريب في موقف النبوات من التمرّد والانحراف، ولئلا يشعر الآخرون بأيِّ ضعف في موقف النبي أو في حجته عند إنهاء الحوار. بل هي القوة التي تفصح عن نفسها ـ في البداية ـ في هدوء الرسالة، كما تفصح عن ذلك ـ في النهاية ـ في هدوء الموقف الرافض.

وهذا ما نستوحيه من النماذج العديدة للحوار الدائر بينه وبين قومه في أكثر من موقف.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٩). ص٢٩٩

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٠).

إنه أسلوب النبوّات الواحد الذي تلتقي فيه النبوّات العامة بالنبوّات المحدودة، حيث يقف النبي ليقدِّم نفسه، بأنه رسول من الله، أمين على الرسالة وعلى مصالح الناس، لا

يطلب منهم أيّ أجر، فإن أجره على الله، بل يطلب منهم إطاعته في تقوى الله والسير إلى ما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم. ثم يطرح الفكرة والتشريع، ويتحدث معهم عن واقعهم المنحرف، وضرورة تغييره بالسير في الخط المستقيم. وهذا ما قام به لوط في حديثه مع قومه، ولم تفاجئه ردود الفعل الصادرة عنهم ضد دعوته وضده بالذات؛ فإنهم قد أدمنوا الفعل، حتى تحوّل إلى مرض محبّب إليهم، لا يريدون الشفاء منه ولا يقبلون من أحد الحديث عنه بنهي أو تعنيف. ولذا فلم تعد القضية ـ عندهم ـ قضية خطأ أو صواب، أو حسن أو قبح، بل هي قضية عادة متأصلة، لا يريدون تركها، مهما كلفهم ذلك من جهد. وهذا ما انعكس على أسلوبهم في مواجهة لوط الذي جاء ليثير في نفوسهم الشعور بالذنب، فقد واجهوه بالتهديد بإخراجه وأهله من قريتهم تارة، وبمطالبته بإنزال عذاب الله عليهم إن كان صادقاً أخرى.إنه أسلوب مَنْ يدمّرهم إحساسهم بالذنب من الداخل، فيحاولون أن يفجروه بأي شيء دون اعتبار لطبيعته، كأنهم يقولون: هذا هو عملنا لا نرجع عنه، فاذهب عنا وافعل ما تريد، ولا تزعجنا بكلامك. وذلك هو أسلوب خصوم الأنبياء في كل زمان ومكان، حيث لا مناقشة ولا جدال.. بل هو التهديد والوعيد واستنزال العذاب.

الفرج الإلهي

وقد نلاحظ، في بعض الآيات، الجو النفسي الخانق الذي كان يعيشه لوط عندما كان يطرق بابه الضيوف، فقد أصبح يضيق بهم ذرعاً، لشعوره بالموقف الحرج الذي سيواجهه إزاء تصرف قومه، ومحاولتهم الاعتداء عليهم. وهذا ما واجهه عندماجاءه الملائكة في صورة البشر؛ وكان قومه في انتظار هذه الفرصة، باعتبارهم فريسة سهلة. فجاؤوا يهرعون إليه، ودار بينه وبينهم حوار مرير، جرّب فيه كل العروض وكل التوسلات، فلم يُجْدِهِ ذلك شيئاً. وانتهى به الأمر إلى نوعٍ من الاستسلام الذي يعيشه كل من لا يملك من القوة المادية شيئاً، مما جعله يتنهد مطلقاً التمنيات التي لا يدري متى

تتحقق وكيف؟ وإن كان كبير الثقة بنصر الله حيث رفع نداءه إلى الله، يطلب منه النصر عليهم والنجاة له ولأهله من كيدهم وعدوانهم.

وكانت الاستجابة الإلهية لندائه مفاجأة غير منتظرة أذهلته. فقد كان هؤلاء الضيوف الذين سِيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وشعر بالموقف العصيب إزاءهم، هم الذين جاؤوا يحملون إليه القوّة التي تدمِّر طغيان قومه وزهوهم وكل انحرافهم، وتفني الكل دون استثناء حتى امرأته التي كانت تتعاون معهم، وتتعاطف وتنقل إليهم أخباره. وهكذا جاءهم العذاب الذي انتظروه، أو استهزؤوا به.

ولنقف مع هذه القضية، لنعيش الصورة القرآنية للموقف بكلّ ما يحمله من مشاعر ومفاجآت.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٧٧ ـ ٨٣).

دروس وعبر

ما الذي نستوحيه من هذه القصة ـ الحوار؟

هذا ما نحاول أن نوجزه في عدة نقاط.

١ ـ تحطيم ركائز الشذوذ

وذلك أن يشعر الداعية المسلم بقيمة النظرة الإسلامية إلى تنظيم العلاقات الجنسية على أساس طبيعي في حياة الإنسان، من خلال التأكيد القرآني على ذلك في هذه القصة، بتكرارها عدة مرات، كما أشرنا، وبالعذاب الشديد الذي أنزله على قوم لوط الذين ابتدعوا الانحراف والشذوذ.

وعلى ضوء ذلك، لا بد لنا من التخطيط لمعالجة هذا الجانب من التشريع الإسلامي في الإطار السليم الشامل، الذي يريد الإسلام أن يبعد الإنسان فيه عن أي انحراف وشذوذ في كل مجالاته، لأن ذلك هو السبيل الصحيح لاستقامة مسيرته الحياتية نحو الهدف الكبير من إقامة الحياة على قاعدة طبيعية مستقيمة.

وقد يُفرض علينا الاهتمام، في هذه المرحلة من العمل، بهذا التيار الجديد الذي اجتاح التفكير البشري حول القضية الجنسية ودورها في الحياة، حتى أصبحت الحرية الجنسية إحدى قضايا الحرية في العالم الحديث، فاعتبرت القيود المفروضة على ممارسة الجنس، المشروع وغير المشروع، اضطهاداً للإنسان وتقييداً لحريته. وبدأت الموجة تتسع وتتصاعد حتى أصبح من المألوف أن يتظاهر كثير من الشاذين جنسياً، مطالبين بإباحة الشذوذ الجنسي المذكر والمؤنث في التشريعات القانونية، لينسجم التشريع المدني مع مقتضيات الحاجات الإنسانية، باعتباره حلاً عملياً لمشاكل جماعات كبيرة من البشر، لا يزالون يعانون من اضطهاد القوانين التي تقيِّد حريتهم وتمنعهم من ممارسة رغباتهم الملحّة. واستطاعت هذه الحملات أن تؤتي ثمارها في بعض البلدان الأوروبية المحافظة على الأخلاق والتقاليد، بما يشبه المفاجأة، فقد أقر مجلس العموم البريطاني التشريع بإباحة الشذوذ الجنسي، تحت ضغط انتشاره في المجتمع البريطاني، لا سيما في الطبقات الاجتماعية العليا لدى ذوي المراكز الكبيرة في الدولة والمجتمع. وتطور الانحراف بشكل آخر، فبدأنا نسمع بطلبات زواج بين رجلين أو بين امرأتين. وقد تنقل لنا الأخبار، إحاطة مثل هذا الزواج بطقوس دينية من قبل بعض الكهّان.

إن علينا أن نواجه هذه الموجة الجديدة الخطيرة بالأسلوب الإسلامي الذي لا يُجابهُ النتائج ومظاهرها السلبية بالنقد المباشر، بل يبحث الأسباب والمبررات الفكرية والاجتماعية التي أفرزتها، في حركة نقدية للواقع الاجتماعي الذي عاشت فيه مثل هذه الحركات، واندفعت فيه تلك التيارات، لتعريته وتوضيح الركائز الأساسية الخاطئة التي استند عليها في تطوره المنحرف الشاذ، ومقارنته بالقواعد الإسلامية لبناء الإنسان ـ الفرد، والإنسان ـ المجتمع، الذي ينطلق به الإسلام في الاتجاه الطبيعي السليم، من دون حاجةٍ إلى السير في مواكب الشذوذ والانحراف.

٢ ـ تجديد المفاهيم

وذلك بأن نتعمق في استيحاء الصفات التي أطلقها القرآن على الشذوذ الجنسي، في حملة لوط عليه، مثل كلمة «الفاحشة» و«الخبائث»، و«الإسراف» و«المنكر»، ونتوسع في تحليل معناها ومدلولها في إطار الفهم الحديث لذلك كله، لتستطيع أن تثبت فاعليتها في حركة الدعوة في الحياة، لأن الألفاظ قد تموت بموت مداليلها التي كانت تأخذ شكلاً معيناً، وتلبس ثوباً معيّناً، عندما يتجاوز الزمان تلك الأشكال ويمزق تلك الثياب؛ ولكنها قد تبعث من جديد، إذا استطعنا أن نعطي المعاني حياة جديدة، ونلبس الألفاظ ثوباً جديداً. وقد ننجح في ذلك إذا عملنا على ربط هذه المعاني بالنتائج التي يفرزها الشذوذ، لنعرضها على الإنسان المعاصر صورة حيّة نابضة، تتضمن جميع المعاني التي أوحى بها القرآن الكريم إلى المسلمين الأوّلين.

ولنضرب مثلاً على ذلك بكلمة «المنكر» وكلمة «الخبيث»، فقد لانستطيع أن نستثير، بطرحهما في حركة الدعوة، أيّ نوع من أنواع الإثارة الرفض للفعل الشاذ، الذي حوّله الواقع المنحرف إلى «معروف» بعد أن كان «منكراً» وجعله «طيّباً» بعد أن كان «خبيثاً»، على أساس تحوّله تعبيراً عن ممارسة الإنسان لحريته. وفي هذه الحالة، قد نحتاج إلى الدخول في أعماق الكلمة، لنحرّك فيها المعنى الذي لا يجعل الإنكار والخبث صفتين طافيتين على السطح، بل يجعلهما حقيقتين ترتبطان بموقع الفعل من قضية مصلحة الإنسان، على المستوى الخاص والعام، وتؤثران على مصيره ومستقبله، تماماً كالشيء

الذي يحلو مذاقه وتخبث نتائجه. فإن الصفة الحلوة التي نستشعرها، في البداية، لا تلبث أن تترك مكانها للصفة المرّة في نهاية المطاف بعد التجربة.

وإذا استطعنا الوصول إلى هذه النتيجة، فسنكتشف أن قضية ممارسة الإنسان لحريته لا تخضع للمزاج الذي يلاحق الحرية في كل مجال حتى على حساب سلامته ومصيره، بل القضية تخضع لموقع الحرية من حركة الحياة. فقد يشعر بالحاجة إلى التنازل عن حريته في ممارسة رغباته الذاتية، لمصلحة حريته في المجالات المصيريّة، وبذلك تتحول حرية المزاج إلى شيء خبيث، ينكره مستقبله وترفضه حياته.

٣ ـ البعد عن التشنج

ونستفيده من أسلوب لوط عليه السلام وطريقته في المواجهة، فقد واجههم بالصفات الحقيقية لهذا العمل الشاذ، ومدى انعكاسها على ميزان القيمة لديهم. ثم أعلن نظرته إليهم وموقفه الأخير منهم. ورجع إلى ربهّ في نهاية المطاف، فلم يخضع لأيّة حركة تشنّجية، تدفعه إلى استخدام الكلمات المثيرة، سواءً ما يجرح منها الإحساس ويثير الشعور، أو ما يخرج عن الموضوع ويبعد عن القصد، لأن الهدف من ذلك كله أن يصل إلى قناعتهم بدعوته، وإيمانهم بكلامه، أو إقامة الحجة عليهم، وليس الهدف أن يفجر غيظه منهم أو يحقّرهم ويذلّهم، استجابة لحالةٍ نفسيةٍ عصبية معقّدةٍ، كما يفعل كثير من الدعاة الذين يدخلون مشاعرهم الذاتية في مواقفهم العملية، فتختلط خطوات الرسالة بنوازع الذات.

٤ ـ النصر الموعود

لذلك يجب أن يظل الأمل حيّاً في قلب الداعية بالنصر، لأن الله ينصر الدعاة إليه، بطريقة غير منتظرة، مهما امتد الظلم واستمر. كما جاء النصر من الله لنبيه «لوط» وهو يعاني أقسى حالات المواجهة، وأحرج مواقفه التي كادت تسلمه للشعور العميق بالضعف والانهيار.

شعيب في حواره مع قومه

التطفيف المرفوض

وهذا أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله لمعالجة انحراف آخر، لا يتصل بالجانب الجنسي، بل بالجانب الاقتصادي لحياة الناس، فقد كانوا يطففون في المكيال والميزان؛ كما حدد لنا القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ ـ ٣).

وننفتح في قصة شعيب وحواره مع قومه، على موقف أكثر قوّة من موقف لوط. فقد كانت لشعيب عشيرة قويّة يُحسب لها حساب، جعلت أسلوب خطابه لقومه قوياً لا يبتعد عن الجو الرسالي الوديع الذي يحاول أن يجرّهم إلى دعوته بالأسلوب اللين.

ونلاحظ ـ في هذا الحوار ـ أنه استطاع أن يجلب إلى دعوته الجماعات المضطهدة والمستضعفة من قومه، ليواجه الجماعات الغنية المستكبرة. وربما يكون هذا منطلقاً من طبيعة الدعوة التي دعا إليها والمفاهيم التي بشر بها، فإن التطفيف نوع من أنواع الاستغلال الاقتصادي الذي يتميز به الأغنياء المستكبرون، الذين يعيشون مشاعر

الأنانية وسلوكها، مما يدفعهم إلى ممارسة الاستغلال عند الشراء فيأخذون الزيادة لأنفسهم، وعند البيع، يستغلون حاجة الآخرين إليهم لينقصوا من حقهم، ما يشاؤون.

ونحاول - الآن - الدخول في أجواء هذا الحوار القصصي القرآني، لنتمثل حركة الرسالة في حياة هذا النبي المصلح، مع خصوم الرسالة والرسول:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣).

وننتقل من هذه الصورة الحية المتحركة، إلى صورة أخرى في سورة هود، قد تختلف عنها في بعض أساليب الحوار، من حيث توفّر بعض العناصر التفصيلية لما أثير من قضايا، وما طرح من تحديات.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود: ٨٧ ـ ٩٣).

وقفة تأمل

إننا نلاحظ في هذه القصة ـ الحوار عدة جوانب:

١ ـ الطريق المعوّج

أن القضايا التي طرحها شعيب تعطينا الفكرة الواضحة عن مميزاتهم السلوكية في تعاملهم مع الناس، أنهم يبخسون الناس أشياءهم، ويعيثون في الأرض فساداً بعد إصلاحها، ويمارسون الصدّ عن سبيل الله بمختلف الوسائل في كل طريق يقعدون فيه، فيهددون المؤمنين من أجل أن يحرفوهم عن الطريق المستقيم إلى الطريق المعوّج.

٢ ـ بين صراع العصبية والصراع الفكري

أن شعيب لم يرد الدخول معهم في صراع القوّة، بإثارة شعور العصبية العائلية لدى رهطه، ليقفوا معه في لعبة العصبيات التي تتحرك خارج الفكرة، وداخل النوازع الذاتية الضيّقة والأحقاد القديمة الخانقة، إنّما حاول أن يثير فيهم فكرة الانطلاق بالصراع في خطوات سلميّة، ليأخذ الفكر مجاله الطبيعي الهادىء بين المؤمنين به وبين

غير المؤمنين، إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، لأن للصراع الفكري فائدته العملية لدى جميع الأطراف، ويهيئ لهم كثيراً من الفرص الجديدة للالتقاء على أرض واحدة.

٣ ـ الحوار المقطوع

إن قومه لم يدخلوا معه في حوار جدي، حول ما أثاره من قضايا، بل اتبعوا سبيل السخرية به وبصلاته، التي تأمره بالوقوف ضد استمرارهم في الانحراف عن الخط القويم، واتباعهم لطريق الآباء، وممارستهم لحرية التصرف المطلق في أموالهم، ثم يعقبون ذلك بإنكارهم عليه الإصرار على ذلك. باعتباره إنساناً عاقلاً رشيداً لا يتصرف بخلاف المألوف، أو بما يثير له المشاكل. وتكررت محاولاتهم بتهديد المؤمنين، بين الرجوع إلى ملتهم وبين الإخراج من البلد.

بينما كان رد فعل شعيب رفض التهديد، وتحذيرهم من عذاب الله، وتذكيرهم بأمثالهم من الشعوب التي وقفت ضد رسالات الأنبياء وتمردت عليهم، فأصابها الله بعذابه من حيث لا تشعر، والتحدث معهم برسالية تضع الموقف في خدمة الرسالة التي لا يمكن لأتباعها أن يتراجعوا عنها مهما كانت الضغوط والتهديدات، لأنّ القضية ليست قضية مزاج شخصي أو حال طارئة، بل هي قضية الحق والباطل التي يرتبط بها موضوع المصير في الدنيا والآخرة. فإذا كان الإنسان عالماً بكونه يتخبط في الظلمات التي تؤدي به إلى الهلاك، واستطاع النجاة من تلك الظلمات، فكيف يعقل أن يعود إليها إذا كان يملك بعضاً من حس أو عقل، ولذا فإن الموضوع لا يقبل المساومة، من قريب أو من بعيد. إنه يرفض كل ما أثاروه من دون أن يتعقد أو ينهار، ويتحرك ـ في داخله ـ الروح الرسالية التي تطلب من الله في ضراعة وابتهال، أن يفتح بينه وبين قومه بالحق أنه خير الفاتحين.

٤ ـ الميزان السليم

إن تأكيد الكافرين من قومه على دور القوة العددية أو الاجتماعية لرهطه، في تبرير امتناعهم عن القيام برجمه، لأنه لا يمثل قوة ذاتية جسدية أو معنوية، ما يجعلنا نشعر

بأن قوة العشيرة كانت تمثل حمايةً لشعيب من أذى قومه. أمّا ردّ الفعل لديه، فهو أن يبيّن لهم خطأ ما ارتكزوا عليه، لأن رهطه - مهما بلغت قوتهم - لا يمثلون شيئاً أمام قوة الله، لأنها قوة محدودة بما يملكون من سلاحٍ ومال ورجال... أمّا قوة الله، فهي القوة التي لا تقف عند حد، ولا تنحصر في مجال معين؛ فمن العقل أن يخافوا منه لا من قومه. ثم يختم كلامه بالتخويف من عذاب الله القريب.

واستمرت محاولات الكافرين إثارة المؤمنين، باحتمالات الربح والخسارة، لأن الإيمان بشعيب يعرض أتباعه لخطر الخسارة المادية والمعنوية. ولكن القرآن الكريم يؤكد للمؤمنين - بعد نزول العذاب - أن الخسارة كانت من نصيب الكافرين الذين فقدوا الدنيا والآخرة، بينما يحقق المؤمنون الربح في الدارين مادياً ومعنوياً.

٥ - الحرية الملتزمة لا المنفلتة

إن رفض هؤلاء القوم للمبدأ التشريعي الذي يحرّم التطفيف، يرجع إلى اعتقاد خاطىء، وهو حرية التصرف المطلق في ما يملكه الإنسان من مال، فليس لأيّ تشريع أن يقترب من هذه الحرية بأي نوع من أنواع التضييق والتقييد. وهذا ما يعبِّر عنه احتجاجهم على ذلك بقولهم: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

وقد كان شعيب منسجماً مع القاعدة الإلهية التي لا تعترف بالحرية، إلا بالمقدار الذي يحقق للإنسان مصلحته العامة وللحياة توازنها الدقيق؛ ولذا كان التشريع يسعى إلى تحقيق هذا التوازن، عندما يقيّد أو يطلق أو يعطي الحرية - في ما يحلل أو في ما يحرّم - وقد كان التطفيف نوعاً من أنواع الاستغلال الخبيث والتعدي على حقوق الناس وسرقة أموالهم، مما يسبب إخلالاً بالتوازن الذي تريد الأديان إقامته في حياة الناس، لجهة تحقيق العدالة في التعامل التي تجعل المتعاملين متساويين، في الأخذ والعطاء، تبعاً للالتزام العقيدي الذي ينظم الحقوق والمسؤوليات. وعلى هذا الأساس جاء تحريمه، منعاً للفساد في الأرض.

وقد نخرج - من هذا كله - بنتيجةٍ حاسمة ضد كثير من الدعوات التي تبشر بمبدأ

الاقتصاد الحرّ الذي يسمح للإنسان بأي نوع من أنواع التعامل التجاري، ما كان مضراً بمصلحة الإنسان وما كان غير مضرّ، ويوفر للإنسان الضمانات القانونية في حماية عمليات الإفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي يمارسها تحت ستار التجارة الحرة، التي تحركه دوافع الربح والخسارة، بعيداً عن أيّ جوانب أخلاقية أو إنسانية.

وهذا ما يتمثل في التفكير الرأسمالي الحديث، الذي يشجع هذا كله ويحميه في إطار الحرية الاقتصادية التي تعتبر ـ في مفهومهم ـ إحدى الركائز الأساسية لقضية الحرية في الكون.

وقد أدى هذا التفكير إلى إفساح المجال لولادة الاستعمار الذي يستعبد الشعوب، ويستغل ثرواتهم الطبيعية، ويحوّلهم إلى وحدات استهلاكية لتصريف المنتجات الصناعية، بكل ما يستتبعه من حماية التخلف والجهل والخرافة، والوقوف بقسوة ضد نوازع التحرر والاستقلال السياسي والاقتصادي.

حتى كان من نتائجه الكبيرة ـ إلى جانب ذلك ـ العمل على إثارة الخلافات الدينية والاجتماعية والإقليمية وغيرها، وتحويلها إلى نزاع مسلح معقّد طويل، يستنزف طاقات الشعوب وثرواتها، من أجل تحريك مصانع الأسلحة التي لا تزدهر إلا في الحروب، مما يجعل من السياسيين في كل بلد عملاء طبيعيين لأصحاب تلك المصانع، من أجل دفع الفتنة أشواطاً إلى الأمام وإثارتها ـ من جديد ـ كلما قاربت الركود والهدوء.

إن هذه القصة ـ الحوار ـ تؤكد لنا رفض الحرية الاقتصادية، بمفهومها الرأسمالي، الذي لا يخضع للمفهوم الإنساني والأخلاقي، وتضع قضية الحرية المالية، ضمن نطاق مصلحة الإنسان وتوازن الحياة، لتسمح بما يدخل في ذلك وتمنع ما يخرج عنه، في كل زمان ومكان.

وربما نشعر بالحاجة إلى التأكيد على كثير من المؤمنين أو العاملين في سبيل الله، الذين يغفلون عن الخط الدقيق الفاصل بين الحرية الاقتصادية ـ كما تفهمها الرأسمالية

وبين الحرية الاقتصادية كما يفهمها الإسلام - من خلال تشريعه الملكية الفردية وحمايته لها، أن الرأسمالية تطرح شعار قوم شعيب الذي عبَّر عنه القرآن الكريم في احتجاجهم على منعهم في أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، لأنهم يرون الحق لهم في ذلك كله، بينما يطرح الإسلام شعار شعيب «إن أريد الاصلاح ما استطعت، ولا تعثوا في الأرض مفسدين» فهو يؤمن بالملكية الفردية بشرط أن لا يستغلها أصحابها في إفساد البلاد والعباد، سواء في ذلك مصادرها ومواردها. فإذا تحولت إلى عنصر إفساد، وقف الإسلام ليقيّدها بكل قوّة وعنف، لتجري الحياة على أساسٍ من الحرية الملتزمة، لا الحرية المنفلتة.

٦ - أهمية كبرى للاقتصاد

إننا نستوحي من الاهتمام الإسلامي بقصة شعيب وقومه، التي كررها أكثر من مرّة، أن للجانب الاقتصادي أهمية كبيرة في الحركة النبوية في كل وقت، بحيث يحتل مركز الأولوية في التشريع لعلاقته بقضية التوازن في الحياة.

وعلى ضوء ذلك، نرى أن على الداعية الإسلامي إعطاء هذا الموضوع، قدراً عالياً من اهتمامه في مجال الدعوة والعمل، بالتركيز - أولاً - على الجوانب التشريعية في الإسلام، لإعطاء النظرة الصحيحة للحلول الإسلامية في مواجهة المشاكل الاقتصادية؛ وثانياً بالوقوف - بشدة - ضد الممارسات المنحرفة اقتصادياً مهما كان نوعها، سواء منها التطفيف أو غيره، لأن القرآن لم يشجب التطفيف لذاته، بل شجبه لنتائجه السيئة في حياة الناس، باعتباره إفساداً للضمير وللحياة، واستغلالاً للأزمة التي تضغط على الضعفاء إزاء حاجتهم للأقوياء. فيمكننا - على ذلك الأساس - مواجهة قضايا الاحتكار والاستغلال غير المشروع، والتجارة المحرّمة التي تسيء إلى الصحة والأخلاق وإلى قضايا الحرية والكرامة، والغش والسرقة والرشوة والنظام الربوي، والمعاملات التي تعمل على إفساد الواقع السياسي والاجتماعي... فتتحول تلك المواجهة إلى محاربة المحتكرين والمستغلين والمرابين والغشاشين واللصوص، وتجار السياسة والدين،

ومثيري الفتن والحروب، كطريقٍ من طرق الإثراء غير المشروع على حساب حياة الناس واستقرارهم.

وهذا الموقف هو الذي يؤكد للناس الخطة الإسلامية الشاملة لتنظيم الحياة ـ بجميع جوانبها ـ على أساس قوي ثابت، ويقطع الطريق على كل أعداء الإسلام الذين يعملون على تشويهه وتصويره بالصورة القاتمة التي تحصره في نطاق ضيق في التشريع العبادي والأخلاقي المثالي، الذي لا يقترب إلى حياة الناس وآلامهم إلا بطريقة تخديرية مثالية. ويثيرون الحرب الإعلامية ضد العاملين للإسلام، باعتبارهم حلفاء طبيعيين للأنظمة الاحتكارية والاستغلالية، وللقائمين عليها من المحتكرين والمستغلين والمرابين، لأنهم لا يثيرون الضجة على الفساد الاقتصادي وأصحابه، بل يكتفون بإثارة الحملات على الفساد العقائدي والأخلاقي الذي قد يتصل كثيراً بالفساد الاقتصادي.

إننا نثير هذه القضايا، لنواجهها من خلال خطة مدروسة، مرتبطة بالخطة العملية الشاملة لحركة الدعوة وأسلوبها في عرض الإسلام أمام الناس، لأن ذلك هو واقع الأسلوب الإسلامي الذي أوضحه القرآن في تشريعه وفي مفاهيمه وفي حركته العملية، التي تعتبر امتداداً لحركة النبوات والرسالات الإلهية في الكون.

.. وبهذا نبتعد عن الذهنية المحدودة التي تخضع، في تخطيطها وحركتها، لردود فعل الآخرين، لا لقناعتها بضرورة التفكير الواسع العميق الذي يستبق المشاكل وردود الفعل قبل حدوثها، لأن عظمة الحركة تكمن في مقدار ما تمهد الطريق للحياة التي تتقدم فيها الإيجابيات على السلبيات، وتحقق الأرباح دون خسائر؛ لتكون ردود الفعل ـ لو حدثت ـ واقعة خارج نطاق الخطأ، كاحتجاج من الآخرين على عدم حدوث الخطأ.

وتلك هي قيمة القرآن في قضايا التشريع، وقصص التاريخ. إنه يثير أمام الإنسان قضايا كثيرة، ليفكر فيها تفكيراً هادئاً سليماً، يوحي بالثقة ويعين على السير في الاتجاه السليم.

٧ ـ الكلمة الفصل

إن القرآن يختم قصة شعيب بالمشهد الأخير، وهو يقف على بقايا قومه الذين احترقوا بالعذاب، ليخاطبهم بأنه قد أبلغهم رسالات الله وأدى واجبه تجاههم، فكفروا وتمردوا، فكيف يأسف بعد ذلك على القوم الكافرين بالله المعاندين له. إنهم لا يستحقون الأسف والحزن عليهم، لأنهم كانوا ضد إرادة الحياة، التي هي من إرادة الله.

قصة يوسف

مواقف صعبة

ونلتقي ـ في القرآن الكريم ـ بقصة يوسف الحافلة بالمواقف الصعبة التي مرّ بها في بدايات حياته، ابتداءً بالمؤامرة التي دبّرها أخوته حسداً وبغياً لقتله إلى الأسر الذي عرّضه للرقّ أو ما يشبهه، إلى تعرضه لموقف الإغراء الذي اختلط بالتهديد، وأدخله السجن مدّةً طويلة، انتهت باستلامه مركز القوّة الكبيرة في إدارة شؤون البلاد مما جعله يحتوي مشاعر أخوته ضده، فيحولها إلى مشاعر أخوية طبيعية، ثم يجمع إليه أهله.

ولسنا ـ هنا ـ في معرض التركيز على حركة القصة، وهي تتنوّع في صور مثيرة رائعة، بل نحن في محاولة للوقوف أمام مواقف الحوار القصيرة فيها، لنرى كيف تتجسد من خلالها الصورة الحيّة المعبِّرة التي أراد القرآن منا أن نتمثلها في حياة الأنبياء السابقين. وسنتابعها خطوة خطوة.

أ ـ يوسف وامرأة العزيز

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ

أن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (يوسف: ٢٣ ـ ٣٤).

تلك هي الصورة الكاملة في قصته مع امرأة العزيز..

الجوّ مشبع بالإغراء وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف. فيوسف في المرحلة المتفجرة من شباب الغريزة وحيويتها، وامرأة العزيز أنثى يحرق مشاعرها وأحساسيسها جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجّر، والأجواء التي يعيشها الاثنان تهيىء للألفة والاستلطاف والحبّ. وتمهّد للانحراف في ظل الخلوات الكثيرة في الليل والنهار، لغياب صاحب البيت وانشغاله بأمور ملكه وسلطانه... والمشاعر تلتهب، والغريزة تلهث في كيان هذه المرأة. أمّا يوسف فلم يشغل ذهنه ذلك كله، للإيمان الذي يغمر قلبه، والوفاء الذي يشعر به تجاه صاحب البيت.

ولذا فإن القصة لم تشر إلى أية مبادرة منه، بل كانت المبادرة من امرأة العزيز. وراودته عن نفسه، وغلّقت الأبواب، وقالت: هيت لك. فقد بدأت بتحضير الجو بكل ما

فيه من عناصر الإثارة، وبدأت العرض، وكأنها تنتظر التجاوب السريع، كما توحي طبيعة هذه الكلمة التي قالتها بأسلوب مشبع بالإغراء؛ فماذا كان موقفه؟

لقد قال بكل هدوء كلمة الإيمان: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، وكلمة الوفاء: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾، ومضى يلخص لها الموقف بكلمة حاسمة﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾فهي تظلم نفسها بالمعصية، وتظلم زوجها بالخيانة في هذا الموقف. أمّا هو، فسيلاحقه الشعور بأنه ظالم لنفسه ولرب البيت الذي آواه ورعاه، لو تجاوب معها في خط الانحراف والخيانة. ولم تستجب للكلمة الحاسمة، واعتبرتها دلالاً أو خوفاً من النتائج، وضاعفت الإغراء، وهمّت به لتثيره وتنحرف به عن موقفه الصامد، وحاولت إثارة أحاسيسه الغريزية بكل الوسائل، وربما بدأت مشاعره تنجذب نحوها، كما توحي به كلمة «وهمّ بها» في أغلب الظن، ولكنها مجرد لحظة أغفت فيها المشاعر على هدهدات الإغراء. ولكن ما لبثت أن استفاقت على هدير الإيمان في العقل والروح والضمير، الذي يضم الكيان كله في يقظة رسالية واعدة، انطلقت من رؤية برهان الله وجهاً لوجه. كذلك ليصرف عنه الله السوء والفحشاء أنه من عباده المخلصين. وتلك شهادة عظيمة، على المستوى العظيم من الإيمان الذي بلغه يوسف في تلك المرحلة من العمر، مما يجعلنا نؤمن بأن الذي صدر عنه لم يكن إلا اختلاج مشاعر وانجذاب أحاسيس تماماً، كما تختلج مشاعر الإنسان وأحاسيسه أمام أية حالة من حالات الإثارة، دون أن تتجاوز ذلك إلى مواقف عملية في حياته، بفعل عناصر الضبط القويّة الواعية في كيانه.

ولم يكن أمام يوسف إلا الهرب بدينه وإيمانه وخلُقه. وانطلقت وراءه في حركة مسعورة، لترجعه بكل قوّة، حتى أنها مزقت قميصه جراء ذلك. وكانت المفاجأة لهما معاً، أن ألفيا سيدها لدى الباب وحاولت أن تبرىء نفسها لتضعها في موقع الضحيّة أمام المعتدي؛ فبادرت إلى اقتراح العقاب المناسب له على فعلته. ولكن براءة يوسف كانت ظاهرة في نبرات صوته وصفاء روحه، وفي حاله الذي وضع الحكم في إطار مصلحته... واقتنع الزوج ببراءته، ولكنه لم يتخذ أي إجراء ضدّها، بل اكتفى باستنكار عملها واعتباره كيداً من كيد النساء، طالباً منها التوبة والاستغفار لهذا الذنب

العظيم الذي جعلها في مركز الخاطئين.

وشاعت القضية، وعقدت مؤتمراً للنساء لتجد لديهن العذر، وطلبت من يوسف الخروج إليهن. وصعقتهن المفاجأة لجمال يوسف الملائكي، فوجدن لها العذر الكبير في ذلك.. وربما، راودنه عن نفسه كما راودته - هي - وأطلقت كلمتها التي تعلن فيها أنها ستتابع محاولاتها، بالإغراء تارةً، وبالسجن أخرى، وبالعذاب ثالثة، حتى يسقط أمام التجربة. وربما تكررت القضية بعد ذلك. دعوةً وامتناعاً، حتى بدأ يوسف يشعر بالخطر والخوف من ازدياد الضغط على أعصابه حتى كاد يسقط تحت وطأته، فرجع إلى ربه ليستعين به على نفسه وعليهن في دعاء خاشع.

﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾.

فلا يزال الإيمان يهز كيانه، ويدفعه للصمود وتفضيل السجن وعذابه على ما يتعرض له من تجربة الإغراء.. ويتجه بالدعاء في ضراعة خائفة من قسوة التجربة:

﴿ . . . وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

فقد تعدى الأمر حدود الاحتمال والقدرة. وصرف الله عنه كيدهن؛ ودخل السجن بعد أن استنفدت المرأة كل وسائلها. وانتصر الإيمان على الضلال، والأخلاق على نوازع الإغراء، ونجحت تجربة النبي في الانتصار على الآخرين وعلى نفسه، قبل أن يبدأ بدعوة الآخرين إلى ممارسة هذا الانتصار على أنفسهم وعلى الآخرين، لتجتمع للرسول الداعية - في حياته - قوّة التجربة الناجحة، وقوّة الحجة البالغة. ليواجه الناس بتجربته العملية، كما يواجههم بحجته الفكرية، فيثبت لهم بذلك أن الدعوة إلى التماسك أمام الإغراء، ليست شيئاً بعيداً عن واقعه، بل هي تعبير عن واقع حيٍّ عايشه الرسول، ونجح في مواجهته في تجربةٍ يمكن لهم أن يمارسوها كما مارسها وينجحوا فيها كما نجح، على أساس الإيمان بالله.

إن القيمة كل القيمة في هذا الحوار كله، هو تجسيد صورة المؤمن عندما يتعرض للاحتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم أمام نداء الجنس، فيقف مع

إيمانه مهماكانت التضحيات والآلام.

وربما كان حوار يوسف وامرأة العزيز قصيراً جداً، ولكنه إلى جانب كونه يلخص الموقف كله في الدعوة الصارخة والرفض الحازم، يشرف بنا من خلال المواقف المختلفة في تفاصيل القصة، على وجود حوار طويل متنوع تدل عليه التجارب الفاشلة المريرة التي حاولتها هذه المرأة ـ بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقدته في بيتها ـ مما يجعلنا نحسّ بأن هناك كلاماً كثيراً قيل ليوسف من قِبَل أولئك النسوة، لإقناعه بالاستسلام لإغرائها وإغرائهن، كما يوحي دعاء يوسف الذي طلب فيه التخلص من كيدهن جميعاً.

وهكذا نجد، في هذه الآيات، النموذج الحيّ للموقف الإيماني الصلب أمام حالات الإغراء، للإيحاء بأن قضية الدعوة إلى العفة في المجالات الجنسية، ليست من القضايا المثاليّة البعيدة عن التطبيق العملي للحياة الإنسانية، بل هي من قضايا الواقع التي تحضر في أكثر من تجربة في أشد المواقف حراجةً وصعوبةً، كما في قصة يوسف، الذي بقيت كلماته واحدةً، بالرغم من محاولات الإغراء بمختلف الكلمات والأساليب، كما ألمحنا إليه سابقاً.

وربما يكون في هذا كله، بعض الإيحاء بأن على الإنسان أن يظل منسجماً مع كلمته الأولى، إذا كانت منطلقةً من دراسة وتفكير وإيمان، لأنها تمثل الكلمة ـ الموقف، ولهذا فإنها تظل أقوى من كل الكلمات المضادة والأساليب المتضاربة.

ب ـ يوسف في السجن

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٥ ـ ٤٢). ص٣١٩.

إننا نلاحظ ـ في هذا الحوار ـ قضية حيويّة في مجال الدعوة إلى الله، وهي أن على الداعية إلى الله أن لا يجعل من السجن ـ في حال تعرّضه لدخوله ـ مجالاً للاستسلام إلى الأفكار الذاتية، التي يجتر في إطارها آلامه وأشواقه إلى آفاق الحرية، فينشغل بها عن قضيته ويبتعد عن دعوته... بل يعمل على تحويل السجن إلى مجال حي من مجالات الدعوة إلى الله، لأنه يمثّل الأرضية الصالحة لتلقي بذور الأفكار الطيّبة، نظراً لطبيعة السجن التي تقترب بالإنسان من حالات الصفاء الروحي، وتبعده عن كل ما يحجبه عن الاتصال بالله والإحساس بوجوده وعظمته، من أجواء مادية أو اجتماعية هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فإن أجواء السجن تجعل السجين مستعداً للحوار، وللاستماع إلى كثير مما يُلقى عليه، لأنه في حاجة إلى الهروب من واقعه، وإلى قضاء الوقت الطويل في أشياء جديدة تُشغله وتستوعب فراغه.

وهذا ما لاحظناه في قصة يوسف؛ فقد استمع إلى رفيقيه في السجن، وهما يعرضان عليه أحلامهما ويطلبان إليه تأويلها. فلم يمتنع عن ذلك، بل اعتبره فرصة جيّدة للدعوة، فحاول ـ أولاً ـ أن يزيد ثقتهما بقدرته على ذلك، بإعلامهما بمستواه الكبير الذي يجعلهما منجذبين إليه ومرتبطين به بشكلٍ أكبر، كأسلوب عملي من أساليب التأثير النفسي عليهما، قبل أن يستغرق في الحديث، ويدعوهما إليه من عقيدة.

فبدأ بالحديث عن نفسه وعن عقيدته، وقناعاته المرتكزة على الحجة والبرهان. وهاجم الأفكار المضادة المستندة إلى عبادة غير الله أو الإشراك به، التي لا تخضع لأيّ منطق ولا ترتكز على أيّ دليل؛ ولم ينس ضرورة المحاولة الجادّة للخروج من السجن، فطلب من الذي كان حلمه يوحي ببقائه حياً بعد خروجه من السجن ، أن يذكره عند الملك،.ولكن صاحبه نسي ذكره، مما جعله يقضي في السجن سنين عديدة.

إنها قصة الرسالة عندما تشغل تفكير صاحبها وضميره، وتدعوه إلى استغلال أيّة فرصة تعرض له، في أداء رسالته، بحيث لا يبقى لقضاياه الشخصية إلا القليل.

ولقد شاهدنا ـ في الواقع المعاصر ـ قيمة الأجواء المميزة التي يمكن للسجون أن توفرها للدعوة والحوار حول المبادىء والدعوات، مما جعل كثيراً من المنظمات والأحزاب السياسية العقيديّة تعمل على إدخال بعض عناصرها إلى السجن، ليقوم بمهمة الدعوة إلى أفكارها بين السجناء، للاستفادة من الحالة النفسية التي يعيشها السجين، والتي تجعل من توجيه مشاعره وأفكاره نحو المبادىء المتنوعة أمراً قريباً وممكناً.

ج ـ يوسف خارج السجن

وقد نجد في الفصول الأخيرة من قصة يوسف كثيراً من الدروس والعبر، ولكننا لسنا في صدد قراءتها هنا، بل كل ما نحاوله اختتام حديثنا بالإشارة إلى الموقف الذي وقفه يوسف مع الملك، حينما استدعاه ليوليه على خزائن الدولة، من أجل حل الأزمة الاقتصادية التي تنتظر البلاد، حسب تفسير يوسف للحلم الذي رآه الملك،. فقد ربط يوسف استجابته لهذا الطلب، بإظهار براءته الكاملة من قصة امرأة العزيز ونسوتها، وذلك بطلب استدعائهن وسؤالهن عن مبرّرات كل ما عملنه معه.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا

فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٤٣ ـ ٥٣).

وتستوقفنا هنا نقاط مهمة تتمثّل في:

١ ـ المسؤولية تفرض الدفاع عن التهم

ولعلنا لا نذهب بعيداً إذا قررنا أن الأساس في ذلك، هو قناعة يوسف بأنّ تحمله زمام المسؤولية يفرض عليه أن يواجه التهمة التي ألصقت به من قبَل عائلة الملك، ليوضح للملأ كله على لسان أبطالها براءته منها، لشعوره العميق أن على من يريد أن يحمل المسؤولية، العمل على إيجاد الأجواء التي تدفع الناس إلى الثقة به، لأن القضية ليست قضيته الخاصة بل هي قضية المهمّة التي يتولاّها، والأمّة التي يقودها. فليس له أن يتغاضى عن أية تهمة يستطيع فضحها وتكذيبها، لأن ذلك قد يعيق وصول رسالته إلى المجتمع.

وبهذا استطاع يوسف من موقع القوة التي حصل عليها، أن يقود أصحاب التهم كلهم إلى الاعتراف بكذبهم على رؤوس الأشهاد، فكان له أن يتسلم زمام إدارة البلد بكل قوة وثقة واطمئنان. وهذا ما نستطيع الاستفادة منه في موقف الرسالة وأصحابها ودعاتهم، من التُّهم التي تلصق بها أو بهم. فقد يكون من الواجب العمل على مناقشة ما

يمكن مناقشته، وتوضيح ما يمكن توضيحه في نطاق الظروف المتاحة لذلك، وترك الباقي للظروف الملائمة في المستقبل، لأن ذلك يتصل بمستقبل العمل وسلامته. وليس للعاملين أن يقولوا ـ في هذا المجال ـ: إننا لا نحتاج إلى الاعتراف ببراءتنا، ما دمنا نعتقد بها، وما دام الله ـ سبحانه ـ يعرف صدقنا وإخلاصنا في طاعته ونيل رضاه؟! ليس لهم أن يقولوا ذلك، لأن براءة الداعية من التهم لا تبرر سكوته عنها ما دام يستطيع ردها عنه. فإن ذلك ليس حقاً شخصياً للداعية، بل هو حق للناس والرسالة، إذ من حق الناس أن يكونوا في الموقع الصحيح الذي يمكنهم من مناقشة كل الأمور، للحصول على قناعاتهم بكل قوّة ووضوح كي تتحول تلك القناعات إلى قوّة تدعم العمل وأصحابه.

٢ ـ الداعية بين تحصيل العلم والمشاركة في السلطة

وقد نستطيع أن نفهم من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وحواره في السجن وخارجه، حقيقة حياتية أساسية، وهي إن على الداعية إلى الله أن يأخذ بأسباب العلم والمعرفة التي تدفع به إلى الصفوف الأمامية، وتجعل المجتمع يحتاج إلى علمه ومعرفته، بحيث يكون أكثر قدرة على التأثير في الأمة، عنه في حال بعده عن مواقع القوة الاجتماعية.

وربما يمتد ذلك، إلى العمل على المشاركة في السلطة، لأجل استخدام ما تمنحه السلطة من النفوذ وحرية الحركة في الوصول إلى الهدف.

ومن الطبيعي، أن يحكم ذلك شرط أساسي واحد، وهو شعوره بالأمان على نفسه ودينه من الانزلاق في مغريات السلطة والمركز والوجاهة الاجتماعية، بما يؤثر على دعوته، حيث تجرّ الدنيا كل طاقاته ونشاطاته. فإذا لم يجد في نفسه القوة على مقاومة المغريات، ولم يُحرز القدرة على الثبات والاستمرار على الخط المستقيم، فعليه أن يظل حيث هو، بعيداً مغموراً، يجاهد ويكافح دون ضجة أو ضوضاء.

تلك هي الحقيقة الحياتية المتمثلة في قصة يوسف. فقد رأينا أنّ خبرته في تأويل الأحلام شقّت له الطريق إلى هداية رفيقيه في السجن وإلى الخروج منه. كما أن هذه الخبرة، منحته ثقة الملك، وفتحت أمامه سبيل تسلم زمام الأمور المالية والاقتصادية في

البلد، الأمر الذي أفاد منه كثيراً في مجال الدعوة إلى الله، والسير بالأمور الاقتصادية في خط العدالة الاجتماعية التي يرضاها الله ورسلُه.

٣ ـ المعجزة قمة المعارف والعلم

وإذا أردنا تأكيد هذا الجانب، نجد في طبيعة المعاجز التي كان يقوم بها الأنبياء، دليلاً على صحة ما نقول. فإننا نلاحظ أن المعجزة تمثل القمة في العلوم والمعارف التي تنتشر في تلك الأزمنة. مما يجعلها مدخل النبي الرحب إلى قلوب الناس وحياتهم، حيث يشعرون بتفوقه عليهم، في ما يدعونه لأنفسهم من علم وخبرة. فقد كان السحر هو الفن السائد في زمان موسى، وكانت قصة العصا التي ألقاها موسى قمة ذلك الفن، لا تخرج عن نطاق قدرة السحرة، مما جعلهم يسجدون لله ويؤمنون به دون انتظار إذن من فرعون، وكان الطب هو الفن السائد في عهد عيسى، فأرسله الله بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، الأمر الذي أثار إعجابهم به وجعلهم يخضعون له، إلى درجة الانحراف إلى الاعتقاد بربوبيّته؛ وكانت الفصاحة والبلاغة هي السائدة لدى العرب، فجاء القرآن الكريم قمّةً تهزم الفصحاء والبلغاء وتتحداهم في الإتيان بسورة من مثله فلم يستطيعوا.

إن ذلك كله يعطينا فكرة واضحة عما تمثله العلوم والمعارف التي يتميز بها العاملون في سبيل الله والداعون إليه، في كسب الثقة الكبيرة لدى المجتمع، وقهر تحديات الكفار والمنافقين.

٤ ـ حركة التبشير توظف العلم في خدمة شروعها

ولعل تجربة التبشير المسيحي وتجربة التخطيط الاستعماري، في مجال الدعوة إلى المسيحية هنا والاستعمار هناك، أبلغ شاهد على ذلك، فإننا وجدنا أنّ أجهزة التبشير عملت جاهدةً على أن يتخصص الكثيرون ممن تعدهم، بكثير من العلوم والمعارف التي تفتح لهم أبواب الجامعات والمستشفيات والمؤتمرات العالمية، وتخترق حياة المجتمع من

أوسع أبوابها الثقافية لصحة النظام، لحاجة المجتمع في ذلك كله. وقد كانت حركة الاستشراق في أوروبا خاضعةً للتخطيط التبشيري، القاضي بتشويه صورة الإسلام ونبيّه وثقافته وأبطاله. وقد عايشنا، ولا نزال نعايش، الأجهزة الاستعمارية التي تعمل على التأثير في حياة المجتمعات، بإرسال أشخاص يملكون الخبرة الفنية والعلمية التي تحتاجها تلك المجتمعات، مما يجعلهم في موقع القوة التي يمسكون من خلالها خيوط اللعبة في حياة الناس.

٥ ـ الموقف الرسالي ليوسف من إخوته

ونخلص في ختام القصة إلى موقفٍ رائعٍ وقفه يوسف من إخوته، بعد انكشاف الحقيقة واعترافهم بخطئهم حين تآمروا عليه وأرادوا قتله حسداً وبغياً وعدواناً. فقد قاده إيمانه بالله وثباته أمام الشدائد الكبيرة والمواقف الصعبة إلى أن يملك زمام الأمر كله، ويحسن إليهم بالبرّ بهم من حيث لا يعلمون. وجاؤوا إليه يعتذرون، فلم يبادرهم بالعقوبة بل عفا عنهم عفواً كريماً، لا منّة فيه ولا استكبار، وخاطبهم من وحي الخلق الرسالي بما حدّثنا الله عنهم وعنه في قوله تعالى:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩١ ـ ٩٢).

ثم الموقف الآخر الذي عبّر عنه في تواضعه العميق وعبوديته الخالصة لله، حينما جاء إليه أبواه ورفعهما إليه على العرش فلم يتحدث عن قصته كلها، إلا باعتبارها فضلاً من الله وإحساناً من البداية إلى النهاية، فلم يدخل فيها أي شيء ذاتي، أو أيّ بطولة استعراضية يُضخِّم فيها شخصيته أمام أبويه وإخوته.. أو أيّ عنصر من عناصر التبكيت والتأنيب لأخوته بما فعلوه معه، لأن قضيتهم كانت ـ بكل بساطة ـ هي قضية استسلام لنزغات الشيطان ولتسويلاته، حتى إذا انكشف لهم وجه الحق رجعوا إلى الله.

ثم أقبل على الله في صلاة خاشعة يشهده فيها على مشاعره تجاه ذلك كله،

وليستعين به راجياً العاقبة الحسنة، لأن الله ولي ذلك كله:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٠ ـ ١٠١).

العبرة الرسالية

إنّها العبرة الرسالية للدعاة إلى الله، عندما تصعد بهم الحياة من المواقع الصغيرة إلى المواقع الكبيرة بعد طول بلاءٍ وجهادٍ، فيدفعون بكل طاقاتهم الفكرية والجسدية، في حلبة الصراع. وهم إذا ما فتحت لهم الحياة ذراعيها، ورفعتهم إلى القمة؛ لا يشعرون إلا والقمة تحت أقدامهم. بعكس من يسقط صريع غروره، عندما تصغر نفسه أمام القمة، فيتعالى ويتعاظم وينسى ربه فينسى نفسه، ويبدأ في تحويل كل الانتصارات الرسالية إلى انتصار ذاتي حققته جهوده الشخصية فحسب.

وقد يقف البعض الآخر منهم ـ وهم القليل القليل ـ ليشعر بأن مسيرة الرسالات أكبر من قمم الحياة، وأن الانتصارات الرسالية ليست امتيازاً ذاتياً يتحققه الإنسان بنفسه، بل هي ألطاف إلهية يسبغها الله على العاملين في سبيله، بما يمنحهم من قوة وما يرزقهم من مواهب وكفاءات، ليستخدموها في سبيل الرسالة. فليس هناك مجال للغرور، أو للتعالي، بل لا مكان إلا للتواضع انطلاقاً من إيمان الإنسان بربه وشعوره بفقر ذاته إلى الله في كل شيء، وإيمانه أن لا حول ولا قوة له إلا بالله العلي العظيم.

إن هذه القصة تعتبر درساً عملياً للدعاة إلى الله، ليكونوا امتداداً للحركة الرسالية النبويّة التي تخشع أمام الانتصارات، وتصلي لله بكل خضوع عند أيّ بادرة من نجاح

أو تقدم؛ كما تصلي له ـ بنفس الخضوع ـ لدى أيِّ بادرة فشل، لأن الله هو مرجع الأمر كله، وعلى الإنسان أن يستعين به على مواجهة النجاح في اتجاه الرسالة، كما يستعين به على مواجه السقوط في الاتجاه ذاته.

إننا نلاحظ في قصة يوسف (ع) فصلاً كبيراً، يتناول الجانب العاطفي، الذي يصور لنا فيه قصة غرام امرأة العزيز به، ومراودتها له عن نفسه، واستعصامه بالله، وامتناعه عن التجاوب معها، وتفضيله السجن على السقوط في التجربة.. (وقد تحدثنا عن ذلك كله في ما قدمناه من حديث...).

أما ما نريده من التأكيد على هذا الجانب، فهو إثارة التفكير حول نقطيتين، نستوحيهما من القرآن الكريم في عرض القصة، هما:

١ ـ الدين لا يتنكر للجوانب العاطفية

النقطة الأولى: إن الدين لا يستنكر الحديث عن الجوانب العاطفية في حياة الناس، بما في ذلك رواية قصص الغرام والحب إذا كانت تخدم الأهداف الرسالية، باعتبارها تُصوِّر موقفاً من مواقف الانتصار على نوازع النفس الغريزية وشهواتها الجنسية، لتعطينا النموذج الواقعي للإنسان المنسجم مع رسالة الله، والدليل الحيّ على واقعية الإسلام في شريعته ومفاهيمه. وربما تصور بعض المواقف المأساوية للرجل والمرأة بسبب انحرافٍ خاص، أو سلوك غير مسؤول، فتكون القصة أسلوب ردع وتحذير عن مثل هذه المواقف في المستقبل.

ويمكننا أن نستفيد من ذلك في التخطيط لأدب إسلامي ملتزم، تأخذ القصة فيه مضموناً عاطفياً محوره قضايا الحب والغرام، إلى جانب المضمون الاجتماعي والسياسي وغيرهما.

وبذلك نفتح للأسلوب الإسلامي في الدعوة، نافذةً جديدة يطل من خلالها على حياة الناس، ويعالج من خلالها فكر الإسلام وشريعته، ويوحي للناس بأن الإسلام لا يتجمّد عند زاويةٍ معينة جافّة، بل يمتد إلى الجوانب الأخرى من حياتهم التي ترتبط بالإحساس

الطريّ الشيّق، ولترفع الفكرة الخاطئة التي تعتبر الحديث عن هذا النوع من القصص بعيداً عن الخط الإسلامي الجادّ، إذ لا مجال لقبول هذه الفكرة، بعد حديث القرآن والكتب السماوية الأخرى عن هذا الجانب في اكثر من سورة.

ولا بد لنا أن نضع الأصول والقواعد الفنية التي تحفظ لهذا الاتجاه انسجامه مع الإطار الإسلامي للدعوة والتفكير، كما هو الحال في كل اتجاه أدبي آخر في أسلوب العمل.

٢ ـ الدين والثقافة الجنسية

النقطة الثانية: إن الدين يتحدث عن العلاقات الجنسية ـ الشرعية أو المنحرفة ـ حديثاً طبيعياً كما يتحدث عن أية علاقة أخرى من علاقات الإنسان، مما يوحي بأنه لا يعتبر المعرفة بتلك العلاقات، شيئاً معيباً ـ كما توحي التقاليد الاجتماعية ـ بل ربما نفهم من كثير من الآيات والأحاديث التي تُسمي الأشياء بأسمائها ـ كما تسمي سائر أعضاء الجسم ـ أن الإسلام لا يمانع من نشر الثقافة الجنسية، في إطار تخطيط سليم بعيد عن أجواء الإثارة، تماماً كأي ثقافة أخرى.

وقد نمتد كثيراً في هذا المجال، فنسمح لأنفسنا بالقول: إن الإسلام يشجع على ذلك، لارتباط كثير من الأحكام الشرعية بالحالات الجنسية للنساء والرجال، مما يُرتب عليهم بعض الواجبات كالغسل وأمثالها، في ما يتعلق بموضوع الجنابة والعادة الشهرية وحالات الولادة، وغيرها... فإن الالتزام بهذه الواجبات لا يتحقق إلا بالمعرفة التفصيلية لوظائف الأعضاء التناسلية لدى الرجل والمرأة. وقديماً قيل: «لا حياء في الدين»؛ وعلى ضوء هذا، يمكننا اعتبار أن الإسلام ينسجم مع الفكرة التي تنادي بالثقافة الجنسية، لا من زاوية أن الجهل بها يورث عقداً نفسية ومشاكل ذاتية لأصحابه، بل من زاوية رفض الإسلام للتفكير الذي يعتبر الحديث عنها أمراً معيباً أو محرّماً؛ ولارتباط تلك الثقافة بممارسة الكثير من الواجبات الدينية والمحرمات الشرعية، مما يجعل من هذه الثقافة عملاً دينياً مقدساً إلى حدّ كبير. وخلاصة القول: إننا نريد

الوصول إلى تلك الثقافة من القصص القرآني والتشريع الإسلامي، إلى جانب البناء السليم للشخصية الإسلامية، بعيداً عن كل العقد والمؤثرات السلبيّة.

ومن الطبيعي أن نبذل المزيد من الجهد في التفكير والتتبع للكتاب والسنّة والسيرة النبوية الشريفة، لنحصل على رأي الإسلام الشامل في «القضية الجنسية» بشكل عام، باعتبارها من القضايا الحيوية التي تشغل التفكير الاجتماعي والتربوي في مرحلتنا المعاصرة، انطلاقاً من الفكرة الأساسية التي تقتضي منا البحث عن رأي الإسلام في كل مشكلة تثار، وفي كل اتجاه يفرض نفسه على الحياة. لئلا يبقى المسلم حائراً بين الآراء المتضاربة والاتجاهات المختلفة هنا وهناك.

نماذج بشرية في حوار الرسالة

نماذج بشرية

كان الحديث السابق الذي عالجناه، حديث الأنبياء في حوارهم الرسالي، في ما قصّه علينا القرآن من قصصهم ورسالاتهم لنأخذ منها العبرة، ونستفيد من الخبرة في حركة الرسالة الإسلامية حاضراً ومستقبلاً.

أمّا هذا الحديث الذي نريد أن نخوض فيه، فهو حديث النماذج البشرية المتنوعة التي صورها القرآن الكريم في أسلوب الحوار، لتكون لنا مَثَلاً نحتذيه أو نتفوق عليه، أو نموذجاً نبتعد ونتجنّب أمثاله.

وقد قدّم لنا القرآن الكثير من هذه النماذج، في موقع الإيمان وفي موقع الكفر، في الانحراف الفكري أو الانحراف العملي أو في خط الاستقامة من الجانبين. وحاول أن يوضح لنا الملامح الأصيلة التي تميزهم وتشير إليهم في كل زمان ومكان، فهم ليسوا أسماء تجمد عند الذوات ولا أشخاصاً معينين تضمهم الحدود الضيقة، بل هم النماذج البشرية التي تتميز بالخُلُق والكلمة والفكر، فتجري مجرى الشمس والقمر، وتتجدد تجدُّد الليل والنهار.

ونحن هنا، في محاولة دراسية للسير مع القصص القرآني الذي قدّم لنا هذه النماذج من خلال الحوار، ليكونوا لنا - في الحاضر والمستقبل - عبرة ودرساً ومثلاً نحتذيه أو نبتعد عنه، في ملامحهم المتكررة بامتداد الزمان والمكان.

قابيل وهابيل

من الأساليب القرآنية الرائعة، التي استخدمها القرآن الكريم في إطار الحوار، أسلوب تصوير شخصيتين، كنموذج يُحتذى وكنموذج يُرفض، في وضعين متقابلين. وذلك بأن تقف الشخصيتان في حادثة معينة موقفين متباينين. ثم ينطلق الحوار الناطق كلمةً بكلمة، والحوار الصامت عملاً بعمل، ليعبِّر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء الموقف، ليفتح ـ من خلال ذلك ـ للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة.

ويتمثل هذا الأسلوب في قصة هابيل وقابيل ـ ابني آدم ـ التي حدثنا عنها القرآن بشكل موجز مفيد.

قال تعالى:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ

أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٧ ـ ٣١).

مقارنة بين نموذجين

عندما نتأمل الصورة، مشهداً مشهداً، نقف ـ في البداية ـ عند المشهد الأول، لنجد فيه ابني آدم، وقد قرّب كل منهما قرباناً إلى الله، أملاً في قبول الله له، للحصول على رضاه ومغفرته، أو لتحقيق ما يطلبه كل منهما من حاجة، فكانت النتيجة رفض قربان أحدهما وقبول قربان الآخر.

ولم يتقبل المرفوض النتيجة الربانية برضا وخضوع، بل واجهها بتمرّد واحتجاج يتجه به إلى البغي والعدوان.

ثم ننتقل إلى المشهد الثاني، الذي يدور فيه الحوار المعبِّر بين الأخوين. فقد بدأ أحدهما ـ وهو الذي رفض قربانه ـ بالتهديد والوعيد لأخيه المؤمن ـ الذي تقبل الله منه القربان ـ وقال له: لأقتلنّك، في لهجةٍ تنضح بالحقد والحسد الطاغي الذي يتفجر في صدره مثل الحمم، ولم يكن هناك أي مبرر لهذا الموقف منه، لأن النتيجة ليست من صنع أخيه، ليحسبها ذنباً من ذنوبه التي يستحق العقوبة عليها؛ بل القضية من صنع الله في هذا وذاك، فهو الذي رفض من هذا وتقبل من ذاك، فليكن الحساب مع الله ـ إذا كان يمكنه ذلك أو يحق له ـ ولكنه الحسد الذي يواجه فيه الحاسد المحسود من غير ذنبٍ جناه، إلا أن الله أنعم عليه ولم ينعم على الحاسد.

فما كان ردّ الفعل لدى أخيه المؤمن؟

إننا نلمح الوداعة الإيمانية والصفاء الروحي، والمشاعر الطاهرة المنسابة مثل انسياب النور في عروق الصباح، ونتمثل ـ إلى جانب ذلك ـ كيف ينهمر السلام ـ مثل الشلاّل ـ من كل كلماته في ردّه على تهديده له، في ما نقله الله لنا عنه في الآيات المتقدّمة، في قوله تعالى:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨).

إنه «موقف اللاعنف» أو «إرادة السلام» الذي يعبِّر عن نفسه بهذه البساطة الموحية، فهو لا يواجه موقفه التهديدي بموقف تهديد مضاد، لأنه لا يؤمن بالمبدأ الذي يدفع الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان، قريباً كان أو بعيداً، لمجرّد نزوة عارضة أو مزاج انفعالي، بل يؤمن بالمبدأ الذي يعطي للمواقف الحادة فرصة التراجع أمام هدوء الفكر ورحابة الصدر، التي تسيطر على السلبيات التي فجرت الموقف وخلقت المشكلة. ثم يحاول أن يربط ذلك كله بالإيمان بالله الذي يريد للإنسان السلام في الحياة، فيعبّر عنه بأنه يخاف الله رب العالمين، الذي يطّلع على كل أقواله وأفعاله فيحاسبه على كل شيء.

ثم لا يقتصر على إعلان موقفه المبدئي من القضية، بل يوجه إليه كلمات تحذيرية، من أن يتحمل مسؤولية إثم القاتل وإثم المقتول، فيكون من أصحاب النار التي هي جزاء الظالمين. وربما كانت تلك اللفتة إشارة إلى الحديث[1] القائل: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب..» إذا كان القتل ظلماً وعدواناً، كعملية ردع في البداية وعقوبة في النهاية.

وقد يخيَّل لبعض الناس أن الموقف ـ هنا ـ يوحي بالروح الاستسلامية الانهزامية التي تنكر على الإنسان حق الدفاع عن نفسه، ولكن القضية ليست كما يُتَخَيَّل. فقد كان الحوار يدور ـ كما يبدو ـ حول استخدام العنف في مواجهة خيبة الأمل وفورة الانفعال، باعتباره أمراً غير مبرّراً في هذه الحال. وليس في الآية أيّة إشارة إلى تفصيل ما حدث وكيف حدث، هل وقف المؤمن أمام أخيه الظالم موقف المستسلم أم موقف المدافع عن نفسه؟ أم أن الجريمة حصلت بشكل مفاجىء وبطريقة الاغتيال؟ فقد أغفلت الآية ذلك كله، لأنها لم تشأ الدخول في التفاصيل البعيدة عن حركة الفكرة في الحوار، بل كانت

---

(١) تفسير الميزان ـ للعلامة الطباطبائي ج٨ ـ ص ١١٥.

تركز على أصل الفكرة من حيث طبيعتها، أو من حيث تمثيلها لبداية الشر في الكون، ولسذاجة المجرم الشرّير البدائي وجهله بطريقة إخفاء جريمته أو دفن ضحيته، حتى بعث الله له غراباً يعرّفه كيف يواري أخاه، مما جعله يخضع لحالة تأمّل عميق أدّى به إلى الندم على كل ما فعله.

وقد يتعلق البعض بالمقابلة التي يرفضها المؤمن بين إقدام أخيه على قتله وإقدامه على قتل أخيه، فيفهم منها رفض الدفاع عن نفسه في حالة إقدام أخيه على قتله.

ولكن التأمّل في الآية، يدفعنا إلى القول أنه حاول أن يواجهه برفض فكرة ابتدائه بالإقدام على القتل، على أساس المبررات التي قدمها الأخ الظالم، ولذا قدم لرفض إقدامه على قتله خوفه من الله رب العالمين، مما يوحي لنا بأنه ليس في موقع الدفاع عن النفس، الذي يبرر كل عمل يقوم به الإنسان في هذا المجال، إنما يوحي الاحتمال ـ لوصول ـ بالضعف والاستسلام.

قيم تربوية

إن هذه القصة القصيرة التي رواها القرآن لنا، في إطار من الحوار ، تجسد لنا الصورة الحية لشخصية الإنسان الشرّير، مقابل شخصية الإنسان الخيّر، لتربطنا بفكرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشرّ، في موقف يوحي للناظر والمستمع بفظاعة موقف ذاك إزاء روعة موقف هذا، حيث نرى الجريمة خالية من كل مبرراتها التي تجعل منها عملاً عادلاً، لأنها نشأت من حالة نفسية معقّدة بالحسد. فليس للضحيّة فيها أي ذنب، بل نجد ـ في جوّ الآية ـ أن الضحية لم تحاول أن تجعل من قبول قربانها ورفض قربان المجرم ، أساساً لأيّ تصرّف استعراضي يُسيء إلى كرامته، كما يفعل الرابحون أمام الخاسرين، لأن خُلُق الأخ المؤمن كان بعيداً عن ذلك كل البعد.

ولعل قيمة هذه القصة، أو بالأحرى عرض القرآن لهذه القصة، تتمثل في ما تخلقه في نفس القارىء أو السامع من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطفٍ روحي مع

الضحيّة، مما يترك آثاره على السلوك الإنساني العام، في ما يريد أن يُقدم عليه من عمل أو يحكم عليه من أعمال الآخرين.

أمّا نحن، فنستطيع الاستفادة منها في مجالين:

١ ـ المجال التربوي، الذي يعتبر القصة وسيلة حيّة للإيضاح، عندما تتحول إلى عمل مسرحي أو ما يشبه ذلك، وأسلوباً من أساليب التوجيه والتربية. فقد نجد من الخير لنا أن نجعلها إحدى القصص الدينية التربوية التي نقدمها للأطفال أو للشباب، بالأسلوب الذي يتناسب مع ذهنياتهم في عملية تصويرية حيّة، بالكلمة أو بالصورة أو بالتمثيل.

٢ ـ استيحاء هذه القصة في وضع قصص متنوّعة قريبة من أجوائها، تعالج قضية الجريمة والمجرم، بأشكالها كافة، سواء منها القتل أو السرقة أو الزنا أو الظلم والاعتداء على الناس بشكل عام؛ لأن دور الأسلوب القرآني هو التخطيط للمنهج التربوي، الذي يسير عليه الناس اتّباعاً أو استيحاءً وإبداعاً، وليس دوره إعطاء النصوص، لحفظها واستظهارها ونقلها بطريقة «ببغائية» جامدة، تتحرك في اتجاه التنويع.

وبهذا نكفل للعمل الإسلامي التربوي أن يعيش في أجواء القرآن، مستوحياً أفكاره وأساليبه في حركة العمل.

طالوت وجالوت

وهذه قصة من قصص أحد الأنبياء مع قومه من بني إسرائيل. ولا يهمنا معرفة اسمه، لأن ذلك لا قيمة له، في ما نحن بصدده من عملٍ على استخراج الفكرة من الحوار القصصي.

خلاصة القصة

فقد جاء هؤلاء القوم لنبيهم هذا، يطلبون منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتل في سبيل الله ليقاتلوا معه، فهم جنود الله الذين يفتشون عن القائد.

وكان هذا النبي في شك من جدّية هذا الطلب، فقال لهم إنه يخشى أن لا يستجيبوا للقتال إذا فرض الله عليهم القتال. وأعلنوا ـ في جوابهم له ـ تصميمهم على القتال، وبينوا واقع الاضطهاد الذي تعرضوا له، من إخراج الظالمين لهم من ديارهم وأهاليهم، مما يجعل من قضية القتال، قضية ترتبط بالذات من جهة، وبالعقيدة من جهة أخرى.

وبدأت التجربة، فقد عيّن النبي القائد، وأوضح لهم أن التعيين من الله لا منه، ولم يخفوا اعتراضهم على ذلك القائد المعيّن، لأنهم لا يحسبونه أهلاً للقيادة

لعدم تمتعه بالقدرة المالية التي يعتبرونها أساساً للقيادة والملك، في الوقت الذي يرون فيه أنفسهم أحق منه بالملك لحيازتهم هذا الامتياز.

ووقف النبي ليشرح لهم أن المال لا يمثل قيمة في الملك القائد، لأن القيادة تحتاج إلى قوة يقاتل بها، وعلم يضع به خطط الحرب والقتال، وكلاهما موجودان في هذا الإنسان الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم. ثم إن القضية - أولاً وأخيراً - قضية الإرادة الإلهية التي تختار من موقع الحكمة. ثم شرح لهم علامة ملكه.

وانطلق طالوت - وهذا هو اسم الملك الذي عيّنه النبي - ومضى معه جنوده. وبدأت التجربة بين القائد وجنوده، فقد أعلن لهم أن الله قد ابتلاهم وامتحنهم، ليختبر انقيادهم، بالنهر الذي يمرون به فلا يشربون منه إلا بمقدار غرفة، مهما بلغ عطشهم. وسقط الأكثرون في الامتحان، ووهنت عزائمهم، ودب الضعف فيهم،، وصبر المؤمنون المخلصون، ليكون النصرلهم في نهاية المطاف.

تلك هي خلاصة القصة، فما الذي نستوحيه منها في حركة الدعوة إلى الله.

دروس للعاملين

هناك عدة أمور نلتقيها في هذه القصة - الحوار:

١ - الحذر المطلوب

أن يقف العاملون في سبيل الله موقف الحذر من كثير من المتحمسين والمندفعين الذين يطرحون الشعارات الحادة ويعلنون - في حماس زائد - استعدادهم للجهاد والقتال، إذا ما توفرت لهم القيادة الحكيمة الصالحة، وهم يظنون أو يأملون في أنفسهم أن لا تتوفر.

إن علينا أن نستفيد من هذه القصة، الطريقة التي يمكننا - فيها - التفاهم معهم، من أجل اكتشاف ما هم عليه من جديّة وتصميم، لتتميز العناصر المخلصة من العناصر المزيّفة، سواء في وضع ما يريدون أمام التجربة العملية، أو في إدارة الحوار معهم في

بعض القضايا التي توضح لنا الفرق بين الجوانب المرتبطة بالذات وبين الجوانب المرتبطة بالعقيدة.

٢ - بين النصر والهزيمة

إن قضية النصر والهزيمة ليست بالقلة والكثرة، بل هي بالإيمان والتخطيط والتنظيم والأخذ بأسباب القوّة، مما يجعل النصر في جانب القلّة المؤمنة المنظّمة على الكثرة التي تفقد الإيمان والتنظيم والتخطيط، انطلاقاً من الشعار الذي طرحه هؤلاء المؤمنون الذين واجهوا المعركة بقلوب مؤمنة واثقة بالله: ﴿ . . . كَم من فئَة قَليلَة غَلَبَت فئَة كَثيرَةَ بإذن الله . . .﴾ (البقرة: ٢٤٩) الأمر الذي يجعل العاملينَ فيَّ موقعَ الثقة، مَهماَ كانت قَوَّةَ الخصوم كبيرة.

٣ - تمثل الموقف

إن قيمة الحوار في هذه القصة، هي أننا استطعنا أن نتمثل كل المشاعر والأجواء التي كان يعيشها هؤلاء وهؤلاء، من خلال مواقفهم القلقة في جانب، والثابتة في جانب آخر، مما لا يتسنى لنا معرفته لو كانت القضية تعيش في إطار التقرير العادي للقصة.

نظراً للفرق بين أن يُحكى لنا الموقف من خلال الآخرين، أو يُنقل لنا الموقف بنفسه، لنتمثله بأنفسنا.

٤ - الاستعانة بالله

- أن يبقى المؤمن المجاهد، في موقف الاستعانة بالله والشعور بالحاجة إليه، في ما يحصل عليه من قوّة وفي ما يحتاجه من الصبر والصمود والثبات، وفي ما يتطلع إليه من نصر، لاعتقاده بأن النصر من عند الله أوّلاً وأخيراً، فلا يدفعه الشعور بالقوة إلى الغرور والتعالي ونسيان الله، ولايمنعه الشعور بالضعف من التماسك إزاء قوة الله، كما يفعل الكثيرون ممن ينسون الله، في مواقف الحرب والسلم، فينسيهم أنفسهم، فيخيّل إليهم أنهم على شيء، وليسوا بشيء.

إنه الفرق بين المؤمن الذي يشعر بالقوّة الروحية والمعنوية التي لا تقف عند حدّ، فيتحوّل إلى قوّة تدمّر كل قوّة تقف أمامه؛ وبين غير المؤمن الذي يستمد قوته من الأرض ومما يحوطه من إمكانيات محدودة، فيبقى حيث هو في إطار محدود.

إننا الآن - بعد هذا العرض القصير - نقف وجهاً لوجه أمام الصورة الكاملة لهذه القصة، من خلال الحوار الحي المتحرك الذي تنقلنا إليه هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١).

قصة قارون

هذا نموذج آخر من النماذج التي عرضها لنا القرآن من خلال حواره مع قومه، وحوار قومه في شأنه، وهو قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم. وقد جسّد الصورة الحيّة للإنسان الذي يمثل المال بالنسبة له قيمة حياتية كبرى، تتضخم بها شخصيته، فيشعر بالزهو يملك عليه كل مشاعره وأفكاره، حتى ينسى ربّه، وينسى نفسه. وتنتفخ بها ذاته إلى المستوى الذي يرى فيه نفسه فوق الناس، وتتساقط أمامه كل القيم والمقدسات، وتتضاءل لديه كل المسؤوليات والواجبات، ويزحف المال إلى كل خليّة من خلايا فكره ووعيه وضميره، فيسد عليه كل نوافذ الخير ويسدل على عينيه غشاوة الضلال، فتختلط الأشياء في ذهنه، فلا يبصر إلا من خلال المال ولا يفكر إلا به.

إنه النموذج الحيّ لعقلية الإنسان المادي كفرد يملك المال، وكمجتمع يقدس المال ويعتبره قيمة إنسانية عظمى.

وقد صوره القرآن لنا، من خلال حواره مع قومه، حيث تبرز اللمحات الحيّة لشخصيته في كل كلماته وأفكاره، كما تتجسد لنا صورة الطليعة المؤمنة من قومه،

التي لا تشعر بالانسحاق والضعف النفسي أمام الثروة الطاغية التي يملكها، بل تقف أمامه وقفة رسالية تواجهه بالكلمة القوية الناصحة له باتخاذ الخط الصحيح لاستخدام الثروة، انطلاقاً من حقيقة دور المال في الحياة، كوسيلة تنمية في الاتجاه الخيِّر، ووسيلة من وسائل ممارسة الإنسان لحياته. فهو إحدى القوى التي ينبغي للإنسان أن يُسخِّرها لأداء الوظيفة الكبرى التي أراده الله القيام بها، فلا يجوز ـ والحال هذه ـ أن يجعلها صنماً يتعبد له في خشوع وخضوع، أو أن يستخدمها به في خدمة الأهداف الشريرة في الحياة.

وتقف، إلى جانب هذه الصورة الحية التي يجسدها لنا حوار قارون مع الطليعة المؤمنة من قومه، صورة الفئات الضعيفة التي تأخذ مظاهر الثروة بألبابها ومشاعرها، فتملك عليها كل كيانها وأفكارها، إلى درجة الانهيار أمام المظاهر الاستعراضية التي يستخدمها أصحاب الثروة، كأسلوب من أساليب التحطيم النفسي للفقراء، عند المقارنة بين واقعهم الذي يفتقد كل مقوِّمات الحياة، وواقع الأغنياء الذي يحفل بكل أسباب الترف. وتتّضح ـ من خلال الحوار ـ صورتهم، وهم يضعفون أمام ثراء قارون، ووقوف الطليعة لردّهم إلى واقع الحياة الصحيح.

وينتهي الحوار، ويسدل الستار على قارون وثروته، ليسقط في أعماق الأرض حيث يبقى درساً وعِبرة لكل (القوارين) والمخدوعين بهم في كل زمان ومكان.

تلك هي بعض ملامح الصورة القرآنية لقارون ومجتمعه، نتمثلها بأسلوب أروع في الآيات القرآنية التالية:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٦ ـ ٧٧).

الغرور القاتل

إنه يعيش فرح الزهو والغرور، حتى لا تحمله نفسه، وتثور به غرائزه الشريرة لتنطلق به بعيداً في طريق البغي والفساد. فقد بلغ في ميدان امتلاك المال، مما يُنقل ومما لا يُنقل شأناً كبيراً، إلى درجة أن مفاتيح خزائنه وعقاراته تنوء بالعصبة الأقوياء من الرجال، فيخيّل إليه أنّ من حقّه أن يتسلط ويُسخِّر البلاد والعباد لخدمة أغراضه ومطامعه، لأن لسيادة المال قداسة تجعل من حق أصحابه أن يفعلوا ما يشاؤون ويحققوا ما يريدون، من غير حسيب ولا رقيب.

وتقف الطليعة الخيِّرة من قومه، لتذكِّره بالله الذي أعطاه الثروة، بما مكَّنه من أسبابها في نفسه وفي مجالات العمل والاستثمار، وتحذره من الفرح الطاغي الذي يملك على الإنسان أحاسيسه وأفكاره، فيبطر ويزهو ويتكبر، خُيلاءً وغروراً... وترشده إلى السبيل الأقوم في الالتزام بالأهداف الخيِّرة للملكية الفردية للمال، حيث يربط أعماله كلها بفكرة الدار الآخرة التي تدفعه إلى كل عمل خيِّر وكل غايةٍ صالحة، ويبتعد عن كل أغراض الدنيا وأهدافها التي تمحور الإنسان حول نفسه. وليس معنى ذلك أن يترك شهواته وغرائزه جانباً، فإن من حقه أن يستجيب لها بحساب، ويمتنع عنها بحساب، بل كل ما يتوجب عليه أن يرتبط بالهدف ويحسن كما أحسن الله إليه، ويمتنع عن الفساد والإفساد، فإن الله لا يحب الفرحين الذين تبطرهم النعمة، ولا يحب المفسدين الذين يطغيهم الثراء.

أمّا قارون، فإنه لا يدخل معهم في جدل طويل، بل يقتصر لشعوره بالعظمة على كلمةٍ واحدة يُلخص بها كل نظرته إلى المال.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص: ٧٨).

فهو يرفض أن يكون لأيّة قوة أخرى فضلٌ في ما حصل عليه من مال؛ ويستبعد ذلك، حتى لتشعر ـ من كلامه ـ إنه لا يرضى أن ينسب إلى الله شيئاً من تدبير ذلك وتسهيله،

بل يقرّر - بكل غرور - إنه حصل عليه بعلمه وخبرته وجهده، فلا حق لأية سلطة ـ حسب رأيه ـ أن تشرّع له أو تُخضعه لقوانينها وتعاليمها. فهو الذي يقرر لنفسه ما يعمل، ويشرِّع لها ما يريد، لأنه يملك الحرية المطلقة في ما يملك.

ولا يترك القرآن هذه الكلمة دون تعليق، بل يثير أمام مَنْ يقرأها أن الله قد أهلك، من قبله من القرون، مَنْ هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً. فأيَّة قوة هي هذه القوة التي يدعيها لنفسه؟ وهل يمكن أن تحميه مما لم تحم منه أولئك الأقوياء الأشداء من قبله؟

هذه هي الصورة الأولى.

أما الصورة الثانية، فتعرضها لنا الآيات الكريمة التالية:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ (القصص: ٧٩ ـ ٨٠).

المظاهر الزائلة

إنه يريد أن يبهر الأنظار بزينته، لتظل معلّقة به مشدودة إليه، تتفحصه بانبهار، ويبقى المستضعفون البسطاء من قومه خاضعين للإحساس العميق بعظمته ومكانته، من خلال عرض الزينة والثروة الذي يتجدد كل يوم، ليجدّد لديهم الخضوع والخشوع للثريّ الكبير والرجل الخطير. ويتحقق له ما يريد من هذا الاستعراض، وتشتد الأنظار إليه، ويقف القوم صفوفاً صفوفاً مبهورين مسحورين، في تفكير مشبع بالدعوات والتمنيات أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون من المال الكثير والحظ العظيم.

إنها صورة الذين ينظرون إلى ظاهر الأمور، وصورة للذين ينظرون إلى باطنها؛ فهؤلاء يعيشون الشعور العاجل في إطار اللحظة الخاطفة، فتغريهم الحياة بكل مظاهرها وزخارفها؛ وأولئك ينفذون إلى أعماق الأمور، ويشعرون بالامتداد الزمني

للأشياء، فيرونها على طبيعتها، بعيداً عن أيّ تضخيم أو تهويل. ولهذا فهم يعرفون أن نهاية كل قوّة إلى الله، وإن ثواب الله ـ على هذا الأساس ـ هو الباقي للإنسان، لأن كل هذه المظاهر زائلة عاجلاً أو آجلاً.

المشهد النهائي

ولا يكتفي القرآن الكريم بتقديم هذه الصورة، في إطار الحوار، بل يضع اللمسات الأخيرة للنهاية، لتكتملتها بمصير هذا الإنسان الطاغي.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص: ٨١ ـ ٨٢). ص٣٤٤

وتزول الغشاوة عن أعين هؤلاء الذين خدعوا به وبمظاهر الثراء، وتنفتح أعينهم على النهاية الفظيعة للظلم والطغيان.

وتظل الصورة الحيّة تتحدى طغيان المال بأصحابه ودفعه إياهم إلى البغي والظلم والغرور والكفر، لتعرّفهم كيف تكون نهاية المفسدين في كل زمان ومكان.

هذا حديث التاريخ عن قارون فما دروس الحاضر في هذا الحديث؟

موقفنا من القوارين المعاصرين

هناك عدة نقاط، تطرح نفسها أمامنا وهي:

١ ـ كشف القوارين وتعريتهم

أن يعمل الدعاة إلى الله، على اكتشاف «القوارين» المعاصرين وكشفهم وتعريتهم للناس، لئلا يتحولوا إلى أداة تسلّط وتحكّم وتضليل في المجتمع. وذلك بإبراز

الخصائص المشتركة بينهم وبين «قارون» المذكور في القرآن، لإعطاء عملية الكشف والتعرية «القداسة القرآنية» التي تُبعد الحديث عن الطابع الذاتي أو السياسي الضيّق، فيبقى خالصاً للإسلام في كل أجوائه ونوازعه، حتى لا يترك أيّ ظل للشك في دوافعه.

وقد نستفيد من ذلك، في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، التي ترفض مثل هذه النماذج الباغية الطاغية، وتحاربها حرباً لا هوادة فيها، بنفس القوّة التي ترفض فيها أو تحارب العناصر الملحدة الكافرة، لأن الكفر في الإسلام نوعان: كفرفكري وهو كفر الجحود والإلحاد، وكفر عملي وهو كفر البغي والظلم والعدوان. فقد يكون الإنسان كافراً في عقيدته، مؤمناً في عمله، إذا اعتقد عقيدة الكافرين وعمل عمل المؤمنين، وقد يكون مؤمناً في عقيدته، كافراً بعمله إذا آمن بالله ورسله ورسالاته، ولكنه انحرف في سلوكه العملي عن خط الإيمان وسار في خط الشيطان.

وقد يترك مثل هؤلاء المنحرفين انطباعات سيئة عن الإسلام، وتأثيرات سلبية على حياة المجتمع، بما يحدثونه من إرباك في أوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية، من خلال سياسة التجويع والإفقار، والظلم والاستغلال، الأمر الذي يفسح لدعاة الكفر والضلال أن ينفذوا من هذه الثغرات للدخول إلى أفكار الناس وضمائرهم، ويحولوهم إلى كفّار باسم العدالة، ومنحرفين باسم الحرية والكرامة.

٢ ـ الآخرة هدف الحياة الدنيا

أن نحاول الاستفادة من الحوار القصير بين قارون وبين المؤمنين من قومه، في توضيح النظرة الإسلامية إلى الدنيا والآخرة وإلى موقف الإنسان من المال، وطريقة استثماره وإنفاقه واستخدامه في أهداف الحياة، لنخرج من ذلك إلى تأكيد خطة التوازن التي يرسمها الإسلام للإنسان، في ما يأخذ وفي ما يدعْ بعيداً عن أي انحراف أو إغراق أو تطرّف.

فليست الآخرة، عالماً غريباً منفصلاً عن الدنيا، وليست الدنيا حياةً مباينة للآخرة بل هي ـ في الإسلام ـ تمثّل هدف الحياة الدنيا في كل نشاطاتها وحركاتها. فلا بدّ للمؤمن من اعتبار الآخرة هَدَفاً ينظر إليه ويحسب حسابه في كل عمله.

ولكن ما السبيل إلى الآخرة التي نقصدها في عملنا في الدنيا؟ هل السبيل إليها هو الزهد السلبي الذي يتمثل بالرفض الساذج للذاتها وشهواتها، والابتعاد عن أشواقها وأفراحها ورغباتها، ليموت الإنسان قبل أن يموت، وليهرب منها قبل أوان الهرب.

ليست الآخرة كذلك، فهي تدعو الإنسان إلى أن يأخذ بنصيبه من الدنيا فلا ينساه ولا يغفله، لأن ذلك هو شرط استمراره في الحياة والقيام برسالتها العمليّة، ما دام الإنسان جسداً يحتاج إلى الغذاء، وروحاً تبحث عن النوافذ التي تتنفس فيها وتستنشق عبير الحياة وشوقها الكبير. فإذا أهملنا غرائز الإنسان وشهواته فخنقناها، وأغلقنا نوافذ الحياة الكبيرة الممتدة فلم يعد هناك مجال لتنفس الروح؛ مات الإنسان وتجمّد واختنقت حياته، فلم تستطع أن تمتد، وإن بقيت أنفاسها تتردد في الفضاء الواسع.

إن للجسد أن يمتد في رغباته ولذاته حتى الاكتفاء فلا يشعر معه بجوع ولا عطش، وللروح أن تطوف في أشواقها وأحلامها، ولكن شرط أن لا تبتعد عن الدار الآخرة.

إن النجاح في الدار الآخرة، هي في تبني كل قيم الحياة العملية التي أراد الله من الناس أن يتمثلوها في وعيهم وسلوكهم وعلاقاتهم العامة والخاصة، لتكون الحياة الدنيا فرصةً طيبةً للسلام والخير والمحبة والعدالة والإيمان.

إنها طريقة المؤمن في ممارسة الحياة، من خلال الهدف الكبير الذي يلتقي بالله في رحمته ولطفه وحكمته ونظامه، وعلى ضوء هذا تتحدَّد علاقة الإنسان بما يملكه من مال. فإن من حقه أن ينتفع بماله في إشباع رغباته وحاجاته بدون إسراف ولا انحراف، لأن ذلك هو نصيبه من الدنيا، وليس من حقه أن يبذره كما يشاء، أو يستغله في قضايا الشرّ وخطط الإجرام، أو يصرفه في غير حقّه، أو يمنعه عن حقّه، أويوجهه في دروب الأنانية والعدوان، أوغير ذلك مما لا يلتقي مع شريعة الله ورسالاته؛ لأن ذلك ليس سبيل الدار الآخرة.

فهناك خطة واحدة تطبع ذلك كله بطابع الواقعية والاعتدال؛ وهي الإحسان إلى الناس ـ بماله ـ كما أحسن الله إليه، من موقع المسؤولية التي ترى في ذلك تعويضاً لهذا عن ذاك؛ لا من موقع الاستعلاء والتفضّل، الابتعاد عن استغلال المال في إفساد الواقع الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، كما يفعله الرأسماليون والإقطاعيون والمنحرفون الذين يملأ نفوسهم الطمع والجشع والكفر. فإن الله لا يحب المفسدين.

٣ ـ أسلوب المؤمنين مع البسطاء المسحورين بالثراء

أن ندقّق في أسلوب المؤمنين في التعامل مع البسطاء الضعفاء المسحورين بثراء قارون، الخاضعين لسلطانه وطغيانه في التذكير بثواب الله، وإنه خيرٌ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات من كل شيء، لأنه الباقي الذي يلتقيه الإنسان في الدنيا والآخرة. ثم في الاستفادة العملية من النهايات السيئة لأمثال هؤلاء، لا سيّما ما يوحي منها بالعقوبة الإلهية. فقد نحتاج إلى استخدام هذا الأسلوب الذكي واللّبِق، في إثارة الإيمان الراقد في الأعماق جراء حالة الغفلة والذهول، والاستسلام للظواهر الخادعة في الحياة؛ ليكون هذا الأسلوب بمثابة الصدمة التي تهز الداخل، فتترك الإنسان في حالة استغراق وتأمل ذاتيين، ينفتح بهما على الحقيقة الحاسمة، تماماً كما انفتح هؤلاء المخدوعون على الواقع المرعب الذي انتهى إليه قارون، عندما أراد الله أن ينزل به عذابه فلم يكن له من فئة ينصرونه من دون الله، ولم يكن يملك الانتصار بنفسه، ولم ينفعه ماله في دفع الضررعنه. وهكذا قادهم التأمّل العميق، للمشهد المرعِب، للرجوع إلى الإيمان بالله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على أساس الحكمة والعدل، وبدت التمنيات التي تمنوها في أن يكونوا مثله رعباً يهز وعيهم ويخيفهم، فلو كانوا مثله، لكانت نهايتهم كنهايته ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (القصص: ٨٢).

صاحب الجنّتين

وينطلق القرآن في هذا الاتجاه الذي يرفض اعتبار الثروة المالية، قيمةً حياتية كبيرة، بعيداً عن الإيمان ومسؤوليته، فيصوّر لنا رجلين؛ يملك أحدهما الثروة والجاه والولد، بينما لا يملك الآخر ما يملكه صاحبه شيئاً، ولكنه يملك الإيمان بالله والإحساس بعظَمته وبفضله على الإنسان في كل شيء، مما يجعله يحسّ بنعم الله عليه في كل مظهر من مظاهر وجوده، ويعرف إلى جانب ذلك قيمة الحياة ودورها في مسؤولية الإنسان، فلا يستسلم لنعيمها ولا يضعف أمام شقائها، لأنه يعلم أن ذلك كله بيد الله الذي اقتضت حكمته أن يزول كله، فلا يبقى للإنسان منه إلا النتائج العملية لما قام به من دور في الحياة.

وبهذا يتجسَّد لنا الفارق الكبير بين العقليتين والاتجاهين في فهم الحياة من خلال الحوار الذي أداره القرآن الكريم بين الرجلين، لنستوحي منه الفكرة التي تحكم الموقف في حساب القيم والمعاني الكبيرة في الإسلام.

إنها الصورة الرائعة التي يجسِّدها لنا القرآن الكريم في أسلوبه الرائع.

قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا

زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

(الكهف: ٣٢ ـ ٤٤).

فنحن نرى ـ في الصورة ـ أن صاحب الجنَّتين قد بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الإحساس بالقوّة والفوقية والامتياز بسبب ما يملك من مال وأتباع كثر، فكان خطابه محاولة لإخضاعه نفسياً بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما، وتميّزه عنه.

ثم نلاحظ استسلامه لحالة الرخاء والنعيم اللذين يتمتّع بهما، واعتقاده استمرار ذلك كله في شعورٍ طارىء بالخلود، وثقةٍ كبيرة لمستقبله في الدنيا والآخرة ـ لو كان كان تفكيره يوحي بوجود آخرة ـ لإحساسه بضخامة شخصيته، ولأن حالته المالية والاجتماعية تفرض علّو شأنه ورفعة منزلته وكرامته لدى الله، ولهذا، فإنه مطمئن إلى ذلك كله. أمّا صاحبه المؤمن الفقير، فتتجسّد لنا صورته الوديعة القوية في موقف الساخر بذلك كله. فهو لا يعتبر الثراء قيمة كبيرة ترتفع بصاحبها في ميزان القيم، ولا يرى فيه ضمانة قوية للمستقبل، تبعث على الاطمئنان به والاستسلام له، لأن كل شيء في الدنيا معرّض للزوال بين لحظة وأخرى. بل الثقة بالله والقوّة به، هي مصدر القوّة في الوجود ومعطياته، وهو أساس الثقة بالمستقبل، كما كان أساس الثقة بالماضي.

وتراه يقف ـ في حواره مع صاحبه ـ في موقع الإنسان الرسالي الذي يستنكر على هذا الغني المزهوّ بغناه، كفره باليوم الآخر ونسيانه لله. ويبدأ بتذكيره بنعم الله عليه وحاجته إليه في كل شيء، ليبقى مشدوداً إليه في حال الإحساس بالقوة، كما يشعر بالارتباط به في حال الإحساس بالضعف، لأن القوّة بِه، يهبها لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء.

أمّا كثرة المال وكثرة الولد، لديه التي تقابلها قلة المال وقلة الولد لدى هذا المؤمن، فليست شيئاً، ما دام الله هو الذي يعطي، وما دام المؤمن يشعر بالارتباط به. فما المانع من أن يعطيه الله خيراً من جنته، وما الذي يمنح الغني الأمان، بأن لا يرسل الله على هذا كله حسباناً من السماء فتصبح الأرض مقفرةً بعد اخضرار أو ظمأى بعد ارتواء.

وتكتمل الصورة، بالمشهد الأخير في القصة، فنشاهد أمامنا هذا الإنسان، وقد أحيط ثمره، يقلّب كفيه على ما أنفق فيها من ثروته، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

ويتجسد ـ في نهاية المطاف ـ الدرس الرائع حيث نجد الإنسان الطاغي المتجبِّر المزهوّ بذاته وبثرائه، عارياً من كل شيء أمام الحقيقة الكبيرة التي تملأ الكون كله. فلا نرى هناك إلا الله الذي يمنح ويأخذ، ويعطي ويمنع. فله الولاية الحق على كل شيء.

ولهذا، فإن الايمان به واللجوء إليه والاستسلام لأوامره ونواهيه، هو الخط الصحيح الذي يحقق الثواب الأفضل والعاقبة الفُضلى.

الأسلوب التربوي في القصة

ويبقى لنا الأسلوب التربوي الذي يحوّل المَثل إلى قصة للصغار وللكبار، ويحوّل القصة إلى صورة حيّة معبّرة في اللوحة الفنية وفي العمل المسرحي الرائع، ليشترك

المثل والقصة والصورة والمسرحية في توجيه الإنسان إلى الحقيقة الكونية الخالدة التي لا يبقى فيها إلا وجه الله.

ولا يقتصر الأمر على السير في أحداث القصة، بل تمتد التجربة الإسلامية إلى استحداث أمثلة جديدة وحوار جديد، يتسّع للفكرة في أكثر من جانب من جوانب الفقر والغنى مقارَناً بالإيمان والكفر، كأسلوب من أساليب تزاوج الإيمان مع الحياة في حركته الصاعدة أبداً نحو القمة، والممتدة أبداً في رحاب الله.

الضعفاء والمستكبرون

لقد كان من أهداف الإسلام في القرآن الكريم تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لتأثير القوّة الظاهرة التي يمتلكها المترفو ن والمستكبرون، كسبيل من سُبل تحريره من الاستسلام لأفكار هؤلاء ونزواتهم ومخططاتهم، التي لا تسير في اتجاه الخير غالباً بل تسير باتجاه الشر دائماً. وذلك من أجل أن يبقى الإنسان مستقل الإرادة وسيداً لنفسه، كي يمارس مسؤوليته في المجتمع انطلاقاً من قناعاته الذاتية بما يعمل. فلا يستسلم لفكرة أنه محكوم للغير في تفكيره وحياته، وأن غيره مسؤولاً عنه، وهو مجرّد آلة مسخّرةٍ تتحرك بإرادة الآخرين وتقف بإرادتهم أيضاً.

كلٌ مسؤول عن نفسه

وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك في أكثر من آية تقرر الخط العام للقضية حيناً، وتواجه الإنسان بحقيقة كونه، في نهاية المطاف، سيقف وجهاً لوجهٍ أمام نتائج المسؤولية، وحده، وسينسحب الآخرون من تحمّل مسؤولية عمله، لمواجهة مسؤولية أنفسهم حيناً آخر.

أما الجانب الأوّل الذي يقرر الخط العام، فيتمثل في الآيات التي تجعل للإنسان ثمرة سعيه، وترفع عنه وزر غيره:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: ٣٦ ـ ٤١).

وفي آية أخرى:

﴿ . . . وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . . . ﴾ (الأنعام: ١٦٤). ص٣٥٣

وفي آية ثالثة:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨).

وتتوضح الفكرة تماماً، في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٢). ص٣٥٣

وأما الجانب الثاني، فيتمثل في ما يقصّه علينا من حوار، يحدث يوم القيامة بين الضعفاء من جهة والمستكبرين من جهة أخرى، عندما يواجهوا جميعاً عقاب ما عملوا وما أسلفوا من خطايا وذنوب وجرائم، جسدت التمرد على الله وعلى رسله وشرائعه.

ويتنوع هذا الحوار بتنوع أجواء العلاقات السائدة بينهم، ونجد في الآيات القرآنية أكثر من نموذج يوضح الفكرة بأسلوب رائع.

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم: ٢١).

إن الآية تؤكد لنا كيف أن الجميع واجهوا نتائج المسؤولية في عذاب الله، وان اختلفت نوعية العذاب الذي طالهم، وتصوِّر لنا موقف مَنْ أخضعوا إرادتهم لإرادة الآخرين ونزواتهم، في وقت كانوا يستطيعون فيه تحرير أنفسهم وإرادتهم منهم، ولكنهم خضعوا واستكانوا لمظاهر القوّة ومطامع المال التي يملكها أولئك، فساروا خلفهم دون وعي أو شعور.

إنهم ـ الآن ـ يستيقظون على ما وصلوا إليه من واقع، فيحاولون التخلّص من بعض قسوته، ويتوجهون إلى مَنْ كانوا يتبعونهم في كل شيء، ليطالبوهم بتحمل تبعاتهم في الآخرة، كما تحملوا ـ هم ـ تبعاتهم في الدنيا، على غرار ما كان عليه الحال في الدنيا، حيث كان الرئيس يؤمِّن لأتباعه الحماية مقابل ما يقدمونه له من أعمال خضوع وولاء.

وينطلق سؤالهم بلهجة متوسلة يائسة، تحمل الكثير من خيبة الأمل وعدم الثقة بالنتيجة، كما توحي هذه الكلمة ـ السؤال:

﴿. . . فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ (إبراهيم: ٢١).

وتجسد الصورة القرآنية، الموقف الهروبي لأولئك المستكبرين، باعتبار الموقف يائساً للطرفين. فهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فكيف يملكون لهم الحماية؟ فليس في الموقف متسع للحساب، وليس هناك مجال للهروب، بل هو الاستسلام اليائس للمصير الذي تعبِّر عنه هذه الكلمة القرآنية أبلغ تعبير: ﴿. . . سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١).

وقد نفهم من الجواب هروباً من طبيعة المسؤولية، فهم لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن ضلالهم، لأن الهداية من الله فإذا لم يوفر الله لهم الهداية، فكيف يمكنهم أن يحققوا هم أنفسهم الهداية لغيرهم﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾(إبراهيم: ٢١) وهذا غاية اليأس في الموقف.

وهكذا يريد الله أن يجسّد للمستضعفين في الدنيا، مواقف الندم واليأس في الآخرة، ليواجهوا واقعهم الحالي، مواجهة الإنسان الذي يشعر بأنه يواجه نتائج مسؤوليته وحده، ولذا فإن عليه أن يبدأ الحساب على هذا الأساس.

لا سلطة للشيطان

ومن الطريف - في هذا الحوار - أن الشيطان يتدخل كطرف ثالث، ليبرىء نفسه من مسؤولية ضلال كلا الطرفين - التابعين والمتبوعين - ويؤكد الفكرة الدينية في الدنيا في كون إرادة الإنسان حرة، ولا وجود لقوّة قاهرة تشلّها بدون اختيار صاحبها.

وهذا هو الذي صوره القرآن الكريم في الآية الكريمة:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

فليس هناك سلطة في الإضلال حتى للشيطان، بل كل دوره هو أن يوسوس ويثير ويدعو الإنسان إلى الاستجابة له. وتلك هي مهمته الأساسية. ويبقى للإنسان - بعد ذلك - دوره في التفكير والمقارنة بين دعوة الله وبين دعوة الشيطان، فإذا سار مع دعوة الله فباختياره، وإذا انطلق في طريق الشيطان فبإرادته أيضاً. فلماذا يلقون اللوم على الشيطان، ولا يلقون اللوم على أنفسهم، في الوقت الذي لم يكن منه إلا إثارة الشهوة وتزيينها، بينما كان منهم الإرادة والتصميم والعمل؟

.. وتأخذ الفكرة مجالها الطبيعي في الكلمة الأخيرة للشيطان، التي يقرر فيها حمل الإنسان لمسؤولية إرادته، في مقابل حمل الشيطان لمسؤولية وسوسته وإضلاله، دون أن يستطيع أيّ منهما تخليص الآخر.

ويبرز ـ في خاتمة المطاف ـ العنصر المثير الذي يجعل الشيطان يكفر بإشراكهم إيّاه بالله، ليبقى الإنسان المنحرف المتمرد على الله، وحده، دون ناصر أو معين.

خيبة الأمل

ونلتقي ببعض الآيات الكريمة التي تنقل لنا حواراً ـ من نوع آخر بين المستضعفين والمستكبرين، يوم القيامة. فنلاحظ أن الأسلوب الذي يتبعه المستكبرون ضد المستضعفين لا يخلو من الضعف والشدّة، فهم لا يكتفون بالتخلي عن المسؤولية تجاههم، بل يعملون على تفسير اتِّباع المستضعفين لهم بالطغيان الداخلي، الذي يسيطر عليهم ويوجه خطواتهم نحو الضلال والإجرام. تماماً كالإنسان الذي يحمل روح الشرّ في داخله، حتى إذا رأى الأجواء المحيطة به مشجعة سار معها، بإرادته واختياره، دون أن يكون لأي إنسان دخلٌ في ذلك.

وهذا ما نتمثله في الآيات الكريمة:

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: ٣١ ـ ٣٣).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الصافات: ٢٧ ـ ٣٣). ص٣٥٦

إنهم يتهربون من مسؤولية إضلالهم ويحمّلونها لهم، لتأصل نزعة الإجرام والطغيان في داخلهم، فهم لم يتقبلوا الهدى الذي جاءهم، لرفضهم إياه ذاتياً، لا تحت تأثير المستكبرين، فلا حق في هذه المطالبة من قريب أو من بعيد.

أمّا المستضعفون، فلا يملكون إلا أن يردوا عليهم رداً ضعيفاً مملوء بخيبة الأمل وحسرة الندم.

... إنه مكركم بالليل خططاً وأساليب، تستغلون بواسطتها نقاط الضعف في المال والمركز والحياة، لتنفذوا إلى ما تريدون من فرض أفكاركم، قناعات نتبنّاها بلا وعي وبلا شعور.

وتختم الآيات الحوار بالموقف النادم الخائب، أمام العذاب والأغلال، ليركّز الفكرة من جديد، وهو أن (الجزاء بالأعمال) انطلاقاً من موقع المسؤولية التي يعيشها الإنسان ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

دروس الحاضر

أما دروس الحاضر من هذه النماذج البشرية التي تصوّرها لنا الآيات المتقدّمة، فتتلخص في عدة نقاط:

١ ـ حرية العقيدة أمام حرية الإرادة

إن هذه الآيات الكريمة توحي لنا، أن للإنسان حرية مطلقة في ما يرى ويعتقد، وفي ما يأخذ وفي ما يدع. فقد خلقه الله حرّ التفكير والإرادة ، لتتحول الحرية في حياته إلى عقيدة وإيمان وتصميم وعمل. فليس له أن يتنازل عن حريته للآخرين، بحجة ضغطهم عليه، لأنّ القضية قضية تتعلق بالاستعداد الداخلي للخضوع، والانسحاق أمام إرادة الآخرين وتخطيطهم. وهذا ما لا يملك الآخرون أن يخلقوه بالضغط، بل كل ما يملكونه هو الإغراء والتزيين والتغرير والتخويف... الذي يضعف الإرادة ويوهن القوّة ويستعمر الفكر، وهي ضغوط يمكن للإنسان أن يواجهها ويثبت أمامها بما يحمله من فكر يواجه

فيه فكر الآخرين، أو بما يملكه من إرادة يقاوم بها ضغط إراداتهم، أو بما رزقه الله من عقل وما أوحى به إليه من رسالات ـ عبر أنبيائه ـ . فإذا أغفل فكره، وأهمل إرادته، وجمدّ عقله ونسي رسالته، واستسلم لشهواته ورغباته ونقاط ضعفه، وأسلم نفسه للطغاة والمستبدين والمنحرفين؛ استحق أن يواجه نتائج ذلك أمام الله.

أما الضغط الخارجي والإكراه العملي الذي لا تتجاوب معه النفس، ولا يرتاح له القلب، فلا شأن له بالمسؤولية، لأن الإنسان في هذه الحال لا يملك إرادة العمل وإن كان يملك إرادة الرفض الداخلي شعوراً منه بإنسانيته واستقلاليتها، فسرّ الحرية في الإسلام، أن يملك الإنسان الخيار في أن يريد، أو لا يريد، ولا مانع بعد ذلك من وقوف الحواجز والعقبات بينه وبين تنفيذ ما يريده، أو أن تضغط عليه للقيام بما لا يريده.

٢ ـ صورة المستكبرين من الداخل

إن الصورة القرآنية التي يعرضها القرآن للمستكبرين، ليست مجرد صورة «أخرويّة» تحدد ملامحهم في الآخرة، لجهة الجو المرعب الذي يلاقونه هناك، في مواجهة المسؤولية بشكل صاعق، بل هي صورة حيّة للذات، كما هي في نظرتها إلى الآخرين ممن يخضعون لرغباتها ويستجيبون لأفكارها وينسجمون مع مخططاتها، في إحساسٍ عميق بالسيادة المستعلية التي ينظر فيها السادة إلى العبيد، نظرة خالية من الاحترام ولا يعتبرون مسؤوليتهم الجزائية والجنائية والأدبية، عن أعمال أولئك الأتباع باعتبارها صدى لأعمالهم، وعن نشاطاتهم وتحركاتهم باعتبارها امتداداً حياً لنشاطاتهم وتحركاتهم، فذلك التخلي يخلصهم مما قد يكلّفهم به ارتباطهم بهم من تضحيات ويعرضهم للأخطار.

إن القرآن الكريم يريد أن يرسم الصورة كما هي في الدنيا، لأن الآخرة هي مرآة الإنسان في الدنيا، فلا يحشر الإنسان بخلْق جديد ولا بفكر جديد؛ بل يحشر الإنسان على الصورة التي كان عليها، ليقف بين يدي الله سبحانه، حاملاً صورته الحقيقية بكل

ما تحويه من دوافع ونيّات وأفكار، ليحاسب على أعماله من خلال واقع حياته الذي كان وذلك هو قوله تعالى:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ (الإسراء: ٧٢).

وإذا كانت هذه صورتهم في الدنيا، فكيف يمكن للإنسان أن يأمن لهم في الدنيا والآخرة أو يستسلم لحمايتهم، ما داموا يحملون مثل هذه النوايا والأفكار التي تدفعهم إلى الهروب من المسؤولية عند التعرض إلى أية إشارة للخطر في المواقف الطارئة؟

٣ ـ أسلوبنا العملي أمام القصة

التأكيد على هذين الجانبين في أسلوبنا العملي، لحركة الصراع الفكري والاجتماعي، الذي نواجه فيه مطامع الطبقات المستكبرة المتجبرة المستغِلّة، التي تستضعف الطبقات الفقيرة البسيطة، وتستغلّها في مخططات الكفر والضلال والعدوان، حيث تجعل منها جيشاً يحارب الحق باسم الحق، ويحطم العدالة تحت شعار العدالة، ثم تهرب من كل المسؤوليات التي تترتب عليها. ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦).

أما أسلوب هذا التأكيد الذي ألمحنا إليه، فيتمثل في إثارة الشعور بالحرية، والشعور بالمسؤولية الفردية، ثم في استقراء المواقف الواقعية التي تعري مشاعر المستكبرين تجاه المستضعفين، وتوضح الصورة الكاملة لموضوع تبعيتهم لأولئك المستكبرين، كي يتراجعوا ولو قليلاً عن تلك التبعية للتفكير والتأمّل في ما ينتظرهم من مستقبل أو من عقاب. ولعل هذا ما دفع القرآن إلى استعجال الحديث عن أحداث يوم القيامة ومخاطبة الناس بها في الدنيا، ليأخذوا من مشاهد القيامة، دروس قيامة الدنيا، قبل قيامة الآخرة، لأن هذه مستمدة من تلك وراجعة إليها. وليستفيدوا من أسلوب تلك النماذج البشرية في مواجهة مسؤوليتها عنهم في الآخرة، وكيف تواجه تلك المسؤوليات في الدنيا إذا ما تعرضوا للخطر؟

ونحسب أن تبني الفئات الفقيرة الكادحة في حركة الدعوة، وتزويد عناصرها بالوعي السياسي والاجتماعي والروحي، من خلال معالجة قضايا الواقع المعاش وضخ فيها روح الإيمان، سوف يجعل للعمل الإسلامي قاعدة كبيرة ممتدة في حياة الناس، كأية حركة تأخذ في نطاق العمل دور التوعية الواقعية، وتستخدمها في تطوير الحياة المستقبلية للإنسان من أجل بناء نظام أفضل.

أهل النار في حوارهم وتخاصمهم

أ ـ أولاهم وأخراهم:

ونلتقي بموقف آخر، في هذا الإطار يتحمل الإنسان فيه مسؤولية ما يقوم به من عمل، وما يتخذه من موقف، من دون ضغوط نفسية أو خارجية، يتوخى أن ترفع المسؤولية عنه، ما دام عنصر الاختيار متوفراً بتوافر إمكانية ممارسته، بالتفكير بالموقف في بداياته ونهاياته وجذوره وأعماقه.

أما النماذج التي قدمها القرآن لنا ـ في الآيات الآتية ـ فهي الجماعات التي تُقلِّد بعضها بعضاً، أو يتأثر بعضها بالبعض الآخر، دون وجود عنصر الضعف والقوّة ـ كما هي الحال في حوار المستضعفين والمستكبرين لوجود عناصر تشترك فيها هذه الجماعات من قرب المواقع الجغرافية، أو وحدة اللغة، أو تشابك المصالح الاقتصادية، أو في التقدم والتأخر الزمني الذي يتأثر فيه اللاحقون بالسابقين، لشعور بقداسة الماضي وبعصمة الماضين عن الخطأ في أغلب الحالات.

أما صورة الموقف ـ الحوار فتعرضها لنا الآيات الكريمة التالية:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا

وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩).

إن هذه الآيات الكريمة تقدم لنا الموقف في مشهدين:

المشهد الأول: الكافرون ورسل الله الذين جاؤوا بمهمة إماتتهم، فوجهوا إليهم سؤالاً ـ قبل القيام بمهمتهم ـ في صيغة، هي أقرب إلى التبكيت والتوبيخ منها إلى الاستفهام: أين هؤلاء الذين كنتم تدعونهم آلهة من دون الله؟ فليأتوا إليكم في هذا الموقف الحرج الذي يتحدى أصل وجودكم واغتراركم به، ليخلصوكم إذا كانوا يملكون بعض قوّة الألوهية أو سلطتها . ..

ويحمل الجواب مشاعر الخيبة القاتلة، التي تجسّد الضياع بكل معانيه. لقد ضلوا عنا وابتعدوا وضاعوا فلا أثر لهم، فأصبح حالنا كمن يمسك الريح، عندما يفتح يده لا يرى شيئاً. وانكشفت الحقيقة، فلا مجال للنجاة ولا مجال للإنكار، وشهدوا على أنفسهم بالكفر بالله، ووقفوا ليواجهوا نتائج ذلك كله. وينتهي هذا الحوار، ويسدل الستار، ونعرف من خلال الجو أن المهمة قد انتهت وانتقلوا إلى الدار الآخرة.

المشهد الثاني: صوت ينطلق من الله، ليواجه الأمر الحاسم بإدخال هؤلاء الكافرين في النار مع كل الأمم التي سبقتهم من الجن والإنس، ويدخل هؤلاء إلى النار، فنسمع ـ في قلب هذا المشهد ـ اللعنات تتتالى وتتصاعد وتتشابك. فكل أمّة تلعن أختها التي سبقتها ـ اللعنات هي تحيات الداخلين من جديد للسابقين إلى النار ـ ولكنها تحيات الغضب والغيظ والمرارة التي تجيش في الصدور التي وحّد الكفر أفكارها، ولم يستطع أن يوحِّد مشاعرها، ولا أن يربط بينها برابطة التعاطف والتكاتف والاستسلام للمصير المشترك.

إنها وقفات الغيظ المتفجر، نقمة وسخطاً ولعنة على من تعتبرهم مسؤولين ـ حقاً أو باطلاً ـ عن هذا المصير، لتخفيف وقع الصدمة على النفس بإسقاط المسؤولية على الآخرين.

وهنا ينفتح نوع من الحوار بينهم، لا يخاطبون فيه بعضهم بعضاً وجهاً لوجه، بل تتوجه الجماعة الأخيرة ـ أمام الجماعة الأولى ـ بالدعاء إلى الله في أن يضاعف عذابه لأولاهم، لأنهم أساس الضلال. فكأنهم يريدون إفهامهم هذه القضية بهذا الأسلوب، ليختصروا الحوارين في حوار واحد.

وينطلق عن الله صوت جديد، ليقول لهم: إن لكل منكم ضعفاً من العذاب. أما أولاكم فإنهم ضلوا الطريق وأعانوكم على الضلال، وأما أنتم فإنكم ضللتم، وأعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم وإجابة دعوة الرؤساء منهم، وتكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم[1] .. ولكن لا تعلمون، لأنكم لا تعرفون طبيعة العذاب لتعرفوا كيف يكون العذاب ضعفاً. وتجيب الجماعة الأولى، بأسلوب يقرب إلى التهكم والتشفي: فما لكم علينا من فضل. إننا وأنتم سواء في المسؤولية وفي نتائجها جزاء ما كسبناه من انحراف وإجرام.

ويُسدل الستار على القصة، ليبدأ فصل جديد، يأخذ فيه الإنسان الدرس للمستقبل العملي في حياته، لئلا يواجه في يوم القيامة ما واجهه هؤلاء من الذل والخزي والعذاب.

المعطيات العملية للقصة

ونستوحي من هذا الموقف، الذي يستبق فيه الله موعد حدوث النهاية، ليجنبنا تجربة الوقوع فيها دون وعي وانتباه، من خلال:

١ ـ رفض التبعيّة

التأكيد على ما ألمحنا إليه في فصل «الضعفاء والمستكبرون» من رفض التبعية في

(١) تفسير الميزان ـ للعلامة الطباطبائي ج ٨ ـ ص ١١٥.

العقيدة وفي الممارسة وفي الموقف، وضرورة الاستقلال الذاتي في تحصيل القناعة، بما تعتقده النفس وما تمارسه وما تتخذه من مواقف، لأن أيّ تبرير للتبعية في أيّ زاوية من زوايا العلاقات العامة والخاصة، لا يمنع من تحمُّل المسؤولية ومواجهة نتائجها في الدنيا والآخرة.

٢ ـ العقيدة المنحرفة لا تصنع الوحدة الروحية

إن الارتباط بين الأفراد والجماعات، على أساس العقيدة المنحرفة أو السلوك المنحرف، لا يصنع الوحدة الروحية أو الرابطة المصيرية بينهم التي تدفعهم إلى التضامن والمشاركة في نتائج المسؤولية دون تأفف أو تذمر، ولعل السبب في ذلك هو أنّ الانحراف لا يخضع للفكر، بل للمصلحة الذاتية وللعلاقات العاطفية غالباً؛ مما يدفع الإنسان إلى التخلي عن صاحبه عند أيّة إشارة خطره تهدده أو عند أي اصطدام بالمصير السيء. فتكون النتيجة الملاعنة والتسابق إلى التهرب من المسؤولية وإلقائها على الطرف الآخر.

٣ ـ تحليل الدعاة للمواقف العامة للناس

أن يعمل الدعاة إلى الله ـ سبحانه ـ على التوسع في تحليل مواقف التيارات الإلحادية أو الانحرافية، التي تدفع مجتمعاتنا المسلمة، لتقبلها بقوّة، بفعل ما تمثّله من قوّة سياسية وما تملكه من قوة اقتصادية أو قوّة عسكرية تقاتل من أجل فرضها؛ أو بفعل الإغراءات المادية والعاطفية أو القوة العددية أو غير ذلك من أسباب ودوافع تفسح المجال لكثير من الأفكار أن تفرض نفسها على الناس، بقطع النظر عما إذا كان التيار الفكري أو العملي الذي تمثله صالحاً أو فاسداً، فتلك أمور لا يبحث فيها الناس ـ عادةً ـ إلا بعد اتخاذ الموقف أو ممارسة العمل للحصول على حجة، أو شبه حجة، تُبرر الموقف، وتوحي للذات بكونه صائباً.

ولعلنا نشعر بقيمة هذا التحليل، عندما نتعرف إلى الواقع الذي يفرض المواقف الفكرية والعملية، من خلال الدوافع والمؤثرات بعيداً عن التأمل والتفكير، والحق

والباطل؛ فنبدأ بعد ذلك في رسم الخطة العملية التي تضع الناس وجهاً لوجه أمام دوافعهم ومبرراتهم الخافيه عنهم في زوايا «اللاوعي» و«اللاشعور» - كما يعبِّر علماء النفس - ثم يربط الموقف بقضية الحرية والكرامة والاستقلالية في الرأي، أو برواسب الإيمان العميقة، لاستثارة ذلك في حركة التفاف بارعة على فكر الإنسان ثم العمل على استباق المراحل، وقطع الطريق على تلك التيارات، وعدم إفساح المجال أمامها، للاستفادة من الأوضاع الشاذة في عمليات الإضلال؛ وذلك بخلق مناعة ذاتية في المجتمع ضد تلك الأوضاع.

وقد يفيدنا في هذا المجال، أن نثير أمام الناس ما يعيشونه، من ازدواجية فكرية وأخلاقية بين ما يعتقدون وما يقلدون، والتأكيد على الآثار السلبية المترتبة على ذلك، مما يجعل الإنسان في قلق أو حيرةٍ إزاء انقسام شخصيته وتوزعها بين دافعين، يجره أحدهما إلى الأمام، والآخر إلى الوراء. وقد نجد في هذه الآيات الكريمة بعض الدروس الرائعة التي تجعل من الموقف موضوعاً يرتبط بقضية المصير في الدنيا والآخرة، لتوحي للإنسان بالابتعاد عن المواقف السريعة، وعن السطحية والارتجالية والانفعال الذاتي، لأن الخضوع لمثل هذه المؤثرات قد يكون مقبولاً في الحالات الطارئة المحدودة، ولكنه لن يكون مقبولاً في قضايا المصير الذي يهدد وجود الإنسان في الدنيا والآخرة.

ب - حوار الله معهم

ونلتقي بأهل النار - في يوم القيامة - بموقف حوار حاسم مع الله، يلزمهم فيه بالحجّة التي ألزمهم بها في الدنيا في موضوع الإيمان والكفر، ويذكرهم بالمهلة التي أعطاهم إيَّاها في الدنيا، ليعملوا ويصحّحوا مواقفهم، فأصرّوا على العناد وتمرّدوا على الله وحاربوا أولياء الله وسخروا منهم، مما يجعل من فكرة مطالبتهم بالعودة إلى الدنيا، ليعملوا فيها من جديد، فكرةً مرفوضة أساساً، لأن الموقف سيتكرُّر والتمرّد سيعود.. لأنهم لم ينحرفوا بسبب الحجة المفقودة، بل لسبب تفضيلهم الضلال على الهدى والعاجلة على الآجلة؛ وغفلتهم عن الزمن وهو يمرّ مروراً سريعاً، حتى نراهم يفقدون

الإحساس به عندما يوجّه إليهم السؤال عنه. وبهذا يغلق الحوار، ويسود الصمت، لأنهم لا يملكون جواباً يستكملون الحوار به.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٥ ـ ١١٥).

إنهم كانوا يعيشون العبث، كأن الله خلق لهم الحياة فرصةً لممارسته في كل شيء. فليس لديهم مكان للحوار الهادئ الموضوعي، بل كل ما عندهم أن يسخروا بالقيم والمقدَّسات والمؤمنين الوادعين الصابرين، الذين يصبرون على الطاعة ويصبرون على المصيبة، ويسخرون بالذين سخروا منهم بكل هدوء ووداعة وإيمان، ففازوا حيث خسر الساخرون.

وكأنهم - اليوم - يريدون أن يعبثوا من جديد، مطالبين بحياة جديدة وفرصة جديدة. ولكن لا مجال لعبث جديد، كما تحدث القرآن عن ذلك في مكان آخر في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨).

وتلك هي العبرة في كل هذا الحديث الذي أداره الله معهم. إنهم لم يفهموا الحياة - كما خلقها الله وأرادها - فرصة للعمل الخيّر وتحقيق إرادة الله في الكون، في بناء نظام سليم متوازن، يعود الجميع بعدها إلى الله، لمواجهة نتائج المسؤولية، فيحاسبهم الله على

على ما عملوه من خير أو شرّ، ليجزي كلاً منهم جزاء عمله. ولذا فلا معنى للعبث الذي يتصور الحياة فرصةً شاردة لا تنتهي إلى شيء، بل تذوب كما تذوب الفقاقيع، وتتحل دون أن تترك وراءها أي شيء. وهذا ما يريدنا الله أن نتمثّله ونواجهه، لنصل فيه إلى الغاية المُثلى وهي تحويل حياتنا، في كل منطلقاتها ومعطياتها، إلى حركةٍ عملية دائبة، لإقامة نظام الحياة الذي يريد منّا إقامته، على الأسس السليمة لرسالات الله، التي جاهد من أجلها رُسُله. فلا مجال لأيٍّ عمل لا يحقق هدفاً، أو يساهم في تحقيق الهدف. ولا لأيّ تحرك لا يصل إلى نتيجة في هذا المجال، حتّى الأعمال المرحة التي تسترخي فيها النفس ويستمتع فيها المزاج؛ لا بدٌ لها من هدف، ويضعها في إطار تجديد القوة على السير في العمل بشكل جادّ مريح.

وقد يلفت نظرنا تركيز المحاسبة الإلهية في الآية - على سخريتهم بالمؤمنين - وامتداد هذه السخرية في حياتهم إلى درجة نسيانهم ذكر الله، واستسلامهم إلى هذه الأجواء دون أن يفكِّروا في ما وراءها من مسؤولية وحساب. فلم يفكِّروا بطبيعة الإيمان الذي يحمله هؤلاء المؤمنون، وماذا يهيئ للحياة من خير؛ بل كان كل همّهم أن يجعلوا منهم مادة للضحك وللتندر، بفعل مستواهم الاجتماعي المتواضع أو بسبب خروج ما يدعون إليه من عقيدة، وما يمارسونه من عمل، وما يتصفون به من خُلُق رسالي كريم عن المألوف وغرابته.

وتلفت الآية إلى أن المؤمنين واجهوا ذلك كله بالصبر والهدوء النفسي، الذي كان يجمّد كل انفعال ذاتي يتحفّز للتحرك، لأن المؤمن يرتفع عن استخدام هذا الأسلوب في سلوكه مع الآخرين، باعتبار أن رد الفعل المنفعل لا يؤدّي إلى أية نتيجة إيجابية تصب في مصلحة الدعوة، في قضية الصراع أو قضية الهدى؛ ولذلك يترك المؤمن الأمر إلى الله، فيصبر حيث يكون الصبر هو الأسلوب الأفضل. أما إذا كانت مصلحة الدعوة في الأسلوب الآخر، فقد يتحوّل الموقف إلى جوّ جديد وخطّة جديدة.

وتكتمل الصورة، لتدعو هؤلاء الكافرين الساخرين إلى المقارنة بين عاقبتهم في النار وبين عاقبة المؤمنين الصابرين، في هذا الفوز العظيم برضا الله وبالجنّة التي وعَد بها المؤمنين الصابرين.

وتبقى هذه الآيات دعوةً مستمرة خالدة للإنسان كي يثير تفكيره في أكثر من مجال ليصل إلى النتيجة الأفضل، وأن يترك أسلوب السخرية بأصحاب الرسالات وبأتباعهم، بل يواجههم بالحوار الذي يتجه للوصول إلى الحقيقة في الطريق المستقيم.

ج ـ الظالمون والمنافقون أمام المؤمنين

وتتنوع مشاهد الحوار في يوم القيامة. فهذا مشهد جديد لا يدور فيه الحوار وجهاً لوجه، بل ينطلق صوتٌ من هنا ليتحدَّث حول موضوع ما، ويخرج ـ من ناحية أخرى ـ صوتٌ آخر ليتحدَّث في نفس الجوّ بطريقة توحي أن الحديث يتجه للرد على ذلك الصوت بشكل غير مباشر.

ونلتقي ـ في هذا الأسلوب ـ قوله تعالى في حديث الظالمين والمؤمنين:

﴿.. وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (الشورى: ٤٤ ـ ٤٥).

الصوت الأول، هو صوت الظالمين ـ لأنفسهم أو لغيرهم ـ وقد وقفوا يتساءلون في مواجهة العذاب، هل من سبيل للرجوع إلى الدنيا، للقيام بعملية تصحيحية؟ ويزداد الجوّ ضغطاً، فها هم يعرضون على النار، كما تعرض الأكلة على الآكل، ولا يملكون شيئاً إلاّ نظرات الخشوع من الذلّ التي تتلصَّص بشكل خفيّ.

ويسمعون جواباً من الطرف الآخر، يقرِّر بشكل حاسم، إن الخسارة، ليست في الخسارة المادية أو المعنوية في الدنيا، ففي الدنيا إمكانية للتعويض عن ذلك في الآخرة، بل الخسارة الحقيقية الأبدية هي خسارة الإنسان نفسه وأهله في يوم القيامة، جراء ظلم النفس والتمرد والانحراف عن الخط الصحيح. فلا جدوى من المحاولة ولا فائدة.

وهناك مشهدٌ آخر، أكثر تفصيلاً وطرافةً من هذا المشهد. نجد فيه المنافقين في

جانب، والمؤمنين في جانب، وبينهما حوار خاطف تنقله لنا الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الحديد: ١٣ ـ ١٥).

ففي البداية، يطلب المنافقون والمنافقات من المؤمنين أن يسمحوا لهم بالاقتباس من نورهم، ليتخلّصوا من الظلام الذي يتخبّطون فيه. ولكنّ المؤمنين يجيبونهم بأنه لا نصيب لهم من هذا النور، الذي ينساب من ينابيع الإيمان الصافي المتدفّق، فليلتمسوا نوراً وراءهم ـ إذا كان هناك من نور ـ فذلك هو مكانهم الطبيعي الذي يلاقون فيه جزاء ما قدّمت أيديهم من عمل شرّير. وانتهى الحوار الخاطف الذي كان أقرب إلى الاستعطاف والتبكيت منه إلى السؤال والجواب، وضرب بينهم بسور له وجهان، وجهٌ يطلّ على الجنّة حيث الخير والرحمة، ووجهٌ يطلّ على النار حيث العذاب والنقمة. ثم يبدأ تساؤلٌ واستغراب عن السبب الذي فرّق بينهم، مع أنهم كانوا في مكان واحد في الدنيا، يتلاقون ويجتمعون؛ ويأتي الجواب ليضع الموقف في إطاره الحقيقي، فليس ما يحدّد هوية الأشخاص ويفرض وحدة المصير هو الإجماع في الدنيا، بل الاجتماع في العقيدة والعمل، والنظرة الشاملة للحياة التي تحكم خطوات الإنسان وتصرفاته. فإذا كانت العقيدة مختلفة بين خطّي الكفر والإيمان، وكان العمل مختلفاً بين خط الاستقامة وبين خط الانحراف، وكانت النظرة متباينة بين النظرة الضيّقة التي تعتبر الكون نهاية المطاف وبين النظرة الشاملة الواسعة التي تعتبر الحياة ممتدةً إلى ما بعد هذه الحياة، وكانت العبادة في خطّين متوازيين، بين خطّ يتّجه إلى الله، وبين خطّ يتّجه إلى الشيطان، فلا بد أن يختلف خط المصير، لينتهي بأحدهما إلى الجنّة وينتهي بالآخر إلى النار.

وعلى ضوء هذا يتحدَّدُ الجواب. فقد كنّا سويّةً في الحياة، ولكنكم دفعتم بأنفسكم في قلب الفتنة وتربَّصتم وارتبتم، فلم تنفتحوا على الحق واستسلمتم للأماني فغرَّتكم، وغرَّكم الشيطان فأبعدكم عن الله وأنساكم ذكره، مما جعل المصير الذي تواجهونه الآن، حيث لا تُقبل منكم فدية، كما لا تُقبل من الذين كفروا، لأنكم تلتقون في صعيد واحد. فليس أمامكم إلا النار هي مأواكم ومستقركم وبئس المصير.

وينتهي الحوار: ونقف ـ نحن ـ أمام هذه المشاهد والصور، لنتمثلها نماذج بشرية تتحرَّك وتعيش بيننا، لتواجه يوم القيامة مثل هذه المواقف.

وقد نشعر ـ في نهاية المطاف ـ بالحاجة إلى عرض هذه الآيات بكل ما تصوّره وتعطيه من معانٍ واسعة متحركة، وتوجيه النفوس إليها في عملية تأمّل واستيحاء، للوصول إلى الهدف الذي سعى إليه القرآن الكريم من نقل مشاهد القيامة، وهو إبعاد الناس عن السير مع هذه النماذج في اتجاه الضلال والانحراف، أو العمل على تغيير الخط الذي تسير عليه هذه النماذج البشرية إلى الهدى والاستقامة والإيمان.

وتلك هي مهمَّة العاملين في سبيل الله والداعين إليه.

ونلتقي، في هذا الجوّ، بآيات أخرى يدور فيها الحوار بين المؤمنين والمجرمين حول الأسباب التي أدَّت بهؤلاء إلى النار، نستوضح من خلالها، الملامح البارزة للمنحرفين عن طريق الله، من خلال سلوكهم العملي الذي يمثِّل جوّهم الداخلي فكرياً وروحياً، حيث يرون وجودهم فرصة لتأكيد الأنانية الذاتية في مجال اللهو والعبث بعيداً عن مواقع المسؤولية في الحياة، تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين. ثم يتدخل القرآن ليرجع بنا إلى الحياة، فيصوِّر لنا مواقفهم من دعوات الحق التي حاولت تذكيرهم بالله وبرسالاته.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ

نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (المدثر: ٣٨ ـ ٥٣).

فنلاحظ أن البداية انطلقت من تجسيد طبيعة المسؤولية، في صورة حيَّة نتمثَّل فيها كل نفس من هذه النفوس المزدحمة في المحشر يوم القيامة، وقد ارتهنت بما عملته من خير أو شرّ في الدنيا، فتواجه مصيرها من خلال ذلك. فإن كان ما عملته خيراً، كان سبيلها الحرية والنجاة. وإن كان ما عملته شرّاً، كان نصيبها البقاء في العقاب حتى تدركها رحمة الله ـ إن كان هناك مجال للرحمة ـ وأستثني من ذلك أصحاب اليمين، الذين عاشوا الحرّية في الدنيا أمام شهواتهم ولذائذهم، عندما عاشوا العبودية لله كما يجب أن تكون العبودية، وبذلك أصبح من حقهم أخذ الدور المميَّز في التساؤل عن واقع الآخرين، في أسلوب توبيخي يضع الآخرين وجهاً لوجه أمام حقائق أنفسهم المجرمة.

الأسس العامة للانحراف

ويجيب الآخرون، الذين عبَّر عنهم القرآن بالمجرمين، ملخصين الموقف في أربعة عناصر تمثِّل الأسس العامة للانحراف الفكري والعملي.

١ ـ ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾. إنهم يعبِّرون عن ابتعادهم عن الله بالعقيدة وبالفكر، بإهمالهم للصلاة، لما تمثّله الصلاة من لقاء المؤمن بالله وشعوره بحضوره الحيّ في وجدانه وضميره وحياته، الأمر الذي يدفعه إلى الإحساس بمسؤولية هذا اللقاء وهذا الحضور، وتحويله إلى واقع عملي منضبط بأوامر الله ونواهيه.

٢ ـ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾. وهذا هو العنصر الثاني للانحراف في حياة غير المؤمنين، فهم عندما يعيشون الحياة بعيداً عن خط الإيمان بالله، لا يتحسسون المسؤولية

تجاه مَنْ لا يملكون أسباب العيش الكريم، لظروفهم المعيشيه الضيّقة والخانقة التي تجعلهم في حاجة إلى المساعدة، بل ينطلقون في جوّ خانق يسجنون فيه آفاقهم داخل ذواتهم، فلا يفكِّرون إلا بها ولا يتفاعلون إلا مع آلامها. أمَّا الآخرون، فلا يجدون أيّ ضرورة للتفكير بأمورهم فضلاً عن المشاركة في مشاكلهم وآلامهم.

إنه الفرق بين الإنسان الذي يشعر بأن طاقاته الفكرية والمالية والجسدية تعادل حجم المسؤولية التي يتحملُّها، تجاه مَنْ يحتاج إلى مساعدته، وبين مَنْ يشعر بأن تلك الطاقات تمثِّل امتيازاً، شخصياً يرفعه عن الآخرين ويدفعه إلى الشعور بالعلوّ عليهم.

٣ ـ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ . . فهم يعيشون ليخوضوا في الباطل مع الناس، فلا قيمة للكلمة في حساب المسؤولية، ولا مانع لديهم من أن تتحركُ لتدمّر أو لتفرّق بين الناس أو لتضر الأفراد والجماعات، لأنهم لا يعيشون أجواء الرسالة التي تحدِّد خط الإنسان العملي في الحياة في كلماته وأفعاله، على أساس الإحساس بالمسؤولية في داخله، بل يعيشون الحياة للَّهو والعبث لإرضاء النوازع الشخصية المائعة.

٤ ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .. والتكذيب هو أساس انحرافهم، في كل مجالاتهم العامة والخاصة، لأن الذين لا يؤمنون بيوم الدين ويشعرون بأن الحياة الدنيا هي الفرصة الأخيرة للإنسان، لا يجدون أيّ دافع يدفعهم للانضباط وإلى الاستقامة لتجسيد القيم الكبيرة في الحياة، لعدم إيمانهم بالحساب وعدم شعورهم تالياً بالمسؤولية.

وهكذا كانوا يعيشون الحياة هروباً من المسؤولية، من خلال الهروب من الله ورسالاته، حتى أتاهم الموت فعرفوا صورته الحسيّة التي حاولوا أن ينكروها في الدنيا. ولكن هذه المعرفة جاءت متأخِّرة، لا نفع يرتجى منها ولا أمل لهم من شفيع يجدوه لإنقاذهم.

ويختم القرآن الحوار بالعودة إلى الأسباب التي أدَّت إلى هذه الانحرافات العملية، فيلخصها بالإعراض عن التذكرة، فقد كانوا يصرّون على موقف اللامبالاة أمام آيات

الله ورسالاته؛ وكانوا يهربون من الرسل تماماً كما تهرب الحمير أمام الأسد إذا شدَّ عليهم، وكانوا يطلبون منهم أن يقدّموا لهم صحفاً منشَّرة... ويستدرك القرآن ليبيِّن أن القضية ليست كما يصوّرون، ولكنه التكذيب بالآخرة الذي يمنعهم من التوقف أمام خطوات الحق.

وهكذا ينقلنا هذا الحوار إلى أجواء الآخرة، من أجل أن نعيد النظر في مواقفنا في الدنيا. وتلك هي مهمة الحوار القصصي في القرآن.. ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (المدثر: ٥٤ ـ ٥٥).

مؤمن آل فرعون

يحاول القرآن الكريم ـ بما يثيره أمامنا من مواقف في تاريخ العقيدة الإلهية في حركة الأنبياء، وتأثيرها في حياة مجتمعاتهم الكافرة والضَّالة ـ أن يستعرض بعض النماذج الحيَّة التي يشكّل وجودها ظاهرة بارزة، من حيث الموقف الرائع الذي تمارس فيه عملية التحدّي.

فليس من المستبعد أن ينشأ إنسان مؤمن في مجتمع الكفر، ولكن من المستبعد جداً، أن يكون هذا الإنسان جزءاً من الجهاز الحاكم الذي يرعى حركة الكفر وينمّيها، ويحارب كل من يعارضها أو يقف في وجهها، باعتبار أن الكفر هو الأساس في ما حصل عليه من امتيازات والمبرِّر لسلطته بالتالي فإن سيادة الإيمان في حياة الناس تفقده بذلك قداسة الشخصية وقداسة المركز، كما نلاحظ في قضية فرعون ومجتمعه، فقد كان يحكم الناس من موقع شعورهم بقداسته، لأنه يجسّد الألوهية أو يحمل جزءاً منها، يبرّر له مطالبة الآخرين بالخضوع له وتقديسه.

الظاهرة المشرقة

وعلى ضوء هذا، نستطيع أن نقرر أن مؤمن آل فرعون يمثل ظاهرةً مشرقة جديرة بالتأمل والدرس، وباعثة على انبثاق الأمل في ظلمات اليأس، عندما يجد الداعية

الأجواء مكفهرّة أمامه، فإنه سيلتقي بالآمال الخضراء في ظهور وجهٍ جديد غير منتظر، يحمل الرسالة معه، ويجاهد من أجلها دون اعتبار للامتيازات أو الإغراءات المطروحة أمامه، أو الموجودة لديه.

وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذا المؤمن - الظاهرة - بصورة الإنسان الرسالي الذي يمتلىء قلبه بالحزن على قومه، فتزحف مشاعره على كلماته هادئة حذرة، لتفتح نافذة على الحق هنا، وأخرى هناك، فتفسح المجال للضوء أن يخترق بعض خيوط الظلام، لينطلق الضياء لمعةً في الأعماق وإشراقةً في الضمير - خطوةً خطوةً - قبل أن يشعر الظلام بأن جحافل الفجر تعدّ في مقالع الضوء أعمدة الشروق.

ثم يندفع - في رسالته - وتتصاعد الكلمات بقوة، وتتفجر الآلام بحزم، وتنطلق الكلمة الحاسمة، لتكشف عن الحق فيحسم الموقف بالنداء القويّ الهادر الذي يترك الحذر خلفه، ليستقبل المجابهة بقوّة.

ولعل القيمة الكبيرة لهذا المؤمن، تتمثل في هذه الانطلاقة الإيمانية التي عاشت في نفسه، فعبأت داخله بكل معاني الحياة الكبيرة، حتى تحولّ إلى إنسان لا يكتفي بالجانب الذاتي للإيمان، الذي يضمن مصيره الأخروي دون أن يؤثّر على موقفه تجاه الآخرين، كما هو حال كثير من المؤمنين الذين يشعرون أن مسؤوليتهم تجاه الإيمان تنتهي بقيامهم بما يفرضه عليهم من أعمال وعبادات أو ممارسات فردية، كونها سبيل النجاة في الآخرة. أمّا مواجهة التحديات الفكرية والاجتماعية والعسكرية، التي تعرض الإنسان للخطر لا تفرضه عليه مسؤولية الإيمان، لأن لها أهلها وأصحابها.

أمّا هذا المؤمن، فلم يكتف بهذا الجانب، لأن مسؤولية المؤمن، لا ترتبط بقضية الخلاص الشخصي في الدنيا والآخرة، بل ترتبط بخلاص الآخرين أيضاً، على أساس أنّ من طبيعة الإيمان أن يعيش أصحابه حركة الرسالة وامتدادها في حساب المسؤولية التي تحولّهم جميعاً إلى رُسُل صغار، بحسب طاقتهم وقدرتهم، كما تحولّ الأقوال والأعمال إلى رسالاتٍ تتحرك في أكثر من اتجاه لتلتقي - بعد ذلك - في نطاق الهدف

الواحد الكبير وهو سعادة الإنسان في ظل شريعة الله ورسالته.

وكان يكتم إيمانه، لا بسبب الخوف، فقد كان ـ في ما يبدو ـ في موقع قوّي يكفل له الحماية من قومه، ولكن بهدف الحصول على حرية الحركة في الداخل، لخدمة الرسالة بأسلوب واقعي مرن يتوسّل الإيحاء بالحياد والاعتدال، إزاء واقع التطرف المتمثل في حالة فرعون المتوترة التي توحي بكل المواقف الحاقدة والمدمرة ضد الرسالة والرسول. فقد بدأ العمل على تفشيل مخططات فرعون ضد موسى بهدوء، من خلال ما ينثره من كلمات هنا وهناك، تحثُّ على التفكير واليقظة، وتؤثّر في الوقت ذاته ـ بما لها من خصوصية إيمانيّة ـ على مواقف فرعون الخائفة؛ هذه المواقف التي كان يستجدي فيها أتباعه، اتّخاذ موقف شديد ضد موسى، دون جدوى. فقد يظهر لنا من خلال دراسة حواره مع قومه، أنه كان يعمل على تفريغ قوّة فرعون من الداخل، حتى يرتفع الضغط عن الرسالة وتقوى خطوات الرسول في آنٍ معاً. وكان يتابع عمله هذا من موقع القوة التي يتمتع بها لا من موقع الضعف، لأننا نلاحظ ـ في ما يأتي من حديث القرآن عنه ـ أنه كان يعبِّر عن رأيه في كثير من المجالات بصراحة وقوّة دون أن يجابه بأيّ رد، أو محاولة للرد من أحد.

تحقيق الهدف بلا سلبيات

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المؤمن وعن مواقفه خلال حديثه عن قصة موسى مع فرعون، حيث نلتقي بجو جديد من الحوار، نلمح فيه فرعون مجتمعاً بقومه، طالباً تأييدهم في إعطائه الحرية في قتل موسى، متذرّعاً بالمحافظة على النظام وصلاح أمر البلاد والعباد، وهي نفس الأسباب التي يتذرّع بها الطغاة ـ عادة ـ من أجل القضاء على خصومهم من أصحاب المبادىء والرسالات والأفكار الإصلاحية.

وهنا ينطلق هذا المؤمن، من الداخل، في أسلوبٍ يتجنب مجابهة فرعون بشكل مباشر، متوجهاً إلى قومه لمنعهم من التجاوب مع طلب فرعون في موقف رائع متحرك، يرسم لنا صورة جديدة من الحوار الذي لا يلتقي فيه المتحاوران وجهاً لوجه، بل يطرح

أحدهما الفكرة، وينطلق الثاني في ردِّها وإظهار فسادها وخطئها، لأن الطرف الأوّل للحوار لا يمكن أن يخضع لروح البحث عن الحقيقة في الحوار، لأن القضية عنده قضية سلطان يجب أن يدوم ويستمر، لا قضية حق يجب أن يقوم وينطلق. ولهذا فإن مواجهته بالنقد والحوار لا تحقق أيّة نتيجة، بل من الممكن أن تشارك في خنق الصوت وقتله من جهة، أو إقامة الحواجز بين المجتمع وبين صوت الحق من جهة أخرى. بل الخطة العملية تنحصر في التوجه إلى المجتمع بعيداً عن أجواء الحاكم وضغوطه، ليُلقي إليه بالفكرة التي تواجه الفكرة المطروحة، فإن ذلك هو سبيل الوصول الأفضل إلى النتيجة بلا سلبيات.

ولعل من مظاهر الروعة في هذا الأسلوب الجديد في الحوار وشكله؛ هو أنه لا يسمعنا صوت فرعون من جانب، وصوت هذا المؤمن من جانب آخر، بل نسمع فيه صوت موسى ينساب هادئاً رسالياً في بعض الحالات، لتعطينا الصورة الرائعة للرسالة، وهي تتحرك بين الرسول والطاغية، والمؤمن بالرسالة، وهم جميعاً يجهدون لقيادة المجتمع إلى ما يريدون. في الوقت الذي نشعر فيه بأن هذا المجتمع لا يمارس دوراً حركياً مضاداً، بل يبقى خاضعاً للتأثيرات النفسية والفكرية التي تأتي من هنا وهناك، دون ممارسة دوره المستقل، لأنه لم يستطع أن يتخفَّف من ضغط الجوّ الحاكم عليه تماماً، ولذلك تتجاذبه رواسبه ومصالحه من جهة ومشاعره وأفكاره من جهة أخرى.

والآن، نحن مع الآية الكريمة وجهاً لوجه، لنقف على الطبيعة مع الصوت والصورة.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٢٦ ـ ٤٥).

إننا ـ ونحن نتابع هذه الصّورة ـ نلاحظ هذا المؤمن ـ في البداية ـ في مظهر الإنسان الحيادي البعيد ـ نسبياً ـ عن موضوع الخلاف، يطرح المسألة كفرد من أفراد العائلة، بالأسلوب الهادئ الخفيف. فقد كانت القضية المطروحة من فرعون على قومه، هي

إعطاؤه الحريّة، ليقتل موسى دفاعاً عن العقيدة والنظام، لأنه جاء ليخرب العقيدة ويحطم النظام.

وهنا يبرز صوت موسى، بأسلوب الرسالي الهادىء الذي يحاول الإيحاء بالقوّة، بواسطة قوّة الله ـ ربّه وربّهم ـ عندما يقف ليردّ على هذا التهديد بالقتل، بالاستعاذة بالله والاستجارة به، وهو الذي يقف الخلائق كلهم أمامه يوم الحساب فيحاسب المتكبرين حساباً عسيراً.

وربما نلمح في إعطاء صفة المتكبر لفرعون، إيحاءً بأن موقفه لا يصدر عن قناعة، بل يصدر عن كبرياء وطغيان يحاول أن يُغطّي بهما ضعفه أمام الحجة أو الواقع.

ويتدخل مؤمن فرعون ـ في أسلوبه الواقعي الحذر ـ ليواجههم بالإنكار عليهم في ما يبيّتون من شرٍّ لموسى، لأنه قال لهم إن ربيَ الله في حشد من البينات والبراهين التي تدعم دعواه وتؤيدّها.

إنه لا يملك الرجال والسلاح لتخافوا منه على الملك، فهو يطرح الرسالة من خلال الفكر، فاتركوه وشأنه. فإن كان كاذباً، فسيجني جزاء كذبه دون أن يصيبكم منه شيء. وإن كان صادقاً، يصبكم بعض الذي يعدكم. ثم بدأ في إثارة عنصرالخوف في أنفسهم، بالمقارنة بين ما يملكون من قوّة وسطوة، وبين ما يصوره موسى من قوّة الله المطلقة التي لا يملكون إزاءها أيّ دفاع، لأنها فوق ذلك كله.

ولم يشأ فرعون ـ في ما يظهر ـ أن يجيب على هذا اللون من الكلام، بل استعمل أسلوب الحاكم الذي يطلق إرادته دون مناقشة، بأسلوب حاول التخفيف من تأثير كلام المؤمن عليهم فأعلن لهم أنه يريهم ما يراه، ولن يهديهم إلا سبيل الرشاد.

تلك هي القضية التي لا ينتظر عليها جواباً، لأن دور الأتباع أن يتلقوا كلامه، كحقيقةٍ لا تناقش، ولكن مؤمن آل فرعون وقف للردّ بأسلوب جديد، يعتمد تخويفهم من المصير المظلم الذي قد يستقبلهم نتيجة موقفهم من موسى، كما استقبل غيرهم من

الأمم التي وقفت الموقف نفسه، فحاربت أنبياءها واضطهدتهم، ولم تمكنهم من مد جسور الحوار الذي يعطي للفكرة، أو للرسالة، مجال التعبير عن نفسها وتطلُّعاتها في جوٍّ حُرٍّ رصين.

ثم يثير أمامهم الفكرة الرسالية التي تشجب جدالهم في آيات الله بغير حجة أو برهان، لأن فرعون أراد ذلك، فلم يناقشوه ولم يسمحوا لأنفسهم أن يناقشوا الفكرة ـ على الأقل ـ مما يعرّضهم للمقت الكبير أمام الله.

استعراضات فرعونية

ويعود فرعون من جديد، وكأنه سمع الحوار بين هذا المؤمن وبين قومه، ليردّ عليه بشكل غير مباشر، محاولاً التخفيف من تأثير فكرة الخوف التي أثارها هذا المؤمن لديهم في حديثه، عندما طرح قضية الله، كقضية في مستوى الحقيقة. حيث تحدث عن الله الآن كما لو كان مؤمناً ـ خلافاً لأسلوبه السابق ـ طارحاً أمامهم تاريخ الرسالات والرسل مع شعوبهم.

وتمثّل ردّ فرعون في إظهار المحاولة الجادّة للصعود إلى ربّ موسى لرؤيته ومحاسبته، كما لو كان شخصاً كبقية الأشخاص، الذين يحاربهم ويحاربونه ويجادلهم ويجادلونه. للإيحاء لهم بأنه يريد أن يكتشفه، هل هو حقيقة أم وهم وخيال؟

وقد كانت تلك المحاولة من فرعون استعراضية للتأثير على مشاعر جمهوره، بالإعلان لهم باستطاعته الصعود إلى إله موسى، بإصدار أوامره إلى هامان، أن يبني له أبراجاً تبلغ به السماء.

ولكن مؤمن آل فرعون واقف له بالمرصاد، يرصد عليه كلماته ويلاحظ تأثيره على الناس، ليخفف من ذلك أو يبطله، فنراه ـ في هذا الموقف ـ يرفع صوته من جديد، بأسلوب زاخر بالمرارة والعاطفة، ومملؤ بالموعظة والنصيحة، فهو يبصرهم بالحياة وفنائها، والآخرة وخلودها، ثم يحدد لهم طبيعة المسؤولية ونتائجها، فكل إنسان يتحمل مسؤولية عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. ولن يتحمل أيّ شخص مسؤولية

شخص آخر، ولذا فإن عليهم أن يواجهوا مسؤوليتهم بأنفسهم، لأن فرعون لن يستطيع أن يدفع عنهم أيّ شيء.

وهنا نلمح - في الجو - حدوث تجاذب وصراع بينه وبينهم، فقد كانوا - في ما يبدو - يحاولون منعه من الانطلاق بعيداً في هذا الاتجاه، وجرّه إلى حياتهم وملذاتهم وشهواتهم... ولكنه ظل صامداً في موقفه، ليشرح لهم الفارق بين دعوته ودعوتهم. فهو يدعوهم إلى الجنة وإلى السعادة وإلى النجاة في الدنيا والآخرة. أمّا هم، فإنهم لا يقدّمون له أيّ شيء، فلا قاعدة لهذه الدعوى التي يدعونه إليها ولا أساس ولا خطط، بل هو السير مع الشخص الذي لا يشكل الارتباط به أيّة ضمانةٍ للحياة - أيِّ حياةٍ - بينما يمثل الارتباط بالله كل المعاني الخيّرةالطيبة، عندما يعيش الإنسان عزيزاً في ظل عزّة الله، مطمئناً إلى مصيره في ظل غفران الله.

وفي نهاية هذا الفصل، يختم حواره معهم، بعد أن استنفد كل وسائله ليقول لهم أنهم سيتذكرون كلامه كله، عندما يصطدمون بواقع الحياة الذي يتحدى كل أوضاعهم وأعمالهم، تماماً ككل الأصوات الخيّرة التي لا تلامس أرواح وأفكار الناس الذين توجه إليهم نداءاتها إلا بعد حين.

ثم يعلن لهم أنه ينفض يديه منهم ويفوض الأمر إلى الله، فهو الذي يتولى تدبيره في الدنيا، والآخرة. وتأتي اللمسة القرآنية، لتمثل استجابة الله له في هذا التفويض، حيث وقاه الله سيئات مكرهم، بينما واجهوا نتائج مسؤوليتهم فانتهوا إلى النار. ولبئس القرار.

فوائد عملية

وقد لا يفوت القارىء، وهو يتابع هذه الآيات، كيف يمكننا أن نطبِّق كثيراً من عناصر هذا الأسلوب على ما نواجهه في حياتنا المعاصرة، ضمن نقاط عديدة:

١ - التقية مبدأ قرآني

التأكيد على إيجاد أشخاص - غير معلَنين - من المؤمنين الداعين إلى الله. الذين

يعيشون مع مجتمعاتهم منسجمين ومتوافقين من حيث الانتماء، ومن حيث طريقة الحياة، ولكن من دون أن ينحرفوا عن الخط الصحيح. ثم يتابعون عملهم - من الداخل - للرسالة من أجل كسب أكبر عدد ممكن من الأفراد إليها من جهة، والاطلاع على الخطط التي توضع ضد الإيمان وأتباعه، ومحاولة تفشيلها والقيام بعملية الدفاع وحمايتها من جهة أخرى.

وهذا ما تعبِّر عنه الفكرة الإسلامية الشيعية المعروفة بـ (التقية) التي ينطلق الشيعة فيها من المبادىء القرآنية المتعددة، كما في هذه القصة وقصة عمار بن ياسر وغيرها.

٢ - حوار غير مباشر

ملاحقة العاملين في سبيل الله للأفكار التي يطلقها الحاكمون المنحرفون وغيرهم في أوساط المجتمع، لتضليله أو لتبرير خطواتهم العدوانية والانحرافية؛ بالأسلوب الذي يربط المجتمع بالفكرة بعيداً، دون الدخول في مواقف عنيفة يتم الاستعداد لها في هذه المرحلة، كي يتحول الحوار بينهم وبين المجتمع في هذه القضايا، إلى حوارٍ غير مباشر بينهم وبين الحاكم، كطريقةٍ عملية لهدايته وإيقاظ ضميره أو تخويفه، وإلقاء الرعب في نفسه، عندما يشعر بالأصوات التي ترتفع ضد أفكاره، وتندد بخطواته بهدوء وقوّة وحكمة، فلا تترك له أيّة حجة لمواجهتها وتصفيتها.

٣ - الروح الرسالية

التأكيد على استيحاء الروح الرسالية التي تعيش في وجدان الداعية وضميره وتحكم خطواته، من أسلوب هذا المؤمن، حيث نشعر بالوداعة الإيمانية التي تبدو في حياته، وبالهدوء القوي الذي يسيطر عليه، والعاطفة الفيّاضة التي تنساب من كلماته وخطواته، والحكمة الرائعة في أسلوب الحوار والدعوة، مما يوحي بابتعاده عن أجواء التحدي العام، حتى في أشدّ الحالات التي واجهها معهم، فنحن لم نلمح إعلان انتمائه إلى موسى، بل حافظ على أسلوبه الحكيم في الحوار حتى النهاية، باعتبار أنه يحكم

للحق، انطلاقاً من دراسته للموقف وقناعته به، لا من موقع انتسابه إلى أحد أطراف النزاع.

٤ ـ التحدي المطلوب

استخدام الأسلوب الوعظي الذي يرتكز على التخويف من الله ومن نتائج الحساب في الآخرة، حتى مع المتكبرين والمتجبرين والطغاة، كمواجهةٍ لتحديهم الناس بالقوّة بتحديات أكبر منها، عبر طرح قوّة الله في الميدان، باعتبارها القوة التي لا تقاوم. ثم محاولة إحداث فجوة بينهم وبين الناس، من خلال ربط قضية الحق والباطل بقضايا الخوف من المصير لدى الناس، الكفيل بخلق شعور بضرورة الابتعاد عن مواطن الخطر مهما كانت.

٥ ـ تحديد الخط الفاصل

التركيز على إيضاح الخط الفاصل بين الدعوة إلى الله وبين الدعوة إلى غيره، بإبراز خصائص كل منهما، وإظهار الطابع الأصيل الذي يطبعهما، والتركيز على أن اختيار طريق الإيمان بالله يترتب عليه سلامة المصير، بينما يؤدي السير في الطريق الآخر إلى نتائج خطرة على الدنيا والآخرة. ونلاحظ ذلك في اختتام هذا المؤمن حديثه معهم، بالتركيز على طبيعة دعوته التي تنتهي إلى النجاة، ودعوتهم التي تنتهي إلى النار.

ولا بدّ، من مواجهة المؤثّرات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بهذا الأسلوب الذي يعزلها ويمنع الرأي العام، من إعطاء الأفكار والتيارات المطروحة على أساسها ثقةً اجتماعية أو رفضاً اجتماعياً، لأنها قد تضلّله وتنحرف به عن وضوح الرؤية، فتُلبس الباطل لبوس الحق، أو تمنح الحق ثياب الباطل... كما نلاحظ في بعض التيارات السياسية والاقتصادية التي تستغل بعض المشاكل الاجتماعية لتوجيه التفكير إلى بعض العوامل الحيوية المتحركة في المجتمع، والإيحاء بكونها كل شيء فيه؛ وعزل بقية العوامل. ليبدو أن العوامل الأخرى لا ترتبط بقضايا المصير، لأن فكرة المصير أصبحت شأناً دنيوياً لا علاقة له بالآخرة أو بالإيمان بالله من قريب أو من بعيد.

٦ ـ البيئة لا تكبل حرية الإنسان

إن ظاهرة مؤمن آل فرعون، تؤكد الفكرة الإسلامية التي ترفض اعتبار البيئة عنصراً حاسماً. يشل في الإنسان عنصر الاختيار والإرادة في ما يتخذه من مواقف، وفي ما يقوم به من أعمال، ليكون ذلك مبرراً شرعياً للانحراف من جهة، ودليلاً على الاتجاه الجبري الفلسفي الذي ينكر على الإنسان حريته، من موقع البيئة التي تسيطر على تفكيره وتوجه إرادته في اتجاهها المعين، سواء منها المنحرف والمستقيم.

إن وجود مثل هذا الإنسان، الذي يولد في مجتمع الشر، أو مثل امرأة فرعون التي تعيش تحت ضغط هذا المجتمع، يؤكد الفكرة التي تعتبر جوّ الشر عنصر تشجيع للشر، يضعف المقاومة، ولكنه لا يلغيها. بل يبقى للإنسان ـ برغم الظروف الصعبة ـ مجال ممارسة الإرادة، التي تسمح له بالانتصار.

ونجد ـ في الجانب المقابل ـ الإنسان الذي يولد في مجتمع الخير أو يعيش فيه، كابن نوح وامرأته وامرأة لوط وغيرهم من الأشخاص، الذين لم تمنعهم أجواء الخير التي عاشوا فيها من الانحراف كنتيجة للاستجابة لمؤثراته.

فالواقع أن البيئة لا تضع أمام الإنسان حاجز المستحيل بينه وبين الخروج عن إرادة مجتمعه وسلوكه، بل تشارك في إقامة العقبات والصعوبات التي يمكن للإنسان أن يخترقها بقوة الفكر والإرادة ـ إذا شاء ذلك ـ بالجهد الطويل.

وهذا ما يبعث في نفوس العاملين إرادة الانتصار على عوامل البيئة الصعبة وضغوطها بإبعاد الإنسان عن أفكارها وأخلاقها وسلوكها، لدفع عملية التغيير بقوة إلى الأمام.

وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى

.. وهذا مؤمن آخر انفصل عن الخط المنحرف، الذي سار عليه قومه في طريق الكفر والضلال، ومحاربة الأنبياء والمرسلين، فالتزم جانب الإيمان والهدى، وساند الرسالات بالكلمة والموقف، ومتابعة الأساليب المتنوّعة مع قومه لإقناعهم بالاستجابة إلى نداء الرسل.

وقد ورد الحديث عنه في القرآن الكريم في قصةالرسل الثلاثة، الذين انطلقوا إلى (أصحاب القرية) يدعونهم إلى الله وإلى رسالاته، فقابلوهم بالإنكار والتهديد والوعيد، حتى لم يبق لهم أيّ أمل في هداية أيّ شخص من أهل القرية. وكانت المفاجأة بانتظارهم من حيث لا يدرون، فقد جاء هذا الرجل المؤمن يسعى من أقصى المدينة، ليرفع الصوت من جديد، ويدعو قومه إلى الرسالة التي ينادي بها هؤلاء الرسل الثلاثة.

قال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟

لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس: ١٣ ـ ٢٩).

والقصة من ثلاث فصول، يتمثل فيها حوار مثلّث بين الرسل وقومهم، وبين المؤمن وقومه، ثم بين المؤمن وبين الملائكة؛ وكل حلقة من الحوار تعتبر مكمّلة للحلقة الأخرى.

مهمة الرسل

فقد جاء هؤلاء الرسل على دفعتين، اثنين في المرة الأولى، ثم انضم إليهما ثالث تعزيزاً لموقفهما، فأعلنوا أنهم رسل الله إليهم (والظاهر أنهم ليسوا أنبياء، بل هم من رسل عيسى ـ عليه السلام ـ كما يظهر من الأحاديث). وكان رد الفعل امتداداً لردود الفعل الكافرة ضد الرسالات والرسل، على أساس التنافي بين البشرية والرسالة. ولم يكن من الرسل إلا الإعلان إليهم بأنهم لا يريدون الدخول في جدل حول هذا الموضوع، لأنهم لا يسعون في موقعهم لإستدعاء اجلواء الحوار بحثاً عن القناعة بالنتائج الحاسمة، لأنّهم لا يريدون ذلك. ويكفي الرسل ثقةً بأنفسهم ومهمتهم، اقتناعهم بأن الله يعلم أنهم مرسلون إلى هذه القرية، وأن مهمتهم هي البلاغ والإبلاغ. فمن أراد الوصول إلى القناعة في هذا السبيل، فهم مستعدون للوصول به إليها. ومن لم يرد ذلك منهم، فلن يدخلوا معه في جدل عقيم، بل يكفيهم أنهم أقاموا الحجة عليه من الله، فلم يعد له أيّة حجة على الله في الدنيا والآخرة.

ولم يعجب القوم هذا الرد الهادئ الوديع، الذي يمثِّل موقف الرسالة التي تؤمن بنفسها، وتتحرك في خطوات حكيمة على هدى هذا الإيمان. فقد كان هدفهم الوصول بالرسل إلى أجواء التوتر النفسي، الذي يجعلهم يفقدون أعصابهم تحت ضغط التحدي المباشر، فيتصرفون تصرفاً خاطئاً، يبعدهم عن الهدف ويجرّهم إلى مواقف جدليّة عقيمة، لا تخدم الرسالة في شيء، بل ربما تضرّها على المدى البعيد. وتحول الموقف إلى التهديد، فقد اعتبرهم الكفار نذير شؤم وعلامة تطيّر، مما جعلهم يهددونهم بالرجم والعذاب إذا استمروا في رسالتهم. وجاء الجواب هادئاً هدوء الرسالة، إنهم ليسوا الذين يبعثون على التشاؤم، بل الكفر والضلال - اللذان يتصف بهما الكافرون والضالون - هما مبعث التشاؤم والتطيّر، لأنه يدفعهم إلى أن يصمّوا آذانهم عن التذكير، ويقودهم إلى الإسراف في التمرّد والخروج عن الخط الصحيح.

انتفاضة الحق

وينتهي هذا المشهد، ليبدأ مشهد جديد يمثل المؤمن، واقفاً مع قومه، يطلب منهم تأييد المرسلين واتبّاعهم. ثم يدعوهم إلى التأمل في القضية على أساس الحقيقة الواضحة، التي تؤكد عدم وجود مصلحة ذاتية للمرسلين في كفرهم وإيمانهم، لأنهم لا يطلبون أجراً على ذلك، مما يجعل القضية تعيش في إطار الهدى والرسالة، لا في إطار الذات والمنفعة.

ثم ينكفئ على ذاته، ليثير معها حواراً يسمعه قومه ويرونه، ليقودهم إلى التأمل، وليفهمهم أنه لا يدعوهم إلاّ إلى ما يدعو إليه نفسه، ولينقلهم من قضية الجدال في صدق الرسل وكذبهم، إلى قضية البحث في نفس الفكرة، نفياً أو إثباتاً، على المنهج الذي أفاض القرآن فيه طويلاً في موضوع التوحيد والشرك، من خلال المقارنات بين واقع الصفات الإلهية،وبين صفات الشركاء، لينتهي إلى النتيجة الحاسمة، التي تقول: إن بقاءه في جانب الشرك يؤدي به إلى إصدار الحكم على نفسه بالسير في طريق الضلال، ولذا نراه ينتفض انتفاضة الحق، ليعلن إيمانه بالله ورفضه للشرك، موجِّهاً

نداءه إلى الآخرين ليسمعوه، لا ليأخذوا علماً بذلك، بل ليترك أثره في نفوسهم.

طهارة المؤمن

وينتهي المشهد، بانتهاء الدنيا كلها، وموت الخصومات، وانتهاء مهمة الرسالات... فقد ذهب دور حمل المسؤولية، ليأتي دور مواجهة نتائجها. ويقف الناس ـ كل الناس، من رسل وجبابرة، وأتباع وخصوم ـ أمام الله ليواجهوا ما عملوا من خير وشرّ، فيجزيهم، بالخير خيراً وبالشر شراً، ويعفو عمن يشاء ويعذب من يشاء، لأن الأمر إليه وحده.

ويأتي دور هذا المؤمن ـ الظاهرة ـ الذي قال كلمة الحق ـ وحده ـ في وجه مجتمع الكفر كله، فيطلب منه أن يدخل الجنة جزاء إيمانه وعمله، ولكنه يقف قليلاً، ليتذكر قومه الذين غفلوا عن هذا الموقف، وعن تذكير الأنبياء به وعن نتائج الإيمان... ويحس بالوحشة الشديدة والوحدة القاتلة، فقد كان يتمنى أن يدرك قومه ذلك قبلاً، أو يعلموا الكرامة التي أكرمه الله بها، ولكن دون جدوى.

وربما نفهم من هذه الآية، أنَّ المؤمنين يعيشون باستمرار الإحساس الطيب الطاهر، بالرغبة في مشاركه الآخرين لما يحصلون عليه من ثواب، أو ما يصلهم من خير، حتى إذا أعطاهم الله ذلك، أحسوا بالألم الشديد لحرمان قومهم من الأجر الكبير والثواب العظيم.

ويسدل الستار على القصة التي تنتهي بالمصير المظلم لقومه، حيث لاقوا بسهولة بالغة جزاء عملهم في الدنيا والآخرة. فهم أضعف وأقلّ من أن يقاوموا أو يحاربوا ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ (يس: ٢٩).

كي لا تتحول الرسالة إلى مهنة

وتلتقي هذه القصة بقصة مؤمن آل فرعون، لجهة ما يتخذه من مواقف تتسم بالهدوء الرسالي، في مواجهة التحديات الموجَّهة ضد الرسالات والرسل، حيث يمارس

الرسل والدعاة ضبط الانفعالات والمشاعر، إزاء ما يواجهونه من قضايا ومشاكل. ثم في الروح الرائعة التي يتميز بها المؤمنون الجُدُد، من إحساس بالمسؤولية في الدعوة إلى الله بمختلف الأساليب، وتأييد القيادات الرسالية في مواقفها والانضمام إليها في عملية المواجهة، باللين تارة وبالعنف أخرى، وأخيراً في المشاعر الفيَّاضة والأحاسيس الطاهرة، النابضة بالرحمة والمحبة والرفق، لامتزاج روح العاطفة بروح الواجب، ولاندماج مواقف المسؤولية بمشاعر الإنسانية التي تنساب خيراً ورحمةً وبركةً في حياة الناس، وتتسامى إلى مستوى تمني كل ما يأتي إليها من خير للناس، في أسلوب يوحي بأنها ليست فرِحة ـ تماماً ـ بالجنة، لأن الآخرين لم يهتدوا الطريق إليها فيشاركوها فيها.

إنّه الأسلوب الذي يحتاج إليه الدعاة ـ في كل زمان ومكان ـ كي لا تتحول الرسالة إلى مهنة يمارسها الإنسان بشكل رتيب مملّ، لا روح فيه ولا حياة، وكي لا يتحول الداعية إلى مجرد إنسان تختلط عنده العواطف الذاتية بمشاعر الرسالة، فتضيق نفسه بتحديات الآخرين، حتى ليضيق بالآخرين، لأنهم يعكرون مزاجه، ويبعدونه عن الشعور بالراحة، فيترك الرسالة، ويهمل الواجب، ويتفجر قلبه حقداً وبغضاً ورغبة في تدميرهم، لمجرد إرضاء نزواته وتلبية رغباته.

ويلتقي هذا الأسلوب الذي اتبعه المؤمن، بأسلوب النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي جرى عليه مع قومه، عندما بدأ يحاكم عقائد قومه في الإيمان بألوهية الشمس والقمر والكواكب، وعبادتهم لها، بأسلوب الحوار الذاتي الذي يقف فيه الإنسان وقفة تأمل وحساب مع نفسه، ليحاكم ما تتبناه من أفكار تتصل بالعقيدة، حيث يراه الآخرون الذين يتبنون تلك الأفكار ويسمعونه، ليفهموا قضية الحق والباطل، من دون إثارة ذاتية، لأنه يتكلم في الموضوع يراجع أفكاره كواحد منهم، لا كطرفٍ معاد يهاجم أفكارهم. وبذلك يمكنهم أن يتأملوا الفكرة، وهم يتأملونه، ويناقشوا أنفسهم ـ بهدوء ـ وهم يستمعون إلى مناقشته لنفسه، من حيث لا يشعرون، ولا يقصدون.

وقد تكرر هذا الأسلوب في أكثر من آية، تأكيداً على قيمته في مجال الدعوة،

وتوجيهاً للدعاة المسلمين، إلى استخدامه في مناقشاتهم وممارساتهم وأساليبهم العملية في واقع الرسالة والحياة (وقد تحدثنا عنه في أكثر من موضع في هذا الكتاب).

البلاء نتيجة الانحراف

ولا بد لنا ـ في نهاية الفصل ـ أن نلفت النظر إلى أسلوب الكافرين في مواجهة الرسل، في اعتبارهم نذيراً بالشر ومصدراً للتطير والتشاؤم، يؤذن قدومهم بحدوث بعض ألوان البلاء، أو بعض الاختلافات الداخلية في ما بينهم، يتخذونها حجةً على رفضهم للرسل، الأمر الذي نفهم منه فقدانهم لأي حجة يردون بها على الرسل، لذا فهم يلجؤون إلى الأساليب التافهة التي لا يؤمنون ـ هم ـ بها، ليعتبروها ردّاً يبررون به كفرهم أمام الناس، أو يثيرون الناس ـ من خلاله ـ على الرسل، بالإيحاء لهم بأنهم مصدر ما حدث من البلاء.

ولكن أسلوب الرسل كان حاسماً، حيث أرجعوا كل الحوادث والمشاكل إلى ممارساتهم الفردية الحاصلة من كفرهم وجحودهم، فهم الذين يتحملون مسؤولية كل ما يحدث، لا الرسل الذين جاؤوا من أجل تخليصهم مما هم فيه من بلاء وعذاب.

أمّا ما نستفيده من ذلك كله، فهو مواجهة أساليب الجماعات الكافرة والضالة، التي تحارب الجماعات المؤمنة المسلمة، بتحميلها كل المسؤولية في بعض مواطن البلاء التي تحل بالمجتمع، مما يرتبط بقضايا الصراع ونتائج المواقف، فيعملون على إثارة الأجواء ضدها بالحملات التضليلية التي تركز على أن وجود المؤمنين وأعمالهم الرسالية، هي السبب في ما نجم من مشاكل وما حدث من الآم.

أما طبيعة المواجهة، فهي اللجوء إلى أسلوب كشف الأسس العقلية التي انطلقت منها الآلام والمشاكل، وإرجاعها إلى خط الانحراف والضلال، باعتبار أن تلك المشاكل نتيجة طبيعية للأفكار الانحرافية والخطوات الضالّة، التي لا تراعي المصلحة العامة، بل تخضع للدوافع الفردية والنزوات الذاتية. ثم البدء بتوضيح المبادىء الإسلامية، والمبادرات الرسالية التي يقوم بها الدعاة، وشرح طبيعة انعكاساتها على المجتمع،

وتأكيد ابتعادها عن كل إضرار وإفساد، لأن شعارها الطبيعي هو مصلحة الإنسان، فكيف يمكن أن تؤدي إلى ما يضر بحياته ومصلحته؟

إن القضية في هذا كله هي قضية الإعلام المنحرف، الذي يستغل جهل الجماهير بأسباب الأحداث، لتفسيرها كما يريد، وتشويه الوجه المضيء للجماعات المؤمنة بالافتراء عليها بدون ذنب. ومن الطبيعي أن المؤمنين يواجهون - بدورهم أيضاً - بإعلامٍ مضاد، يضع القضية في إطارها الصحيح، مع ملاحظةٍ أساسية، وهي مراعاة المستوى الفكري والعاطفي الذي تعيش فيه الجماهير، لأن ذلك هو شرط الوصول إلى الهدف.

المتشائمون والمتفائلون

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

لا مجال لليأس أمام المصلحين

في هذه الآية الكريمة، حوار قصير خاطف، بين نموذجين من الناس، حول الموقف الذي ينبغي اتباعه إزاء بعض الناس الذين يمتدون في الانحراف عملاً وفكراً إلى درجة قصوى. بحيث يخيَّل لمن يراقب أوضاعهم وأعمالهم أن محاولة هدايتهم يائسة، فقد خاب الأمل من هؤلاء، ووقفوا بعيداً بعيداً عن رحمة الله وغفرانه، فلا مجال - بعد ذلك - لأيَّة تجربة يخوضها العاملون من أجل إصلاحهم وإرجاعهم إلى الله.

ويقف بعض العاملين في سبيل الله، أمام هذه الظاهرة، موقفاً رسالياً لشعورهم الأصيل بأن مهمتهم الأصيلة هي السماح لعوامل الخير في التحرك، في غمار الأكداس الهائلة من الشر التي تحجَّرت بفعل الزمن، فأصبحت حاجزاً ضخماً يسدّ الطريق أمام ظهور عوامل الخير الراقدة في الأعماق. فيقف العاملون إزاءها، بالموعظة تارة وبالعنف

أخرى، أملاً في انهيار الحاجز الصخري من الداخل الذي يمثل قوّة الخير، ومن الخارج الذي يهيئ الجو للحركة والاندفاع.

والهدف ـ كما يرى هؤلاء ـ أن يظل الأمل متحركاً في الحياة، كي تبقى ولا تتجمد في الطريق إلى الموت. ففي الظلمة تطل خيوط النور، تتحرك من النجوم تارة ومن القمر أخرى ومن أحلام الفجر التي تدغدغ أجفان الكون آخر الليل، وتستمر خيوط النور في الحركة، وتتسع، ويطلع فجر يومٍ جديد.

وفي ظلمات الشك التي تزرع نفس الإنسان وفكره، تظل خطوات اليقين تقطع الطريق نحو الفكر النير الذي يغمر النفس بالشعاع الهادئ حتى الطمأنينة والهدوء.

وفي غياب الضلال، يبرز الهدى حلُماً قريباً وادعاً لذيذاً، كمثل الشلال المتدفّق من أعماق الينبوع.

إن ذلك كله يجعل الأمل بالخير وبالنور والهدى، حقيقةً من الحقائق التي بنيت عليها الحياة، تعرض نفسها في أكثر من مجال.

... وعلى خطى الأمل والواقعية، يتحرك الدعاة والمصلحون في سبيل القضايا الكبيرة، في حركةٍ رسالية تتطلع إلى القمم، بالرغم من كل العقبات والصعوبات التي تعترض سبيل المتحركين على السفح في طريقهم إلى القمّة.

أمّا إذا كانت القضية قضية المسافة الروحية والنفسية التي قطعوها، وهم يبتعدون عن الله، أو قضية الجسور التي نسفوها بينهم وبين الله، فلم يعد لديهم جسر يربط بين الضفتين، ضفة الدنيا حيث يقفون ويتخبطون، وضفة الآخرة حيث تفيض ألطاف الله على عباده خيراً ومغفرة ورضواناً.

أمّا إذا كانت القضية قضية علاقتهم بالله، فما أسهل الأمر وما أهونه. فقد أعدّ الله الجسور للتائبين في كل وقت وفي كل مرحلة، تقربهم إليه وتربطهم به وتوفر عليهم العودة إلى بدايات الطريق، كما حدثنا سبحانه في أكثر من آية عندما دعا المذنبين إليه،

وعرفهم أنهم مهما ابتعدوا، فهو قريب إليهم، يستمع إليهم وإلى نجواهم وابتهالاتهم في كل حين.

قال تعالى:

﴿ . . . فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . . . ﴾ (الزمر: ٥٣).

تلك هي قاعدة الأمل في مسيرة الحياة العملية، للدعاة إلى الله، عندما يواصلون الدعوة مع المذنبين والمنحرفين، للرجوع إلى الله. فهي تلتقي بالأمل بطبيعة الأشياء في الحياة من جهة، وبرحمة الله الواسعة الممتدة إلى ما لا نهاية من جهة أخرى. ولا بدّ للداعية أن يفهم أن دعوته لا تقتصر في نتائجها على الوصول إلى النتائج العملية لدى الناس فحسب، بل تتمثل في هدف يشمل العمل كله ويطبعه بطابعه، وهوالمعذرة إلى الله، وإقامة الحجة على الناس، حتى يرى الله أننا قد بذلنا كل جهد في هذا السبيل، وأننا قد أعذرنا إليه في كل عمل، وفي كل دعوة.

الفرق بين نظرتين

لقد أرادت الآية في هذا الحوار الخاطف، أن تقول لنا ذلك كله، أو توحي إلينا به، ليظل الإيمان بالتجربة الرائدة المستمرة المتكررة، هو سبيلنا إلى الحياة، وإلى العمل في سبيل الله، وليختفي المخذلون واليائسون والمستسلمون من طريق العمل. هؤلاء الذين يبحثون عن أوهام الظلام في حقائق النور، ليشحنوا به دعوات الانهزامية، بدلاً من أن يبحثوا عن لمعات النور في أحداث الظلام، ليبعثوا التفاؤل في قلوب المتشائمين، والأمن والأمل في حياة الخائفين واليائسين.

وبهذا يتضح لنا الفارق بين الشخصيتين، المتفائلة والمتشائمة. فالأولى: هي التي تحدد خطواتها في الحياة من خلال تفجير إمكاناتها، واستنزاف كل قطرة للحياة في داخلها، لاستثمارها في زراعة مساحة جديدة من مساحات الأمل الواقعي، وبالتالي اعتبار التجربة العميقة أساساً للحكم وللعذر، والابتعاد عن التجارب السطحية التي لا تكلف الإنسان إلا نظرة بلهاء على مظاهر الواقع الذي قد يخفي الكثير مما لا يظهر على السطح..

أما الثانية، فهي التي تريد أن تنتهي من القضية سريعاً، فتخضع للظواهر السطحية التي لا تبشر بالامتداد الواقعي للأمل، وبذلك يصبح اليأس أقرب نقطة إلى الهروب والتبرير، في مجال الحياة العملية.

إنه الفرق بين الذين ينظرون إلى السطح عند اكتشاف الينابيع، فيظلون يعيشون الحياة في أوهام السراب؛ وبين الذين ينفذون إلى الأعماق بأنظارهم وبممارساتهم العملية، فترتوي قلوبهم وعيونهم ووجداناتهم، ويملؤون الحياة ـ من خلال ذلك ـ بالريّ والخصب والحياة.

إنه الجوّ القرآني الرائع النابض بالحياة، نلتقيه في هذه الآية، وفي كل الآيات لنعيش فيه كل ذلك في صورة لا تتسع ملامحها لمساحاتٍ كبيرة من الخطوط، ولكنها تتدفق في أعماقها ومعطياتها بالكثير الكثير من الينابيع الصافية الطاهرة، التي تنساب حباً وحياة وقوة وسلاماً.

ومن الناس من يعجبك قوله

في الحياة الدنيا

من نماذج المنافقين

وهذا نموذج بشري جديد من نماذج المنافقين السياسيين الموجودين في كل زمان ومكان، الذين يتوصلون إلى استدرار عواطف الناس ومشاعرهم، بالكلمات الحلوة المعسولة التي تتحرك في اتجاه نقاط الضعف الكبيرة في حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واضعة البرامج الطويلة للإصلاحات العامة في حياة الناس، وتبذل الوعود الكثيرة بلا حساب، وتُطلق الخطب الانفعالية المثيرة التي تؤجج الحماس في الصدور، وتعمل على زرع الثقة في نفوس الأمّة باللجوء إلى الإيمان المغلّظة التي تجعل الله شاهداً على ما في قلبها من النوايا والدوافع الخيِّرة، والأفكار الكبيرة الواسعة... ليطمئن الناس بجديّة قولها وإخلاص عملها فيقبلون عليها، ويحاربون خصومها، ويساندونها في كل خطواتها التي تصعد بها إلى الحكم، أملاً في تحقيق برنامجها الإصلاحي الشامل وتنفيذ وعودها الكبيرة، لتخرجهم بذلك من نير الظلم، وبؤس الحياة وظلمة الجهل، ومرارة الفقر.

وينجح هذا النموذج في خطته التضليلية وأساليبه الملتوية المخادعة، ويتولى مقدرات الأمة، وتتكشف الأفعال عن النيات الشريرة التي كانت تعيش في قلبه وفكره، وتظهر الخطط الإجرامية الخفية، في خطواته الأولى بعد تسلُّمه زمام الحكم، ومقدرات السلطة، فيسعى لإفساد البلاد والعباد ولإهلاك الحرث والنسل خلافاً لأوامر الله ونواهيه، لأن الله يحب الصلاح والإصلاح ويبغض الفساد والإفساد.

.. ويأتي إليه بعض هؤلاء الذين ساندوه وآزروه وعاونوه على قهر خصومه، ليذكّروه بوعوده، وليخوفوه من عذاب الله وعقابه، فيطلبوا إليه أن يتقي الله في عباده وبلاده، ويرجع عن غيّه ويعود إلى رشده... آملين في أن يستجيب إليهم. فيحاورهم ويحاوروه، ليقنعوه بالسير على خط التقوى في الحكم والسلوك، ولكنه يرفض النصائح ويهرب من الحوار ويستنكر على هؤلاء الناصحين أن يعظوه وينصحوه، لأنه لا يعترف بالخطأ ولا يُسلِّم بانحرافه، بل يدّعي لنفسه العصمة، ولسلوكه الاستقامة، ولحكمه العدل. فيظلُّ سادراً في غيّه، ممعناً في بغيه، مطيعاً لهواه، مخالفاً لأمر مولاه، معتزاً بآثامه في كل ما يعمل أو يقول.

إنها الصورة الحية المتجسدة لهذا النموذج البشري، الذي يلبس لبوس الدين تارة، ولبوس السياسة أخرى، وثياب الاجتماع والاقتصاد مرة ثالثة، في صور مختلفة وأوضاع متنوعة، يجمع بينها الغش والتدليس والخداع، وتُخيم عليها أجواء النفاق..

وذلك هو قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

أمّا العبرة من تصوير هذا النموذج، فهو مواجهة الواقع الذي يختفي هؤلاء خلفه، والابتعاد عن السلوك الساذج الذي يعتبر الكلام المعسول والبرنامج الطويل العريض،

أساساً للثقة وميزاناً للتأييد، والاعتماد على دراسة حياة الشخص أو تاريخ الحزب أو الجماعة، من خلال ممارساتها الكثيرة في مجالات الحياة المختلفة كأساس للحكم على طبيعة الشخصية وواقع التجمّع. فبذلك يحصل المجتمع على مناعةٍ ذاتية ضد التأثر بالأساليب العاطفية والمواقف السطحية، لتسير حياته على هدى ونور، في تأييده أو رفضه للقيادات الفردية أو الجماعية في أي مجال.

بين الواقع والقيمة

وقد دأب القرآن الكريم على تقديم النماذج البشرية التي يختلف فيها ظاهر الصورة عن باطنها، ويبتعد فيها الواقع ـ بما يعيشه من قيمة معلنة ـ . وذلك من أجل أن يعمق رؤيتنا بالمواقف الحاسمة التي تتمخض عنها تجربة هؤلاء على صعيد الواقع، ولا تقتصر على المواقف التي تتمثل فيها شخصيتهم خارج مواقع الاختبار والامتحان، كي لا يعيش الإنسان المسلم ـ في داخله ومواقفه العملية ـ الطبيعة الساذجة البسيطة في مواجهة الأشياء المعقّدة، أو الذهنية الارتجالية السريعة في الحكم على الواقع الذي تختفي في داخله كثير من ملامح القضية وحيثياتها.

وربما نجد صورة مماثلة لهذا النموذج الذي قدمناه، في الصورة التي يحدثنا عنها الله ـ سبحانه ـ في قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

إنها صورة الإنسان، الذي يستسلم للجو الروحي الهادىء المطمئن، ما دام لا يكلفه شيئاً من مزاجه أو ماله أو امتيازاته، وما دام بعيداً عن التجربة، حيث يعيش الإيمان في حياته دون تحديات. ولكن القضية تختلف أمام الفتنة التي تواجهه في ماله أو في ولده أو في شهواته. إنه ليفقد توازنه ـ عندها ـ فتضطرب خطاه وتتعثر، وتختلط في وعيه صور الأشياء وحقائقها فينقلب على وجهه، وتتبدل المقاييس لديه، وترتبك القيم في

وجدانه، وتضيع الخطوط، فلا تستقيم على الخطوط الواضحة لدينا، ليصل إلى المواقع الثابتة فيها، ولا يرتكز على قاعدة متينة من الإيمان والعمل الصالح، ليحصل على النتائج المرضية عند الله في الآخرة. وبذلك يخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وقد نجد بعض الفرق بين الصورتين. ففي الصورة الأولى، ينطلق الزيف من خلال الشعار الذي يخدع الآخرين بما يعطيه من وعود، وما يوحي به من خير، ثم ينكشف الواقع من خلال الممارسة. وفي الصورة الثانية تنطلق الخديعة من خلال العمل البعيد عن التجربة، ثم تتضح الصورة من خلال التجربة المرّة التي يواجه فيها الإنسان تحديات الواقع، ولكنهما يتفقان في طبيعة الموقف الذي يوحي للإنسان بأن لا يقف خاشعاً أمام ظواهر الأشياء، بل يحاول أن يواجهها مواجهة واعية حذرة، تتلمس الملامح الحقيقية للصورة في ما تخفيه خلف الأقنعة الظاهرية.

إبليس في القرآن

لقد تحدث القرآن عن إبليس، كقوّة مادية مخلوقة من النار، وصوّره لنا ككائن متمرّد، يعيش في داخله زهو العظمة بالعنصر الذي خلق منه، بإزاء الإنسان الذي ينتمي إلى عنصر التراب. فإن النار تفني التراب وتحرقه، ولذا فإنها أعظم منه، مما يجعل لما يتولد منها سرّ العظمة بالنسبة لما يتولد من الآخر. وهذا ما دفعه إلى التمرد على الله في موضوع الجو التكريمي الذي أحاط به الله خلق آدم، ودوره في الأرض عندما أمر الملائكة بالسجود له ـ وكان إبليس ملحقاً بالجو الملائكي في ما يوحيه لنا القرآن ـ وتتتالى الصور القرآنية في أسلوب الحوار، لتجسِّد لنا العقدة المرَضية التي عاشها هذا الكائن ضد الإنسان. فقد أراد من الله أن يمنحه الخلود في الدنيا، ليتفرغ للإنسان، ليهبط به عن الدرجة العليا التي وضعه الله فيها، وليثير في داخله الصراع بين الخير والشر، ويحبب له الشر في أسلوب شيطاني دقيق خادع، ليلبي في داخله العقيدة الحاقدة التي تريد أن تحطم في الإنسان روحه وموقعه من الله.

ويصور لنا القرآن الكريم ـ من خلال الحوار ـ أن الله أعطاه هذا الطلب لحكمةٍ يعلمها ـ سبحانه ـ ولكنه شرح له ولنا أن سلطته لا تتعدى دور الوسوسة التي تزين للإنسان المعصية وتحسّن له الجريمة. أمّا السلطة المباشرة التي تمثل الإكراه والقهر

والإلجاء، فهذا ما لم يجعله الله له، ولكن الإنسان الكافر والفاسق الذي لا يستثير إيمانه، ولا يعيش الإحساس بعداوة الشيطان، هو الذي يسلطه على نفسه ويعطيه زمام قيادته. أمّا الإنسان المؤمن، فلا يعطي الشيطان فرصة السيطرة عليه، نظراً للقوّة الروحية التي تهز كيانه وتثير فيه روح الصراع الحق، ولذا فإن الشيطان لا يملك أمر تحقيق ذاته في ما يريده ويعمل له من إضلال الإنسان. وقد انطلق الحوار القرآني، ليصور لنا الملامح العامة لإبليس في إطار ذلك كله.

إبليس في قصة خلق آدم

لقد خلق الله سبحانه آدم، وكرّمه وفضّله على كثير ممن خلقه. وكانت بداية التكريم الإلهي له، أن أمر الله ملائكته، وإبليس معهم، أن يسجدوا له في جو احتفالي عظيم، كتدليلٍ على عظمة هذا المخلوق الجديد لخصائصه الذاتية، وللدور الكبير الذي أُعدّ له في خلافة الله في الأرض، ولتسخير المخلوقات الطبيعية العظيمة له، ليستطيع القيام بدوره أعظم قيام.

وقد حدثنا الله في القرآن الكريم في أكثر من آية عن ذلك، وأفاض في حديثه عن الملامح الذاتية لإبليس التي يبدو فيها شخصاً تافهاً لا ينسجم في المواقف الكبيرة، مع إرادة الله، بل ينحدر في مشاعر الكبرياء العنصرية التي تربط قيمة الكائن ودوره بالعنصر الذي يتكون منه، ولا تلتفت إلى الخصائص الروحية والفكرية والعملية التي تتميز فيها الموجودات وتحرك حياتها، من أجل الوصول إلى أسمى المراتب وأرفع الدرجات، حيث تتحول الحياة إلى صراع في سبيل بلوغ الغد الأفضل والفكر الأفضل والعمل الأفضل. وتتنوّع الآيات القرآنية الكريمة لتجسّد لنا الصورة في أجواءٍ نابضة بالحياة، المليئة بالحركة في أسلوبٍ زاخر بالحيوية والشعور، يستهدف تعميق الهوة بين الشيطان والإنسان من جهة، وتركيز الإحساس بفظاعة الكبر والتفكير العنصري ومدى تأثيره على المصير الحياتي والأبدي للكائن الحي، كما حدث لإبليس.

ونلتقي مع بعض الآيات القرآنية التي توضح لنا الصورة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١١ ـ ١٣).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦١ ـ ٦٢).

وهناك آيات أخرى تشبه هذا الموضوع.

وقد لا نحتاج إلى جهدٍ كبير، لنعرف شخصية إبليس من خلال هذه الصورة القرآنية، فهي شخصية متكبر يعتز بعنصره فيتحدى إرادة الله، عند تعارضها مع نزعة الكبرياء في ذاته. وتتعاظم العقدة في نفسه، إلى درجة أن يكون مستعداً لمواجهة أسوأ النتائج، في قضية مصيره، للمحافظة على كبريائه الذاتي.

مأساة إبليس قضية وهمية

وقد حاول بعض المتفلسفين، منح موقف إبليس وجه المأساة في قضية إيمانه، فصوروه بصورة الموحّد الخالص في توحيده، المؤمن العميق في إيمانه، الذي رفض السجود لآدم، انطلاقاً من رغبته في توحيد العبادة لله، فلا يشرك أحداً في السجود لله ـ حتى إذا كان ذلك بأمر منه ـ فهو مستعد لتقبّل عذاب الله في سبيل الإخلاص لمحبته له وإيمانه به، ولكن هذه المحاولة لا تخضع لأيّ أساس ديني أو منطقي لأمرين:

١ ـ إن فكرة إبليس كموجود حيّ، ليست من الأفكار التي تخضع، للتجربة لنملك

أمر التصرف في تفاصيلها من خلال تجاربنا الذاتية، بل هي من الغيب الذي عرفنا الله إيّاه، في ما عرّفه لأنبيائه من أمور الغيب. وفي هذا الإطار لا بد لنا من أن نأخذ ملامحها وتفاصيلها من النصوص الدينية، عبر ما أوحاه الله في الكتب السماوية. وقد رأينا في هذه الآيات التي قدمناها مع هذا الحديث، أن امتناع إبليس من السجود لآدم كان بفعل الكبرياء، لا بفعل التوحيد والمحبة لله، وسنجد ـ في ما يأتي من حديث ـ في شخصيته، صفة الحاقد الذي يدفعه حقده إلى أن يمارس كل ما يستطيع من الأعمال في سبيل تحطيم هذا الكائن في ذاته وفي ذريته، كسبيل من سُبُل التنفيس عن حقده المكبوت في أعماقه. ولذا فإنه يطلب الخلود من أجل تحقيق هذه الغاية الشريرة في نفسه وإذا كانت الصورة القرآنية هي هذه الصورة، فمن أين أتى لنا بصورة الموحد المحبّ لله الفاني في ذاته، الذي يريد أن يحرق نفسه في سبيل الاحتفاظ بصفاء حبّه وإيمانه؟ هل نستطيع أن نضع ذلك في غير أجواء الخيال الشعري، يعيشه الشعراء الحالمون، الذين يحاولون إضفاء جوّ المأساة على المجرمين، إنطلاقاً من الاستغراق الذاتي في مشاعر المجرم أمام مصيره، بعيداً عن دوافع الجريمة ونتائجها الشريرة في تأثيرها على البلاد والعباد؟ تماماً، ككثير ممن يشجبون قانون القصاص للقاتل، على أساس المشاعر العاطفية الساذجة، بعيداً عن التخطيط الواعي للتشريع في حياة الإنسان. وقد نجد في بعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بعضاً من الملامح التفصيلية للصورة، ولكن في اتجاه آخر.

فقد ورد في البحار، عن قصص الأنبياء، عن (الإمام جعفر) الصادق ـ عليه السلام ـ قال: أُمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا رب وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنّك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها، قال الله جل جلاله: إني أحب أن أُطاع من حيث أريد[1].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج١ ـ ص ١٣٦.

فقد نجد في هذا الحديث بعضاً من ملامح الفكرة التي نقلناها، ولكنها لا تسير في الاتجاه الذي يحاوله هذا البعض، بل تسير في جوّ المساومة الساذج الذي يريد إبليس أن يرضي كبرياءه بالامتناع عن السجود لآدم، وذلك بالطلب إلى الله أن يقبل تعويضاً عنه بعبادة لم يعبده مثلها أحد. ولكن الواجب يضع القضية في إطارها الصحيح، لأن موضوع عبادة الله ليس عمليةً شكلية، تتمثل في أوضاع معينة من أعمال الإنسان، بل هي الخضوع لله في كل ما يريده بالطريقة التي يريدها، بعيداً عن كل نوازع النفس ودوافعها الذاتية. ولعل من أوضح مظاهر ذلك أن يكبت الإنسان رغباته الشخصية أمام إرادة الله.

٢ ـ إن قضية السجود لآدم لا تمثل شكلاً من أشكال عبادة آدم، ليتعارض مع الإيمان بالله وتوحيده وعبادته، وكيف يأمر الله عباده بالإشراك به، وهو الذي لا يغفر أن يشرك به؟ ولكنها تحية وتكرمة لآدم من جهة كما حدث من يعقوب لولده يوسف في قوله تعالى:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . . . ﴾ (يوسف: ١٠٠).

وهي من جهة أخرى، طاعة لله في امتثال أمره، وفي تعظيم خلقه كمظهر من مظاهر عظمته.

وهناك نقطة أساسية في هذا المجال، وهي أن اعتبار أيٍّ عمل من أعمال الإنسان عبادةً لأي شخص، يخضع للنية الدافعة له نحو العمل. فإذا كان السجود خضوعاً للإنسان أو للصنم، كان عبادة لهما. وأما إذا كان خضوعاً لله كما لو كان بأمر الله، فهو عبادة لله وإن كان موجهاً لإنسان أو لشيء آخر. وبهذا لا يعتبر تقبيل الحجر الأسود، عبادة له، لأن ذلك لا يتصل بالعظمة الذاتية له، بل للأمر الإلهي الذي اعتبره رمزاً من رموز القداسة وشعيرةً من شعائر العبادة. إنه أسلوب من أساليب عبادة الله التي حدّد لنا شعائرها، التي لا نملك أمر تغييرها ولكنها مهما اختلفت، فهي موجهة إليه وحده.

وقد أكدت هذا المعنى بعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ

فقد ورد في تحف العقول عن الصادق (ع): إن السجود من الملائكة لآدم، إنما كان ذلك طاعة لله ومحبة منهم لآدم[1] .

وفي قصص الأنبياء عن أبي بصير قال لأبي عبد الله (جعفر الصادق (ع): سجدت الملائكة ووضعوا جباههم على الأرض قال: نعم تكرمة لله تعالى[2] .

وفي حديث الاحتجاج عن الإمام علي (ع) (ضمن حوار مع أحد اليهود): إن سجودهم لم يكن سجود طاعة، إنهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة له[3] .

إبليس في دوره مع الإنسان

ما هو دور إبليس أمام الإنسان؟

هل يمثل القوّة الطاغية التي تشل إرادة الإنسان وتحيط به من بين يديه ومن خلفه، حتى لا تترك له مجالاً للسير في خط الطاعة والانسجام مع إرادة الله..؟

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نفهم تسليط الله له على الإنسان، وكيف ينسجم ذلك مع عدالة الله الذي يتوعد الإنسان على المعصية بالعذاب، في الوقت الذي يسلّط عليه الشيطان الذي يجبره على المعصية..؟

قد تكون هذه الصورة هي الصورة المألوفة لدى الكثير من أفراد الطبقات الشعبية، التي تحاول في كثيرٍ من أوضاعها المنحرفة إلقاء المسؤولية على الشيطان، وتبرىء نفسها من مسؤولية الانحراف، باعتبار خضوعها الطبيعي لأساليب الشيطان وخطواته. ولكن الصورة القرآنية هي غير ذلك.

---

(١) و(٢) و(٣) المصدر السابق ١٣٥ ـ ١٣٦.

فليس للشيطان إلا أن يحاول الإضلال بالوسوسة تارة، وبإثارة الوعود الكاذبة والتمنيات المعسولة، وخلق الأجواء المغرية أخرى.

أمّا الإنسان فإنه يملك، أمام ذلك، العقل الواعي الذي يميز بين الخير والشر، والصلاح والفساد، والرسالات السماوية التي تفتح للإنسان سبل معرفة ما يسلكه من طرق تؤدي إلى الله، والإرادة القوية التي تساعده على تحديد المواقف واستقامة الخطى على الصراط المستقيم. وهذا ما يجعل الصراع بين الشيطان والإنسان صراعاً متكافئاً، يملك فيه الإنسان الاختيار بين أن يريد أو لا يريد، فيلتقي فيه بكل النوازع الشريرة، وبكل الأجواء المغرية، وبكل الوسوسات الشيطانية... فيصارعها بعقله وإيمانه وإرادته، ليقف منها موقف القوي القادر الذي لا يستسلم ولا ينهار أمام كل عوامل الضعف والانهيار.

وقد أثار القرآن أمامنا ـ في تصويره لشخصية الشيطان ودوره في إضلال الإنسان ـ الشعور بقوّة الإنسان المؤمن على مواجهة كل قوى الشر، بما يملك من عقل وإيمان، إذا استعمل تلك القوى في عملية الصراع. أمّا الذين يخضعون له، فليس بسبب ضعف ذاتي، بل بسبب تجميد القوى التي يملكونها وتعطيلها عن الحركة والامتداد، ومواجهتهم له دون سلاح، فيقعون صرعى أحابيله ومخططاته.

وعلى ضوء ذلك كله، نعرف كيف يكون خلود الشيطان مع الإنسان ـ الذي يملك كل الأسلحة القوية في الصراع ـ علامةً على الثقة بالإنسان؟ ليختار مصيره على أساسٍ من إرادته وقدرته، لا على أساس من الجبرية والقهر الذي يجعله ريشة، تتقاذفها الأقدار مع الرياح إلى مكان سحيق. إنه الفرق بين الذي ينفعل بالأحداث ويخضع لها، وبين الذي يصنع قدره ويُخضع الأحداث لإرادته واختياره.

ونقف مع هذه النماذج القرآنية التي توحي لنا بهذا الدور المميّز للإنسان مع الشيطان في أكثر من صورة:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ

﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١١٧ ـ ١٢٠).

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٢ ـ ٦٥).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٣٦ ـ ٤٢).

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٦ ـ ١٨).

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

حدود السلطة الشيطانية

إننا نلاحظ، من خلال هذه الآيات في حوار الشيطان مع الله، أنه يعلن عن عزمه الانحراف بهم عن الخط المستقيم، وذلك بالإحاطة بهم من كل جانب، وتمنيتهم بالوعود

المعسولة الكاذبة، في ما ينتظرهم من خير إذا انحرفوا عن الله. ويمنحه الله ما يريد من ذلك، ولكنه يحذره من الاستغراق في أوهامه وأحلامه، فهو لا يملك السلطة المباشرة على الإضلال، فلا يستطيع إضلال من يريد الهدى ويعمل في سبيله، ولا يقدر على إغواء من يريد الرشد ويسير على هداه، بل كل ما يستطيعه أن يُمنّي ويغري ويضغط ويوسوس، فيتبعه كل من يعيش للأماني والاغراءات وينحني أمام الضغوط المتنوعة من دون مقاومة. وهذا ما يعترف به الشيطان أمام الناس الذين ضلوا بسببه، عندما يقف في يوم القيامة ليواجه حساب المسؤولية، فيتخلص مما يريدون أن يحمّلوه منها، بالإعلان لهم بأن دوره هو الإيحاء والدعوة والوسوسة، دون أن يكون له سبيل إلى الإرادة التي تصنع الأعمال بشكل مباشر. وبهذا نعرف كيف تبتعد القضية عن أن تكون انحرافاً عن خط العدالة في تكوين الإنسان وتحريكه، وتبقى في إطارها الطبيعي الذي أراده الله، وهي أن تكون سبيلا من سبل إثارة الصراع داخل الإنسان، ليختار طريقه من موقع الإرادة، لا من موقع القهر والإجبار. وهذا ما توحي به الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سبأ: ٢٠ ـ ٢١).

ولعل الصورة تتضح أكثر إذا تابعنا الآيات الكثيرة التي تعمل على إثارة الإنسان ودعوته إلى أن يتخذ من الشيطان موقف العداوة، الذي لا مهادنة منه ولا مجاملة، وتوجيهه إلى امتلاك تقرير مصيره بعيداً عن تسويلات الشيطان وتهويلاته.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ٩٨ ـ ١٠٠).

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦).

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

وقد لاحظنا ـ ونحن نتابع أجواء الحوار الذي نقله لنا القرآن، في حوار الشيطان مع الله ـ كيف يقف هذا المخلوق من الإنسان، موقف الحاقد الذي يريد أن ينتقم ويدمّر الإنسان ويعمل على الإساءة إلى المكانة الرفيعة التي وضعه الله فيها، كردّ فعل على إبعاد الله له عن ساحة رحمته؛ مما يجعلنا لا نجد أيّ ظل للفكرة المزعومة التي تتحدث عن عنصر المأساة في ذاته المؤمنة الموحدة، التي لا ترضى بديلاً عن عبادة الله، بل نجد، مكانها، صورة الكائن الذي يخضع لأنانيته المرضية، سواء في رفضه لأوامر الله، أو في مواقفه الخاضعة لردود الفعل الذاتية، دون نظرٍ إلى نتائجها السيئة على مصيره في الدنيا والآخرة.

الفهرست